

LA BOITE À MERVEILLES

roman

لمزيد من الكتب المترجمة زوروا موقعنا
<https://ilyas-soa.site123.me>

الفصل 1

في المساء، عندما ينام الجميع، الأغنياء في بطانياتهم الدافئة، الفقراء على درجات المحلات التجارية أو تحت سقائف القصور، أنا لم أكن أنم، كنت أفكر في وحدي و أشعر بكمال وزنها. إن وحدتي قديمة جدا.

في نهاية زقاق لا تبلغه الشمس مطلقاً، كنت أرى طفلاً صغيراً ذا ست سنوات، ينصب فخاً ليمسك بيوري لكن هذا الدوري كان لا يأتي أبداً. كان يرعب بشدة في الإمساك بهذا الدوري الصغير، ليس لأكله ولا لتعذيبه، كان يريد فقط أن يجعل منه رفيقاً له، يقدمين حافيتين و على أرض مبللة، كان يجري حتى نهاية الزقاق ليمرر الحمير ثم يعود للجلوس على درجة المنزل و انتظار قدوم الدوري الذي لا يأتي. في المساء، يعود بقلب منكسر و عينين حمراوين، مارحاً في طرف ذراعه الصغيرة فخاً مصنوعاً من سلك نحاسي.

كنا نسكن دار الشوافة، بيت العرافه. بالفعل، كانت تعيش عرافه ذات شهرة كبيرة في الطابق الأرضي. كانت نساء من كل الأنواع يأتين لاستشارتها من بعد الأحياء. لقد كانت عرافه و ساحرة نوعاً ما. تابعة لأخوية گناوة (ناس غينيا)، مرة كل شهر، كانت تقيم جلسة موسيقى ورقصات زنجية. كانت سحب البنزوين تملأ المنزل و كانت المجلجلات و الگمبريات تمنعنا من النوم طوال الليل.

لم أكن أفهم شيئاً من الطقوس المعقده التي كانت تحدث في الطابق الأرضي. من نافذتنا في الطابق الثاني، كنت أميز بين دخان البخور الأطيف و هي تلوح. كانت تجلجل بآلاتها الغريبة. كنت أسمع زغاريداً. كانت الألبسة تكون تارة زرقاء سماوية و تارة حمراء فانيه، و في بعض الأحيان صفراء لامعة. كانت الأيام التي تلي تلك الحفلات كئيبة، أكثر حزناً و أكثر ملا من الأيام العاديه. كنت أستيقظ باكراً للذهاب إلى المسيد، كتاب قرآن يقع على بعد خطوات من المنزل. كانت أصوات الليل لا تزال تدور في رأسي، كانت رائحة البنزوين و اللبان تسركني، كان الجنون يحومون حولي، الشياطين السوداء المستدعاة من طرف الساحرة و أصدقائها بحماسة تبلغ حد الهذيان. كنت أحس بالجنون تلمسني

بأصابعها الحارقة؛ كنت أسمع صرخاتها كما في الليالي العاصفة. واصعا سبابتي في أذناني، كنت أتل لوبيات المنقوشة على لوحى بنبرة من اليأس. كانت غرفتا الطابق الأرضي مسكونتين من طرف الشوافة المستأجرة الرئيسية. في الطابق الأول، كان يسكن إدريس العاود، زوجته رحمة و ابنتهما الأكبر مني بسنة واحدة. كان اسمها زينب ولم أكن أحبها. كانت هذه الأسرة بأكملها تقيل في غرفة واحدة، كانت رحمة تطبخ في البسطة. كنا نتشارك الطابق الثاني مع فاطمة بزيوية. كانت نافذتنا متقابلتين و تطلان على الفناء، فناء قديم كانت بلاطاته قد فقدت مينا ألوانها منذ وقت طويل كما كان يبدو مبلطا بالأجر. لقد كان يغسل ويفرك كل يوم بالكثير من الماء و بمكنسة الدوم. كان الجنون يحبون النظافة. كانت زبونات الشوافة تحظين بانطباع جيد منذ البداية. انطباع الصفاء و السلام الذي كان يحث على البوح بالعديد من العناصر التي كانت تساعد العرافة على كشف المستقبل بثقة أكبر.

لم تكن هناك زبونات كل يوم. رغم غرابة الأمر، لقد كانت هناك فترة كساد. لم يكن من الممكن التنبؤ بوقتها. بشكل مفاجئ، كانت النساء تتوقفن عن اللجوء لجرع الحب، تصبحن أقل اهتماما بالمستقبل، لا تشتكين من آلام الكلى، الكتف أو البطن، لم يكن أي عفريت يضايقهن.

كانت الشوافة تختار هذه الشهور القليلة لتهتم بصحتها الخاصة، كانت تكشف الشرور التي لم يستطع علمها التقليل منها. كانت الشياطين تسبب لها الهلوسة، تصبح متطلبة بخصوص لون القفاطين، ساعة ارتدائها، البخور التي يجب حرقها في هذه المناسبة أو تلك. في ظليل حجرتها الكبيرة و المغلقة بقمash الكريتون، كانت الشوافة تتنحّب، تشتكي، تتعود و تخفي وسط سحب البنزوين و اللبان.

ربما كنت في السادسة، كانت ذاكرتي لا تزال شمعا طريا و كانت أصغر الأحداث تنقش فيها على شكل صور لا تمحي. يبقى لدى هذا الألبوم لأصلي به وحدتي، لأنّي لنفسي بأنني لم أمت بعد. في عمر ست سنوات، كنت وحيدا، ربما تعيسا، لكن لم تكن لدى أية نقطة رجوع تسمح لي بالاتصال بوجودي: الوحدة أو التعasse.

لم أكن سعيداً ولا تعيساً. كنت طفلاً وحيداً. هذا كنت أعرفه. حلقة مفقودة منذ البداية. كونت صداقات محتشمة مع أطفال الكتاب القرآني، لكنها كانت قصيرة الأمد. نسكن عوالم مختلفة. كان لدى ميول للحلم. كان العالم يبدو لي مكاناً رائعاً. مهرجاناً كبيراً كانت الساحرات تمارسن فيه تجارة مستمرة مع قوى خفية. كنت أرغب في أن يقبلني الامرئي. لأشارك في أسراره. كان رفاقي الصغار في الكتاب يكتفون بالمرئي. بالأخص عندما كان هذا المرئي يتجلّى في سكاكر زرقاء سماوية أو وردية بلون غروب الشمس. كانوا يحبون القضم، المص، العض بكمال أسنانهم. كانوا يحبون كذلك ألعاب القتال. مهاجمة الحلق كما كان يفعل القتلة، الصراخ لتقليد أصوات آبائهم، التشاتم لتقليد الجيران، القيادة لتقليد معلم الكتاب.

أنا لم أكن أريد تقليد أي شيء، كنت أريد أن أعرف.

حکی لی عبد الله البقال عن إنجازات ملك مدهش کان یعيش فی بلد من النور، من الأزهار و من العطور، أبعد من بحور الظلمات، أبعد من سور الصين العظيم، و کنت أريد أن أعقد صفقة مع القوى الخفية التي كانت تطيع الساحرات لكي تأخذني إلى أبعد من بحور الظلمات و أبعد من سور الصين العظيم. للعيش فی بلد النور ذاك، بلد العطور و الأزهار.

كان أبي يحدثي عن الجنة، لكن عن البعث فيها، كان لابد من الموت أولاً، كان أبي يقول بأن الانتحار إثم كبير، كان إنما يمنع من الدخول إلى تلك المملكة. إذن، لم يكن لدى سوى حل واحد: أن أنتظر! أن تُنْتَظِر حتى أصير رجلاً، أن تُنْتَظِر حتى أموت و أبعث بجانب عين سلسيل. أن تُنْتَظِر! هذا ما يعنيه الوجود. لم أكن أشعر بأي خوف تجاه هذه الفكرة. كنت أستيقظ صباحاً. أفعل ما كان يطلب مني. في المساء، كانت الشمس تختفي و أعود للنوم لأبدأ الغد من جديد. كنت أعلم بأن كل يوم ينضاف إلى الآخر، أعلم بأن الأيام تكون شهوراً، أن الشهور تصبح فصولاً، و الفصول تكون السنة. لدى ست سنوات، في السنة القادمة سيكون لدى سبعة ثم ثمانية، تسعة و عشرة. في سن العاشرة، يصبح المرء رجلاً تقريباً. في سن العاشرة، نطوف بمفردنا الحي كله، نتكلم مع التجار، نعرف الكتابة، على الأقل اسمها، نستطيع استشارة عرافية حول المستقبل، تعلم كلمات سحرية، تركيب تعاويذ.

في انتظار ذلك، كنت وحيداً وسط حشد من رؤوس صلعاء، أنوف مبللة، في دوار من تراتيل الآيات الكريمة.

كان الكتاب يقع في مدخل درب النواله. الفقيه، الشخص الطويل والنحيف ذو اللحية السوداء، الذي كانت عيناه تقذفان بنيران غضب باستمرار. كان يسكن شارع جياف. كنت أعرف هذا الشارع. كنت أعلم أنه يقع في آخر زنقة سوداء و مبللة، كان هناك باب منخفض يفتح طوال اليوم ليخرج منه صخب متواصل من أصوات النساء و بكاء الأطفال.

في أول مرة سمعت فيها هذا الصوت، أجهشت بالبكاء لأنني سمعت أصوات الجحيم كما وصفها لي أبي ذات مساء.

هذا التي أمي:

- سأصطحبك لتأخذ حماماً، أعدك ببرتقالة و بيضة مسلوقة و ستستطيع النهيق كالحمار !

أجبت و أنا لا أزال أفوق:

- لا أريد الذهاب للجحيم.

رفعت عينيها للسماء و صمتت، مشوشة من هذا القدر من الحماقة.

أظن بأنه لم يسبق لي أن ذهبت لحمام عمومي منذ طفولتي.

كان هناك دائماً تخوف غامض و إحساس بعدم الارتياح يمنعاني من دخوله. بعد التفكير جيداً، لا أحب الحمامات العمومية. كان الاختلاط، ذلك المجون و التهاون الذين يعتقد الناس بأنهم مضطرون لتصنعها يجعلني أنفر منها. حتى و لو كنت طفلاً، كنت أشم في هذا الحشد من الأجسام المبللة، في نصف اليوم المقلق هذا، رائحة الإناء، إحساس غامض جداً، خصوصاً في السن الذي كنت فيه لا أزال أستطيع مرافقة أمي إلى الحمام العمومي، الذي كان يثير في نوعاً من الاضطراب.

ما إن وصلنا، تسلقنا سدة عريضة مفروشة بحصير. بعد دفع خمس و سبعين سنتينا للصرافة بدأنا تعرينا وسط صخب من الأصوات الحادة، حركة مرور مستمرة لنساء نصف لابسات، مخرجات من صرر ثيابهن الضخمة قفاطينا و منصوريات، فمchanan و سراويل، حوانك بشرابات ذوات بياض براق. جميع هاته النساء كن يتكلمن بصوت عال، يلوحن بشغف، يطلقن صرخات يصعب شرحها و لا مبرر لها.

خلعت ملابسي وبقيت جالسا ببلاهه، يداي على بطني، أمام أمي التي انخرطت في حديث مع صديقة تعرفها. كان هناك أطفال آخرون، ولكن كانوا يبدون مرتاحين، كانوا يجرون بين الأفخاد المبللة والنہود المتسلية، جبال الصرر، فخورين بإظهار بطونهم المنتفخة ومؤخراتهم الصغيرة.

كنت أحس بالوحدة أكثر من أي وقت مضى. كنت أقتع شيئاً فشيئاً بأن هذا هو الجحيم. في القاعات الحارة، أهلكني أخيراً جو البخار، شخصيات الكوابيس التي كانت تتحرك فيه و درجة الحرارة، جلست في إحدى الزوايا، مرتجفاً من الحمى والخوف. كنت أتساءل ما الذي كانت تفعله تلك النساء اللواتي كن يتجولن في كل مكان، يجرين في كل الأنهاء، جارات دلاء كبيرة من الماء الفوار. الذي كان يرشني عند مرورهن. ألم يأتين للاستحمام؟ لقد كان هناك بالفعل واحدة أو اثنان من يمشطن شعرهن، جالسات بسيقان ممدودة، محتاجات بصوت عالٍ، لكن لم يكن يبدو على الآخريات حتى بأنهن قد انتبهن لوجودهن و كن يتبعن رحلاتهن الأبدية بدلائلن الخشبية التي لا تنتهي. كانت أمي، التي ابتلعتها الدوامة، تظهر من حين لآخر بين كتلة من السيقان والأذرع، ترمي لي بتوصية أو شتيمة لم أكن أستطيع فهمها ثم تخفي من جديد. كان أمامي، في دلو فارغ، مشط من القرن، غراف نحاسي مصقول جيداً، برتفالات وبيض مسلوق. أخذت برتفالة بخجل، قشرتها، مصصتها لمدة طويلة، بنظرة غير ثابتة، كان شعوري بقلة حياء جسمى قد قل وسط هذا الظليل، كنت أراقبه و هو يتغطى بقطرات كبيرة من العرق و انتهى بي الأمر بنسيان النساء اللواتي كن يتجولن، دلائلن الخشبية و رحلاتهن الغير مفهومة حول الحجرة. انقضت علي أمي، وضعتنى داخل دلو ماء، وسكتت على رأسي صلصالاً طيب الرائحة و رغم صرختي و دموعي أمطرتني بسائل من الشتائم و النار. أخرجتني من الدلو، رمتني في ركن مثل حزمه، اختفت من جديد داخل الدوامة. دام يأسى قليلاً، أدخلت يدي في دلو العدة و أخذت بيضة مسلوقة، كنت أحب هذه الوجبة كثيراً. لم أكن قد انتهيت من قضم المح عندما عادت أمي من جديد، سكتت على ماء فواراً و بارداً بشكل متتعاقب، غطتني بمنشفة و أخذتني نصف ميت إلى الهواء البارد على الصرر. سمعتها تقول للصرافة:

- لالة فطوم، سترك لك ابني، لم أحظى بعد بأي قطرة ماء لأستحم.

ولي:

- ارتدي ملابسك، يا رأس البصلة! هذه برتقالة لتنشغل بها.
ووجدت نفسي وحيداً، يداي متقطعتان على بطني الملتهب، أكثر بلاهة من أي وقت مضى، وسط كل هؤلاء الغريبات و صرر هن الباذخة. ارتدت ملابسي. أنت أمي لبرهة لكي تلف رأسي بإحكام بمنشفة عقدتها تحت الذقن، زودتني بكل أنواع التوصيات ثم تم ابتلاعها إلى داخل الفم العالى من طرف ذلك الباب الأسود الذي كان أمامي و الذي كانت تخرج منه جميع أنواع الإشاعات.

انتظرت على السدة حتى المساء. أنت أمي في الأخير، كان يبدو عليها التعب و تشكو من صداع عنيف.

من حسن حظي، كانت حصص الحمام هذه نادرة جداً. لم تكن أمي تريد أن تزعج نفسها بالطفل الآخر و الأرعن الذي كنت عليه. خلال غيابها، كنت أستسلم لنزواتي. كنت أجري في الدرج حافي القدمين، مقلدا خطوات الأحصنة الإيقاعية، أصهل بفخر و أقوم برفسات.

أحياناً، أفرغ ببساطة علبة العجائب خاصتي أرضاً و أحصي كنوزي. كان زر بسيط من الخزف الصيني يجعل حواسى ترقص. عندما نظرت إليه مطولاً، كنت أمس المادة بأصابعى باحترام. لكن كان في هذا الشيء عنصر لا يمكن إدراكه لا بالعينين ولا بالأصابع، جمال غامض لا يمكن وصفه. كان يفتننى، كنت أحس بكل عجزي و أنا أتمتع به بلا تحفظ. كنت أبكي تقريباً من الإحساس حولي بذلك الشيء الغريب الخفي، الغير ملموس، الذي لم أكن أستطيع تذوقه بلسانى، و لكن الذي كان له مذاق و قدرة الإسکار. و كان ذلك يتجسد في زر من الخزف الصيني و يعطيه بهذا روح و فضيلة تعويذة.

في علبة العجائب، كان هناك مجموعة من الأشياء متعددة العناصر التي، بالنسبة لي وحدي، كان لها معنى: كرات زجاجية، أزرار مزينة، حلقات نحاسية، قفل صغير بدون مفتاح، مسامير ذات رأس مذهب، محيرات فارغة، أزرار مزينة، أزرار بدون زينة. كانت هناك من هي مصنوعة من مادة شفافة، من معدن أو من صدف. كل واحد من هذه الأشياء كان يحدثني بلغته. كان أولئك هم أصدقائي الوحيدون. بالطبع، كانت لدى علاقات في عالم الأسطورة مع أمراء شجعان جداً و عمالقة بقلب حنون،

لكن كانوا يسكنون في الزوايا المخفية من مخيالي. بالنسبة لكراتي الزجاجية، أزراري و مساميري، كانوا هناك، في كل لحظة، في علبتهم المستطيلة، جاهزين لإنقاذني في ساعات الحزن.

في اليوم التالي للحمام، لم يكن يفوتنـي أن تحكي الحصة لجميع من في المنزل، بتعليق مفصلة تكثـر فيها المواقف و النواـدر التي تستحق الإعـجاب. كانت تقلـد حركـات شـريفـة تلك المعروفة في الحي و تصرفـات تلك الجـارة التي لم تكن تعـجبـها، كانت تـصف ثنـاء الـصرافـة أو غـضـبـ الملـكـات، أولـئـك السـمـسـارـات، أمـهـات المصـاـبـات، اللـوـاتـي كـنـ يـخـدـعـنـ الـزـيـونـات دون أن يـحـضـرـنـ لهـنـ قـطـرة مـاء وـاحـدةـ. بطـبـيـعـةـ الـحـالـ، كانـ الحـمـامـ العـمـومـيـ مـكانـاـ لـلـغـيـةـ وـ النـمـيـةـ. كـنـاـ نـتـعـرـفـ عـلـىـ نـسـاءـ لاـ يـسـكـنـ فـيـ الـحـيـ، بـقـدـرـ ماـ كـنـاـ نـذـهـبـ كـثـيرـاـ لـنـسـتـحـمـ كـنـاـ نـذـهـبـ لـلـبـقاءـ عـلـىـ اـطـلـاعـ بـمـاـ يـجـريـ، بـمـاـ يـقـالـ، كانـ يـحـدـثـ أـحـيـانـاـ بـأـنـ تـغـنـيـ اـمـرـأـةـ مـقـطـعاـ مـوـسـيقـيـاـ وـ هـذـاـ يـنـتـشـرـ هـذـاـ المـقـطـعـ فـيـ حـيـنـاـ. لـقـدـ شـهـدـتـ أـمـيـ مـرـتـيـنـ أوـ ثـلـاثـاـ مـعـرـكـاتـ نـسـاءـ حـقـيقـيـةـ. كـانـتـ مـثـلـ تـلـكـ المـوـاـفـقـ تـعـطـيـ مـجاـلاـ لـاـحـتـفـالـاتـ كـوـمـيـدـيـةـ.

طـوـالـ أـسـبـوـعـ، كـانـتـ أـمـيـ تـظـلـ تـمـثـلـ أـمـامـ نـسـاءـ الـمـنـزـلـ، صـدـيقـاتـ الـطـرـيقـ وـ الـجـارـاتـ، الشـجـارـ بـمـراـحـلـهـ الـمـتـعـدـدـةـ. لـقـدـ كـنـاـ نـحـضـيـ بـتـمـهـيدـ مـتـبـوـعـ بـتـقـدـيمـ لـلـشـخـصـيـاتـ، كـلـ وـاحـدـةـ بـقـوـامـهـ الـخـاصـ، تـشـوهـاتـ جـسـمـهـاـ، خـصـائـصـ صـوتـهـاـ، حـرـكـاتـهـاـ وـ نـظـرـتـهـاـ. كـنـاـ نـرـىـ وـلـادـهـ الشـجـارـ، نـشـهـدـ تـطـورـهـ، بـلـوـغـهـ مرـحـلـةـ الـذـرـوـةـ وـ اـنـتـهـاءـ بـالـأـحـضـانـ اوـ الدـمـوعـ.

كـانـتـ أـمـيـ تـلـقـيـ نـجـاحـاـ كـبـيرـاـ لـدـىـ الـجـارـاتـ، لمـ يـكـنـ يـعـجـبـنـيـ كـثـيرـاـ هـذـاـ النـوـعـ منـ العـرـوضـ. كـانـ إـفـرـاطـ أـمـيـ فـيـ الـبـهـجـةـ بـالـنـسـبةـ لـيـ مـرـتـبـطاـ بـعـوـاقـبـ مـؤـسـفـةـ. فـيـ الصـبـاحـ، مـفـعـمـةـ بـالـنـشـاطـ، لمـ يـكـنـ يـفـوـتـهـاـ، فـيـ الـمـسـاءـ، أـنـ تـجـدـ سـبـبـاـ لـلـخـصـامـ اوـ الـبـكـاءـ.

كـانـ أـبـيـ يـعـودـ دـائـماـ مـتأـخـراـ، كـانـ نـدـراـ ماـ يـجـدـنـاـ فـيـ مـزـاجـ جـيدـ. كـانـ فـيـ مـعـظـمـ الـأـحـيـانـ يـتـحـمـلـ قـصـةـ حدـثـ كـانـتـ أـمـيـ تـسـتـمـتـعـ بـطـلـانـهـ بـأـدـكـنـ الـأـلوـانـ. فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ، كـانـ حدـثـ تـافـهـ يـتـحـولـ إـلـىـ كـارـثـةـ.

هـذـاـ مـاـ حدـثـ عـنـدـمـاـ خـطـرـتـ لـرـحـمـةـ فـكـرـةـ الغـسـيلـ الـمـسـؤـومـةـ فـيـ يـوـمـ الـإـثـنـيـنـ. لـقـدـ كـانـ مـنـ الـمـتـفـقـ عـلـيـهـ أـنـ هـذـاـ يـوـمـ مـخـصـصـ لـأـمـيـ وـهـذـهـ. فـيـ الصـبـاحـ الـبـاـكـرـ، كـانـتـ تـحـتـلـ الـفـنـاءـ، تـملـؤـهـ بـمـعـالـفـ خـشـبـيـةـ، بـأـسـقـيـةـ كـانـتـ تـسـعـلـهـ

كتشوت، بدلاً للشطف و بحزم من الغسيل المتسخ. بالكاد تلبس سروال وقططانا قديما و ممزقا، كانت تنشغل حول نار مرتجلة، تحرك محظى السقاء بقصبة طويلة، تثور على الخشب الذي كان يعطي دخانا أكثر من الحرارة، تتهم بانعي الصابون الأسود بغضها و نقفي عليهم كل أنواع اللعنات.

لم يكن الفناء يكفي لنشاطها. كانت تصعد حتى السطح، تمد جبالها، تثبتها بالاستعانة بقصب التوت، تنزل ثانية لتمزج سحبا من الرغوة. في ذلك اليوم، كانت أمي ترسلني إلى الكتاب بقميص عادي تحت جلبابي كلباس. كان الغداء بسيطا. كان يجب علي أن أكتفي بربع من الخبز مدھون بزبدة زنخة، مرفوق بثلاثة زيتونات. حتى غرفتنا كانت تفقد مظهرها المعتاد. ترقد الأفرشة هناك بدون أغطية، لم يعد للوسائد أغلفة و كانت النافذة تبدو عارية بدون ستارتها المزينة بزهيرات صغيرة حمراء.

كان المساء مخصصا لطي الملابس. كانت أمي تأخذ قميصا منكمشا جدا و تفوح منه رائحة الشمس، تبسطه على ركبتيها، تنظر إليه بإمعان، تطويه، الأكمام في الداخل، بإبطاق، بضغط تقريبا. أحيانا، كانت تقوم بالغزل. لم تكن تحب الخياطة كثيرا و حتى أنا كنت أفضل مشاهدتها تجر منادفها أو تدير مغزلها. الإبرة، آلة حضورية بشكل خاص، كانت تمثل في عيني رمزا للمهارة. لقد كان تقليدا في عائلتنا أن المهنة النسائية النبيلة بامتياز كانت تتجلى في غزل الصوف. كان استعمال الإبرة يعادل الإلحاد تقريبا. كنا فاسدين عن طريق حادث، لكن كنا نبقى أوفياء لأصولنا الجبلية للأسياد الفلاحين.

لم يكن يفوّت أمي أبدا أن تذكر أصولها عند الشجار مع الجارات. لقد كانت تتجرأ حتى على أن تؤكّد أمام رحمة أنتا من أحفاد الرسول الأصليين.

- كانت تقول: توجد أوراق لإثبات ذلك، أوراق محفوظة بعناية من طرف إمام مسجد مدینتنا الصغيرة. من تكونين أنتي، زوجة صانع محاريث، بدون حسب، لتجري على نشر غسيلك، مليء بالقمل، بجانب غسيلي الحديث التنظيف؟ أعرف من أنت، متسولة من المتسلفات، خادمة من الخدامات، بائسة، مجرد متغوطه و مقلمه، لاحسة أطباق لا تأكل حتى الشبع أبدا. و زوجك! حدثني عن هذا الكائن الممسوخ، ذو اللحية التي نخرها العث، الذي تفوح منه رائحة الزريبة و ينهق كالحمار! ماذا تقولين؟

سأخبر زوجي؟ هل أنا أخشى زوجك؟ فلياتي! ساريه ما تستطيع امرأة نبيلة الأصول فعله. أما بالنسبة لك، كفي عن الصراخ واجمعي حبالك. ستشهد جميع الجارات لصالحي. لقد استفزتني. لست فتاة صغيرة لأ تعرض للإهانة من طرف امرأة مثلك.

من نافذتنا في الطابق الثاني، كنت أتابع المشهد وأنا شاحب من الفزع والخوف، بينما كانت ذاكرتي الطفولية تسجل الجمل العنيفة.

في المساء، و النعاس يثقلني، سمعت أبي يصعد الدرج. دخل كما هي عادته، اتجه نحو فراشه الموضوع مباشرة على الأرض. حضرت أمي العشاء، وضعت الطاولة المستديرة، طبق اليخنة والخبز.

كنا نحس بأنها تحد.

بدأ أبي بالأكل دون طرح أسئلة. كانت أمي لا تزال تحد. ثم رفعت صوتها بشكل مفاجئ وقالت:

- لا يزعجك هذا، عندما يتم اغتيابنا، شتمنا، شتم أصولنا الشريفة، أجدادنا الذين كانوا يجعلون القبائل ترتجف! لا يزعجك أن يحاول أنس من طبقة منحطة تلطيخ، بكلام غير لائق، عائلتنا التي تشمل بين أمواتها رجالاً شجعنا، زعماء، قدسيين و علماء!

كان أبي يتبع الأكل دون أن ينطق بكلمة واحدة.

أعادت أمي:

- أجل، كل هذا لا يزعجك. أن تتعرض زوجتك لكل الشتائم، لم تتأثر شهيتك و تأكل كما هي عادتك. أنا، أشعر بالكثير من وجع القلب حتى أنتي لن أكل مجدداً في حياتي.

أطلقت أمي عويلاً طويلاً و هي تخفي وجهها ببديها ثم أجهشت بالبكاء بدموع حارة. كانت تتنحّب، تتلافى، تضرب فخدتها بشدة، تغني باليقاع رتيب و حزين جداً كل المأسى التي أصابتها. كانت تحصي كل الشتائم التي تلقتها، النوعات التي تم وصفها بها. تكرر بدون توقف الثناء على أسلافها الذين تمت الإساءة لهم بنفس المناسبة.

بعد أن شبع أبي، شرب رشفة ماء، مسح فمه، سحب وسادة ليتكىء عليها و سأل:

- مع من تشارجي ثانية؟

كان للجملة أثر سحري على أمي. توقفت عن البكاء، رفعت رأسها و
خاطبت أبي بموجة من السخط:

- لكن مع ساقطة الطابق الأول، زوجة صانع المحاريث! لطخت هذه
المخلوقة المقرفة غسيلي بخرقها التي تفوح منها رائحة الزريبة. إنها لا
 تستحم عادة، ترتدي ملابسها لمدة ثلاثة أشهر، لكن لتفتعل شجاراً،
 اختارت الإثنين، يوم غسيلي، لتخرج خرقها. أنت تعرف صبري، دانما
 أحارب ببساطة المشاكل، لا أفقد أدبي التقليدي أبداً، لقد ورثت هذا عن
 عائلتي، كلنا مؤدبون، إن الناس الذين يستفزوننا بكلماتهم الفظة يضيعون
 وقتهم فقط. نعرف كيف نحافظ على هدوننا و نصون كرامتنا. كان لا بد
 لهذه المقلمة ...

انبثق صوت رحمة في الظلام.

- مقلمة! أنا! هل تسمعون، يا أمة المسلمين؟

لم يكفها النهار، إن الرجال موجودون الآن في البيت ويستطيعون أن
 يشهدوا أمام الله من هنا تعدى حسن الجوار.

ما حدث بعد ذلك لا يمكن وصفه بالكلمات، في البدء كانت هناك صرخات
 حادة و مطولة، صياحات، أصوات متقطعة. كانت كل واحدة من
 الغريمتين، تطل من نافذتها، تلوح في الفراغ، تقول شتائم لا يفهمها أحد و
 تتنفس شعرها. مسكونتين بشيطان الرقص، كانتا تقومان بالتوانات غريبة.
 خرج الجنان و الجارات من غرفهم و ضموا أصواتهم إلى أصوات
 الجنين. الرجال، بأصواتهم الخشنة، كانوا يحثونهما على الهدوء، كانوا
 يصررون على أن تلعننا الشيطان بشدة، لكن هاته النصائح الحكيمية كانت
 تزيد من غضبهن. أصبح الضجيج لا يتحمل. لقد كانت عاصفة، زلزالاً،
 ثورانا للقوى الخفية، انهيارا للعالم.

لم أكن أستطيع التحمل أكثر. كانت أذناي في عذاب، كان قلبي داخل
 صدري يلطم بقوة جدران قفصه. خنقني النحيب و انهرت على قدمي أمي،
 بدون وعي.

الفصل 2

الثلاثاء، يوم مشئوم بالنسبة لـ **لَتَّلَمِيذُ الْمَسِيدِ**، يترك في فمي مذاقاً من المرارة، كانت كل أيام الثلاثاء لها لون الرماد بالنسبة لي. كان الجو بارداً، كانت ليالي قد امتلأت بالكتابات. كانت نساء شعثاوات تهددنني بفقر عيني، كن يمطرنني بأبشع الشتائم. أحياناً، كانت واحدة تلقى بي من النافذة و أسقط في الفراغ بيطه. كنت أصرخ، حطت يد ناعمة جداً على جبيني.

في الصباح، ذهبت إلى المسيد كما هي عادتي، كانت **لِلْفَقِيهِ نَظَرَتِهِ** المألوفة لكل أيام الثلاثاء. لم تكن عيناه نفيذتين لأية شفقة. تناولت لوفي و بدأت بتلاوة الآياتين أو الثلاثة التي كانت مكتوبة فيه.

في سن السادسة، كان لدى وعي مسبق بتساوی العالم و بضعفی، كنت أعرف الخوف، كنت أعرف الألم البدني الذي تسببه عصا السفرجل. كان جسمي الصغير يرتجف داخل ملابسي الخفيفة جداً. كنت أعتبر مسبقاً المساء كوقت مخصص للمراجعة. كان يجب علي حسب العادة، أن أتلوا بعض الأحزاب من القرآن التي حفظتها منذ بداية الموسم الدراسي. في وقت الغداء، أشار المعلم إلي بالرحيل. علقت لوفي، لبست بلغتي التي كانت تنتظرني عند باب المسيد و عبرت الشارع.

استقبلتني أمي ببرودة. كانت تعاني من شقيقة فظيعة. لتسكين الألم، كان صدغاتها مغطتين بدوانز من ورق أزرق مطلي بوفرة بصمع الدقيق. كان الغداء مرتجلاً، و بدأ المرجل يصفر بصوت ضعيف على الموقد.

أنت لزيارتني لالة عيشة، جارة قديمة، استقبلتها أمي و هي تشتكى من آلامها المادية و المعنوية. كانت تتكلم بصوت النقاوه الضعيف، تطيل في وصف ذلك الجزء من الجسم، تمسك بعنق رأسها المحزوم بمنديل بكلتا يديها. تملقتها لالة عيشة بمختلف أنواع النصائح، وصفت لها فقيها كانت تعويذاته تحدث المعجزات لكنه كان يقع في منطقة ثانية. كنت أجلس في ركني بخجل و صمت. لاحظت الزائرة امتناع وجهي.

- سأله: ما به ابنك؟
و أجابت أمي:

- إن عيون الناس سيئة جداً، أطفأت نظرة الحسد بريق هذا الوجه الذي كان يشبه باقة الورود. هل تذكرين خديه اللذين كانوا بلون القرمز؟ وعينيه ذوات الرموز الطويلة السوداء كأجنحة الغراب؟ حسبي الله، سيكون انتقامه رهيباً.

- قالت لالة عيشة: أستطيع أن أعطيك نصيحة، لنذهب ثلاثة إلى سيدى على بوغالب هذا العصر. لن يستطيع هذا الطفل الذهاب إلى المسيد؛ إن جعلته يشرب ماء المزار، سيسعد بهجته وقوته.

كانت أمي لا تزال متربدة، إلقاعها، تكلمت لالة عيشة مطولاً عن آلام مفاصلها، عن ساقيها اللتين لم تعودا تستجيبان لها، عن يديها التقىلتين كالرصاص، عن الصعوبات التي تواجهها عندما تقلب في فراشها و عن ليالي الأرق التي قضتها و هي تئن مثل أιوب على فراشه. بفضل سيدى على بو غالب، سيد الأطباء و الفقهاء. اختفت أوجاعها.

- لاله زبيدة، إن الله هو الذي أرسلني لأنجذك، لأنك على طريق الشفاء.
أنا أحبك، أنت وابنك، لن أجده لذة في الطعام، و لا في الشراب، إن أنا
تخليت عنك في عذابك.

وعدت أمي بزيارة سيدي علي بوغالب و باصطhabي إليه عصر ذلك اليوم نفسه. تنفست لالة عيشة الصعداء. بقيت المرأتان تتحدثان لمدة طويلة بعد ذلك. صعدت أمي إلى السطح، عادت و معها باقة من النباتات العطرة التي كانت تزرعها في أصص مشقوقة و طاجر من المينا. عطرت شايها بعشبة رعي الحمام و القصعين. اقتربت على لالة عيشة غصنا صغيرا من الأفستانين لتضعه في كأسها. رفضت بأدب، قالت بأن هذا الشاي كان لذذا بما فيه الكفاية، وضعت في كأسها كل أنواع الأعشاب العطرة. تركته يتسبّع بها لمدة طويلة. أصبح شائي مرا، و لكن كنت أعلم أن هذا المشروب يريح إسهالاتي المتكررة.

نهضت أمي لتسعد. غيرت فميسها و منصوريتها، بحثت في قاع الصندوق عن حزام قديم مطرز بلون أخضر باهت، وجدت قطعة قماش بيضاء تستعملها كحجاب، لفت نفسها بشكل لائق بحاليها الحديث الغسيل. لقد كان يوماً عظيماً في الحقيقة، لبست جلبابي الأبيض بدل القديم الذي أرتديه كل يوم، جلباب رمادي صعب الوصف، ملطخ ببقع الحبر و دوائر الدسم.

عانت لالة عيشة الأمراءن في النهوض من الفراش الذي كانت ترقد عليه. بقيت لدى ذكرى حية عن هذه المرأة التي كان لها عرض يفوق طولها، رأس لصيق بجذعها، ذراعان قصيرتان تتحركان باستمرار. كان وجهها الملمس و الدائري يبعث في نوعا من الاشمئزاز. لم أكن أحب أن تُقْبِلَني. عندما كانت تأتي لزيارتنا، كانت أمي تجبرني على تقبيل يدها لأنها كانت شريفة، ابنة الرسول، لأنها امتلكت الثروة و حافظت على وقارها رغم تقلبات القدر. كانت أمي تتشرف بمعرفة لالة عيشة.

أخيرا، توجه الجميع إلى الدرج، ثم بلغنا الشارع بعد قليل.

كانت المرأتان تمشيان بخطى صغيرة، تقتربان من بعضهما أحيانا لتهامسا حول انطباعيهما. في المنزل، كانتا تزلزان الجدران بقول أدنى التفاهات. بقدر ما كانت حاليما الصوتية تعاني الأمراءن في البيت كانتا تصبحان في الشارع صامتتين و لبقتين بلطفت.

أحيانا، كنت أتجاوزهما، لكنهما كانتا تلحقان بي كل ثلاثة خطوات لتزوداني بنصائح عن الحذر و توصيات. لم يكن يجب علي أن أحتك بالجدران: كانت الجدران متسخة جدا و كنت أرتدي جلبابي الأبيض الرائع، كان يجب علي أن أمسح أنفي دائمـا بمنديلـي الجميل المطرز الذي كان معلقا في عنقي، كان يجب علي الابتعاد عن الحمير كذلك، لا يجب أن أتوارد وراءهم لأنهم يمكن أن يرفسوا ولا أمامهم لأنهم يستمتعون بأكل الأطفال الصغار.

- كانت أمي تقول لي: أعطني يدك.

و بعد خمسة خطوات:

- إمشي أمامي، إن يدك متعرقة جدا.

كنت أستعيد حريتي و لكن لوقت قصير. افترحت لالة عيشة أن ترشدني في الازدحام. كانت تمشي ببطء و تتخذ مساحة كبيرة. كان الازدحام يتكون سريعا. كان المارة يلقون علينا كل أنواع الملاحظات البغيضة و لكن سرعان ما يهبون لنجحتنا. كانت أذرع مجھولة ترفعني من الأرض، تمررنـي من فوق الرؤوس و كنت أجد نفسي أخيرا في مساحة فارغة. كنت أنتظر مدة لا يأس بها قبل أن أرى الحـايـكـين النـاصـعـين و هـما يـظـهـرـان من بين الحشد. كان هذا المشهد يتكرر عدة مرات خلال هذه الرحلة. عـبرـنا شـوـارـع بلا اسم و لا شـكـلـ خـاصـ. كنت منتبـها لـنصـائحـ مرـشدـنـيـ،

كنت أجتهد لابعد عن الحمير ، كنت أتعثر بركب المارة باستمرار. كلما كنت أجتنب حاجزا كان يظهر آخر. وصلنا أخيرا إلى المقبرة التي تمتد على مدخل سيدى على بو غالب. بادرت بخطوة مرح خجولة.

كانت القبور المغطاة بالأذرارون تحمر تحت ضوء الشمس. كان الباعة يقفون وراء أهرام البرتقال خاصتهم. كان يسمع صوت دف مغن شعبي و جرس بائع الماء. في مكان ضيق، كان قرويون يبيعون خشبا للغسيل، مجامر من الطين وأطباقا لطهي الحلويات، كانت صينيات بائعى السكاكر تجذب انتباهي. كانت تعرض ديكة و كتاكيت من سكر أصفر مزينة بخطوط وردية، أباريق شاي شفافة، بلاغي صغيرة و منافيخ. كانت هاته الأشياء الرائعة تذكرني بعلبة العجائب خاصتي. لقد أهداني أبي مثلها في بعض الأحيان، لكنها كانت تفتت قبل الوصول إلى المنزل و تصبح ببساطة رمادية و مغبرة، لا تستحق أن توضع مع كنوزي. كانت تبدو جميلة، هناك، تحت أشعة الشمس، في ضجة الحشد.

كان سقف القرميد الأخضر الذي يغطي الضريح ينبعض في سماء زرقاء كانت تلهم فيها سحب بيضاء و وردية بأشكال متغيرة. على درجات المدخل الرئيسي، كانت هناك نساء تجلسن على الأرض و تحدثن مع بعضهن البعض، كن يمضفن علامة معطرة وراء حجابهن، ينادين على أطفالهن الذين يلعبون في التراب. كن يتزاحمن ليتركن لنا ممرا ضيقا.

سرعان ما وجدنا أنفسنا في ساحة بدت لي واسعة جدا. كانت توجد في الوسط أربعة خوابي مليئة بالماء. وجدت أمي غرافا و سقتي، سكبت قليلا من المسائل في قعر يدها، مررت يدها على وجهي، عيني، مفاصل يدائي و كاحلائي. أثناء قيامها بهذا الطقس، كانت تتمتم بصلوات و دعوات غريبة، كانت توصيني بأن أبقى هادئا، كانت تذكر لالة عيشة بهذا الانقلاب أو ذاك خلال رحلتنا. كنت أتحمل كل ذلك بصيري المعناد، كنت ألوى عنقي لأشاهد حشدا من القبط الذين كانوا يصدرون ضجيجا مزعجا داخل هذا المعبد الغريب. كانت توجد الزاوية في آخر تلك الساحة. من كل جانب في غرفة مربعة كان نعش الولي موضوعا فيها، كان هناك بابان يقودان إلى غرف الحاج ، أناس قدموا من بعيد، ليتخلصوا من شرورهم، كانوا يعيشون هناك مع أطفالهم، منتظرين الشفاء.

عند وقوفهم أمام النعش، بدأت أمي و لالة عيشة بالاستجاد بالولي بأصوات مرتفعة. كانت كل واحدة تتجاهل كلام الأخرى. كانت كل واحدة تحكي له عن مأساتها الصغيرة، تضرب بيد مبوسطة خشب النعش، تئن، تتوسل، تؤنب أعداءها. كانت الأصوات ترتفع والأيدي تضرب النعش بطاقة و شغف أكبرين، كان هذيان مقدس قد تمكّن من المرأتين. كانتا تحصيآن كل شرورهما، تظهران ضعفهما، تطلبان الحماية، تطالبان بالانتقام، تعرّفان بذنوبهما، تقران برحمة الله و بقوة سيدى علي بوغالب و تلتمسان شفته. توقفتا أخيرا بعد أن أنهكهما و روعهما. أنت حارسة الصریح لتنثني على تقواهما و تضم صلواتهما إلى خاصتهما.

- قالت في الختام: أمنياتكم ستحقق و رغباتكم ستنفذ. إن الله كريم، يسكن الآلام و يضمد جميع الإصابات. تبلغ طبيته جميع المخلوقات. أليست عالمة على طبيته إرساله لنا رسلا ليصرفونا عن طريق الشر و يهدونا إلى طريق الجنة؟ إنه نتيجة لكرمه إرساله لنا بوساطة سيدنا محمد (صلى الله عليه و سلم) كلامه الجليل الذي يعلمنا الفضائل الأساسية: الصدقة، بر الوالدين، الإحسان إلى جميع المخلوقات. أولئك الذين قاموا بهذه الفضائل على أكمل وجه يصبحون أولياء الله و يشفعون لنا. يعتبر سيدى علي بوغالب من الورق. لقد كان يحب جميع الكائنات و بالخصوص القبط. لدينا حاليا أكثر من خمسين واحدة منها. نحضرها مريضة، جرباء و هزيلة. يكفي قليل من الوقت ل تستعيد صحتها و فرحتها. يجب علينا إطعامها و معالجتها لنسعد الولي.

كانت أمي تبحث في ملابسها. ثم ما لبثت أن أخرجت منديلا به عقدة كبيرة. فكته ببطء بالاستعانة بثنياتها عدة مرات. همست لالة عيشة بجملة غامضة في أذنها، هزت أمي رأسها و أعطت للمقدمة قطعتين من فنة فرنك واحد مصحوبتين بهذا التفسير:

- هذا من أجلي و من أجل الشريفة التي ترافقني.
فتحت الحارسة كلتا يديها، استلمت الهبة و باشرت ابتهالا طويلا. جاءت نساء لكي تنعمن بهذا السدى الروحي الذي يتلألأ القلوب.

تسليت خارج حشد النساء هذا ببطء لكي أذهب و أداعب قطا كبيرا ممددا بشكل كلي أمام الحائط. نظر إلى بعينيه الصفراوين، خرخ ثم أعطاني ضربة مخلب صارمة. تدفق الدم، بدأت يدي تؤلمني بشكل فظيع. أطلقت

صرخة، أسرعت أمي، شديدة القلق، دافعة جاراتها، متعثرة بحایكها الذي
كان يجر في الأرض.

كانت الإصابة تؤلمني و كنت أصرخ باستمرار. كانت النساء تطرحن
أسئلته، تتلمسن، تمنحتني برقة لمواساتي، تناذلتني بورديهن الصغيرة،
باقي الياسمين خاصتهن، جبنتهن الصغيرة البيضاء. دون أن تهذنني
إطلاقا، كانت تلك الدوامة من الوجوه تشعرني بالدوار. كنت أنتصب لتشقق
روحى، وضعت يد مبللة على وجهي، جفت فوطة دموعي و سيلان أنفي.
أوقفت برودة هذه اليد دموعي. لكن لم أتوقف عن الفراغ طوال طريق
العودة.

أنامتنى أمي إبان وصولنا إلى البيت.

كان أبي دائما أول المستيقظين. لم أكن أرى بوضوح خياله مع أول خيوط
الفجر و هو يتحرك ببطء. كان يلف حول الكلى خاصته حبلا من شعر
الماعز، طوله عدة أذرع، كان يستعمله كحزام. لهذا كان يدور حول نفسه،
يرفع ساقا ليمرر الحبل و يرفع الأخرى بالتناوب، يقوم بحركات واسعة
بذراعيه. ثم ينتقل بعد ذلك لتنسيق عمامته، يلبس جبابه و يخرج في
هدوء. كانت أمي ما تزال نائمة.

هذا الصباح، سمعت أبي يهمس لها:

- لا ترسليه إلى المسيد، يبدو متعبا جدا. وافقت أمي و غطست تحت
أغطيتها مجددا.

كان جميع من في المنزل ما يزالون نائمين.

جاء دوريان و حطا على جدار الفناء، كنت أسمعهما يقفزان من مكان
لآخر، ضاربين الهواء بأجنحتهما القصيرة، كانوا يتكلمان بشغف و كنت
أفهم لغتهم. كان حوارا محتمما: قالا هذا بثقة:

- أحب التنين المجف.

- لماذا تحب التنين المجف؟

- يحب الجميع التنين المجف.

- أجل! أجل! أجل!

- يحب الجميع التنين المجف.

- التين المجفف!

- التين المجفف!

- التين المجفف!

حفت الأجنحة، رحل الدوريان ليكملأ حديثهما على سطوح أخرى.
كنت أفهم لغة الطيور و حيوانات أخرى أيضاً، و لكنها لم تكن تعلم بذلك و
كانت تقرع عند اقترابي منها. كنت أحزن كثيراً لذلك.

خشخت دلاء مصطدمه في الفناء. كانت الشوافة أول من يستيقظ و كان
ذلك أفضل! كانت ظلمة الليل لا تزال موجودة في مثل هذا الوقت حول
النافوره و البئر، في المرابيض و في المشتل الكبير الذي كان يتناول
عليه الجميع من أجل الاغتسال.

كانت الشوافة تعرف الكلمات الفعالة التي تجعل هذه الظلال وديعة. مساء
كل خميس، كانت تحرق بخوراً، ترش الزوايا بمياه زكية الرائحة و تتنطط
بتعاوين طولية.

صفق باب. زينب، ابنة رحمة، بدأت تتنفس، كافتها أمها بصفعة مدوية و
امطرتها بوابل من الشتائم.

- في سنك! ألا تخجلين من تبلييل فراشك كل ليلة تقريباً؟ يجب أن أرمي
بك في زريبة بدل أن أحضر لكى بطانتيك كل يوم.
قاطعنها الشوافة:

- فليكن صباحك سعيداً يا رحمة!

- فليكن يومك مشمساً، لالة.

- كيف حالك هذا الصباح؟

- أشكر الله، لقد فرض على عقوبة رهيبة في اليوم الذي أعطاني فيه هذه
البوالة المشؤومة، أشكره على نعمه التي لا تحصى، أشكره في السراء و
الضراء.

- فليبعد عنك جميع الأحزان. كوني صبوراً! ستتعافي هاته الفتاة، ستكون
سلواك في عالم الشقاء هذا.

- فليس مع منك الله، لالة! فليدر بركاته عليك و على من تعزز بدون
حساب.

تقلبت أمي في فراشها، سعلت، تنهدت، ثم جلست في الأخير، نهضت و
فتحت النافذة. أصابت الشمس عيناي و المتنبي. سمعت صوت فتح

مصراعي نافذة فاطمة بزيوية. بصوت ناعس، بدأت أمي سلسلة تحياتها المألفة التي تناط بـها جارتها المقابلة كل صباح. تمنت لها هذه نهارا سعيدا بالطريقة المعتادة. لم تكن أي واحدة تسمع كلام الأخرى، كل واحدة كانت تتلو كلامها المنمق بشكل رتيب يخلو من الحيوية أو الحماسة. كانتا تطرحان أسئلة و لكن تعرفان الأجوبة مسبقا. منذ ثلاثة سنوات و نحن نسكن معا، لقد ردّتا نفس الجمل كل صباح. أحيانا كانتا تغيّران كلمة واحدة، تلمحان إلى بعض الأحداث الأخيرة، لكن مثل هذه الحالات كانت نادرة جدا.

سألت أمي بلا مبالاة:

- كيف حالك هذا الصباح؟ لا يؤلمك رأسك كثيرا؟ هل نمت جيدا؟
ختمت بـ:

- إن الصحة شيء أساسي، يا أختي! لا يمكن لشيء تعويضها.
أضافت في ذلك اليوم:

- إن ابني ليس على ما يرام اليوم. فليبعد الله عنك و عن من تعزّين كل سوء، و يفقأ عين كل من يحسدوننا.

سمع صوت الشوافة و هو يرتفع من الطابق السفلي:

- لالة زبيدة! فليكن صباحك مباركا! و فليبعد الله عنك كل سوء و ليحفظك أنت و أحبابك في صحة ممتازة!

أجبت أمي:

- فليكن يومك منيرا و مليئا بالبركات! كيف حالك هذا الصباح؟ فليس هر الله على سعادتك أنت و كل من تحبين.

تابعت الشوافة:

- لا تقلي على ابنك، يسهر أولياء الله على صحته. لديه حماة في العالم المرئي و في العالم اللامرئي. أعلم أنه عزيز على القوى المباركة. عندما يصبح رجلا، سيكون سيفا بين السيوف، محاربا لا يقهرا، خلية نحل مطلوبة لمذاقتها و لعييرها.

- قالت أمي و هي متسمحة: لالة، يقطر من فمك السمن و العسل و تعطر رائحة الجنة نفسك.

و أضافت أمي تغمرها البهجة و هي تنظر إلى السماء:

- يا إلهي، يا من يسمعني من أعلى السموات، أنشر كنوزك التي لا تنضب، يا سيد كل الكنوز، على هذه المرأة الطيبة؛ فلتكن مهابة كما تستحق في هذا العالم و لتنعم بجودك في الآخر. فلتتوح حياتها بأداء فريضة الحج في الأماكن العزيزة علينا، لنا نحن، عبادك، الذين هديتنا إلى الحق بوساطة رسولك (صلى الله عليه، و على آله و صحبه الصلاة و السلام!) أمين، يا رب العالمين!

- أجبت النساء في وقت واحد: أمين!

خلال هذه المراسيم، كنت قد نهضت و لبست جلبابي. كانت أذناي تطنان قليلاً، لكن لم أشعر بتاتاً بتعب أكثر من المألوف. كانت فكرة البقاء في المنزل طوال اليوم، بعيداً عن الفقيه و عن عصا السفرجل، تجعلني سعيداً للغاية. كان يوم أربعاء، كان اليوم التالي يوم عطلة في العادة و في يوم الجمعة كان الكتاب لا يفتح إلا بعد صلاة الجمعة. كان لدى يومان و نصف، يومان و نصف لأعيش كالأمير.

ساعدتني أمي لأنوncia و انشغلت باشغال النار في الركن الذي كانت تستعمله كمطبخ.

كان المنزل كله يدوي بصوت المنافيخ. كانت الشمس ساطعة. وضعت الطاولة عما قريب. كان هناك بيض مقلبي بزيت الزيتون و خبز طازج. بدأنا نأكل. علال، زوج فاطمة بزيوية، حرفته البستنة، صاح في مدخل المنزل.

- ألا يوجد أحد؟ هل أستطيع الدخول؟ أجبت رحمة:

- لا يوجد أحد. أدخل!

دوى صوت خطواته في الدرج. كنا ننتهي من الأكل عندما دخلت زوجته غرفتها. كانت تحمل طبقاً به فطيرتا سفنج. كنت أحبه كثيراً.

نهضت أمي لتسقبل الزائرة، بوجه منزعج، و فم مفروض، بدأت التعبير التي يتطلبها الاحترام في مثل هذه المناسبات.

- فاطمة! لماذا أز عجبت نفسك؟ لا أستطيع أن أقبل! لدينا، و الحمد لله، ما يشبعنا بشكل كاف! فطيرتان! هذا كثير جداً! بالله عليك لا أستطيع أن أقبل. حاولت جارتنا أن تربح هذه المقاومة. أمسكت بيدي أمي و اعترضت بحرارة.

- لا تستطعين أن تخليني هكذا. أعطيها لسidi محمد؛ فليعطيه الله الصحة! لا تستطعين الرفض؛ إن هذا شيء بسيط! أخيراً شكرتها أمي.

- فليغمرك الله بأفضاله، و ليذرك من أطعمه الجنة التي يخصصها للمختارين خاصته.

- سيفتح الله لنا جميع أبواب كنوزه. ذهبت فاطمة لتلتحق بزوجها و دفعت أمي الصحن إلى جانبي بكلتا الفطيرتين.

- قالت لي: كلها، أنت الذي تحبها، لا تحتمل معدتي الفطائر. تلذذت.

طرق أحد متعلمي أبي، الذي كان الجميع ينادونه بإدريس الفظ، بباب الدخول. طلب فقة ليقوم بالتسوق لنا. أوصته أمي بصوت مرتفع أن يختار لحما ليس فيه الكثير من العظام، و فولاً أخضر لدينا. كانت وضعية أبي مزدهرة جداً. كنا نستطيع تناول اللحم من ثلاثة إلى أربعة مرات في الأسبوع.

أبي، من أصل جبلي مثل أمي، بعد تركه لقرىته التي تقع على بعد خمسين كيلومتر من المدينة الكبيرة، عانى في البداية من صعوبات في كسب رزقه هو و زوجته الشابة. في بلاده، كان الناس نهايين و فلاحين. في فاس، كان لا بد من القيام بصناعة حضرية أو إنشاء تجارة صغيرة. في عائلتنا، لطالما اعتبر البيع و الشراء من أحرق الأعمال.

كان أبي يتذكر بأنه كان يعمل كحائك للأغطية في فترة من شبابه داخل ورشة لأحد أخواله، كان يقوم بعمله بشرف، يحسن إنتاجه من يوم لآخر. عمما قريب، انتشرت صناعته بشكل جيد و تمنتت الأسرة ببعض الرفاهية، كان هناك عامل قديم يمارس نفس المهنة مع أبي؛ كان إدريس الفظ يلف البكرات و يقوم بالتسوق.

كان إدريس يأتي مرتين إلى المنزل: في الصباح لشراء المخزون و في منتصف النهار ليحضر غداء رئيسه. كان أبي يأكل في الورشة. كان لا يعود حتى المساء بعد صلاة العشاء. باستثناء يوم الجمعة. كان يبقى أبي في العمل حتى قرابة الظهر؛ كان يدفع لموظفيه، يذهب إلى المسجد ليؤدي صلاة الجمعة و تتغدى كعائلة.

عاد إدريس و هو يحمل سلطه الثقيلة. قامت أمي بالجرد. لم يكن الفظ قد نسي شيئاً. كان للحم مظهر جيد و كانت خصراً قشور الفول تسيل لعابنا بكثرة. كانت الفقة تحتوي كذلك على ثوم، بقدونس و كمية من رزم البهارات. كان لدينا زيت، فحم و دقيق للشهر كلها.

عندما كانت أمي تتكلم عن "عين الحсад"، كانت تفكر في هذه التروات حتماً. كانت الجارات الأقل حظاً تغرن منها قليلاً. لم تكن تتဂاهلن أي تفصيل من حياتنا المنزلية. كانت أمي بدورها تعرف صعوبات الجميع، الحالة المالية لكل أسرة، الديون التي كانت تأخذها، مصاريفها اليومية و مستواها الاعتيادي.

تم إفراغ الفول في سلة كبيرة من الحلفاء على شكل طبق.

- قالت لي أمي: ستساعدني على تقطيرها، وافقت و شرعت في العمل فوراً، مللت من هذا العمل سريعاً، ذهبت لأنقي نظرة على غرفة بزيوية. كانت تقتل الكسكس. في إحدى الزوايا، كانت هناك كومة من الخضر: لفت، جزر، يقطين و بصل. كانت جارتنا تحبني كثيراً. توقفت للحظة عن قتل الكسكس و طفقت تبحث في سلة. مدت لي، بابتسامة عريضة، فجلة حمراء كاللياقوت طولها شبر. ابتسمت لها لأنشكتها و غرزت أسنانى في الجسم الوردي لهذه الوجبة. كان طعمها قوياً لدرجة أن دموعي خرجت من عيناي. لم أقل شيئاً، رحلت متراجعاً إلى الخلف، صعدت الدرجات التي تؤدي إلى السطح و رميت الفجلة الجميلة من فوق الجدار الذي كان يفصلنا عن المنزل الآخر.

كانت الشمس مشرقة و حارة. كان هناك قط أبيض و أسود يرتاح على الحائط و يراقب حركاتي بعينيه النصف مغلقتين. لم أقترب منه. لقد علمتني ضربة مخالب القط المقيم في سيدي علي بوغالب أن أحترس من القطط التي تخرّر تحت أشعة الشمس.

كانت أمي قد بدأت تقلق من غيابي، نادت علي بصوت مرتفع، توجهت للدرج لأنزل ثانية. كان هناك شخص يصعد الدرج بأقدام حافية. كانت الخطوات المتراخية و خشخše الثياب تقترب. ظهرت رحمة. لم تعد أمي تحدثها منذ شجارهما. كانت المرأة تتجنبان اللقاء، أما أنا فكنت لا أعلم إن كان يجب أن أبتسم لها أو أهرب. تراجعت للحائط و تركت الأحداث تتخذ القرار بدلاً مني، بوصولها إلى ارتفاععي، توقفت رحمة، داعبت خدي

و دست شيئاً ما في يدي، كان شيئاً ناعماً و بارداً، لكن ملمسه أغرقني في حمام من السرور.

- همست لي جارتنا: هذا من أجلك.

لم أرد بشيء، و جريت لأنتحق بأمي التي كان صبرها ينفذ، كان الشيء لا يزال في باطن يدي و كان يطلق بروفة ماء العين.

جالسا في ركن من الغرفة، تجرأت أخيراً على رؤيتها، لقد كان حجراً كريماً من الزجاج متعدد الأوجه مرصع باللمس، حلبة مذلة و بربيرة، قادمة بدون شك من بعض القصور الموجودة تحت الأرض و التي تسكن فيها قوى الخفاء. هل كان رسالة من هذه الممالك البعيدة؟ هل كان تعويذة؟ هل كان حجراً ملعوناً أعطي لي من طرف عدوتنا ليثير علينا غضب الشياطين؟ ليجلب لي غضب جميع شياطين الأرض!

كنت أمسك في يدي شيئاً ذا قيمة لا توصف. سيكون له مكان في علبة العجائب خاصتي و سأطلع على كل خواصه.

وجدتني أمي في زاويتي، ألقت علي نظرة خاطفة و قالت: قطعة زجاج أخرى! احذر من أن تؤذي نفسك.

الفصل 3

مر هذان اليومان و نصف من الراحة بسرعة، في يوم الجمعة بعد الغداء، وجدت نفسي في الكتاب صائحاً بالأيات القرآنية و مجدداً كلمات لوحى بالكلمات.

كانت هناك خصلة شعر تزين الجانب الأيمن من رأسي. كانت تدور في جميع الاتجاهات بينما كنت أتعلم درسي بانفعال. كانت أصابعى تؤلمى من فرط ضربى للوحى الخشبي. كان كل تلميذ يمارس هذه اللعبة بشغف. كان المعلم يومن، ممسكاً عصاه الطويلة في يده. كان الضجيج و الضربات المتكررة على الألواح تسكتنى. كنتأشعر بالحر في خدي. كان صداعي ينざن. كانت لا تزال هناك بقعة شمس ذات صفرة باهتة على الجدار المقابل. استيقظ المعلم، وزع بعض ضربات العصا بشكل عشوائي ثم عاد إلى النوم.

كانت بقعة الشمس تتضاءل.

كانت أصوات الأطفال قد تحولت إلى سيل، إلى شلال و إلى صوت رشق. اختفت بقعة الشمس.

فتح المعلم عينيه، تثاءب، ميز من بين كل تلك الأصوات، تلك التي كانت تحرف آية كريمة، صبح الكلمة الخاطئة و بحث عن وضعية مريحة ليستأنف قيلولته. لكنه لاحظ بأن الشمس كانت قد اختفت. دعك عينيه، أشرق وجهه و أشارت العصا إلينا بالاقتراب. توقف الضجيج بشكل مباغت. و نحن جالسون كلنا قبالة منبر الفقيه، رتلنا أول سور القرآن. كان يعرفها الصغار كما الكبار. لم نكن نخرج من الكتاب قبل ترتيلها. في أيام الجمعة كنا نتبعها ببعض أبيات ابن عاشور المخصصة لفرانص الوضوء و دعاء أو اثنين لمناشدة رحمة الله لصالح والدينا و أوليائنا الموتى و الأحياء.

كنا نفرح عندما تبدأ تلك الابتهالات. كانت تعني نهاية معاناتنا، العودة إلى المنزل، الركض في الأزقة المبللة. أخيراً، أخرجنا المعلم واحداً تلو الآخر.

قبل الرحيل، كنا نتوجه إلى المنبر لتحيته مرة أخيرة و تقبيل يده.

أخذ كل واحد بلغته من على رف موجود في مدخل قاعة الكتاب و رحل. عندما وصلت إلى المنزل كان الظلام قد حل.

في انتظار عودة أبي، أكلت قطعة خبز حاف. أخرجت علبة العجائب خاصتي و غرفت في تأمل كنوزي. كان الحجر الزجاجي لا يزال يفتنني: لم أتوقف عن لمسه و ضمه بحنان إلى خدي.

أشعلت أمي شمعة كبيرة مغروزة في شمعدان نحاسي.

هذا المساء، كانت غرفة فاطمة بزيوية تلمع بشكل غير مألوف. لاحظت أمي ذلك. دون أن تترك مكانها، نادت جارتنا:

- فاطمة، أتقيمين زفافا؟ لماذا أشعلت عدة شموع؟... ماذا تقولين؟ قنديل!
انتظري أنا قادمة.

نهضت أمي، اتجهت إلى الغرفة المقابلة. لحقت بها.

أوه! يال الروعة! كان هناك قنديل زيت معلق في وسط الحائط. كانت شعلة بيضاء و هادئة ترقص بشكل خفيف داخل زجاج على شكل يراعة. كانت هناك نافذة في الخلف تزيد شدة الضوء. لقد كنت أنا و أمي مبهورين بالكامل. قالت أمي في الأخير:

- يضيء قنديلك جدا. لكن لا يوجد خطر انفجار؟ مخاطر حرائق؟ يقال أيضا بأن رائحة الزيت كريهة.
أجابت بزيوية بخجل:

- لا أظن بأن هناك أي خطر. يستعمل العديد من الناس هذه القناديل حاليا. إنها تبدو جيدة جدا. يجب أن تستاري واحدة، إنها تجعل الغرفة أكثر إشراقا و بهجة.

- أجابت أمي و هي تمدد شفتيها: أجل، بالطبع، القنديل يضيء أفضل من الشمعة لكنه أقل جمالا من شمعدان نحاسي.
اختفى فضولها، أمسكت يدي، أعادتني إلى غرفتنا. لم تقل شيئا حتى عودة أبي. حضرت العشاء كما هي العادة، وضعت الطاولة المستديرة الصغيرة، وضفت طقم الشاي في متناول يدها.

عندما عبر أبي عتبة الغرفة، أسرعت لاستقبله، أشرق وجهه، انحني، أمسكتني من تحت إيطي و رفعتي إلى علو وجهه.

- لقد أصبح ثقيلا، هذا الخائن! قريبا ستصير رجلا!

- قلت له: لا، سأصبح رجلا عندما تصير لدي لحية جميلة. في موسم البطيخ، عبئا فركت خدي بعصيرها، لا تنمو لي أية زغبة.

- قال لي أبي: حاول الموسم القادم، ربما تحصل على نتيجة ما؟ ستكون لديك إذن لحية سوداء جميلة.

- أنت يا أبي لديك زغبستان بيضاوان في لحيتك. أرى بأنك تشيخ.

- قال لي أبي: لا، لا، إنه مجرد حسد. من الأفضل الحصول على نقطة حليب في زغب اللحية بدل تينة أو عنقود عنب في طرف الأنف.
أغرقتني هذه الملاحظة في موجة من الضحك.

كان العشاء لزيذا، وجبة أفضلها على الجميع: أرجل خروف بالحمص. أكلنا كثيرا. أخليت الطاولة، قدمت لنا أمي الشاي بالنعناع وتحدثت عن أحداث النهار التافهة. كان أبي يرشف شايته ونادرا ما يجيب، قل الضوء للحظة، قللت أمي الشمعة بمقدار صدى، استغلت ذلك لتعلن بأن الشموع أصبحت قليلة الجودة، بأنه لا بد من شراء واحدة كل ثلاثة أيام و بأن الحجرة كانت تبدو مغمة بكل هذه الظلال التي تتراءكم في الزوايا.

- قالت في الختام: كل الناس "الجيدين" يستضيفون بالزيت.

تركـت هذه العبارات أبي في لا مبالاة تامة، كانت عيناي تلمعـان من الفضـول. كنت أـنتظر قرارـه و أـعجب في داخـلي بـمهـارـة أمـي. لكن خـاب ظـني، استـعدـتـ أبي للـنـوم دونـ أيـ تعـليـقـ. ذـهـبـتـ لـفـراـشـيـ. حـلـمتـ فـيـ تـلـكـ اللـيلـةـ بشـعلـةـ بيـضاـءـ جـمـيلـةـ استـطـعـتـ أنـ أحـبسـهاـ فـيـ الحـجـرـ الزـجاـجيـ المرـصـعـ بالـمـاسـ.

فيـ الـيـوـمـ الـموـالـيـ، بـعـدـ عـودـتـيـ مـنـ المسـيدـ مـنـ أـجـلـ الـغـدـاءـ، قـفـزـتـ فـرـحاـ مـنـ هـوـلـ المـفـاجـةـ عـنـدـماـ رـأـيـتـ قـنـدـيلـ زـيـتـ مـعـلـقاـ فـيـ وـسـطـ حـانـطـ غـرـفـتـاـ يـشـبـهـ الـخـاصـ بـجـارـتـاـ.

فيـ الصـبـاحـ، عـنـدـماـ قـدـمـ إـدـرـيسـ الفـظـ لأـخـذـ قـفةـ الـمـخـزـونـ، مـدـهاـ لـأـمـيـ. كـانـ قدـ اـشـتـرـىـ قـمـعاـ وـ قـنـيـنةـ زـيـتـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ مـخـزـونـ الشـهـرـ الـاعـيـاديـ. صـعـدـتـ الشـوـافـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـنـادـىـ بـ "ـخـالـتـيـ كـنـزـةـ"ـ لـقـرـىـ مـشـتـرـاـنـاـ الـجـدـيدـ. تـمـنـتـ لـنـاـ جـمـيعـ أـنـوـاعـ الرـفـاهـيـةـ. كـانـتـ أمـيـ تـشـرـقـ مـنـ السـعـادـةـ. لـعـلـهـ كـانـتـ تـرـىـ بـأـنـ الـحـيـاةـ تـسـتـحـقـ الـعـيشـ وـ بـأـنـ الـعـالـمـ تـسـكـنـهـ كـانـتـاتـ ذـاتـ طـيـةـ لـنـهاـيـةـ لـهـاـ. كـانـتـ تـدـنـدـنـ، تـوبـخـ بـحـنـانـ قـطـاـ أـعـجـفـاـ غـرـيبـاـ عـنـ الـمـنـزـلـ، تـضـحـكـ بـدـوـنـ سـبـبـ.

بالنسبة لأمي، كانت مثل تلك الأفراح قريبة جداً من الدموع. في ذلك اليوم، لم يمضي وقت طويلاً حتى حانت الفرصة؛ كما كانت تقول: استطاعت أن تشفى غليلها.

رحمة، زوجة صانع المحاريث، التي كانت قد خرجت هذا الصباح برفقة ابنتها زينب، بنية الذهاب إلى حي كالكليين لحضور سبوع، عادت و هي تبكي. بدأت تتنحّب منذ مدخل المنزل، تصفع خديها بشكل مدو.

- مصيبة! أصابتني مصيبة! أنا أتعس الأمهات؛ لن أنجو من هذا الوجع.
لا أحد سيخفف المعي.

انهمرت الأسئلة من كل النوافذ. كانت النساء قد أوقفن أعمالهن ، كن يتولسن إليها لتخبرهن عن الكارثة التي أصابتها. نسيت أمي بأن رحمة كانت مجرد مقلة، متسللة من بين المسؤولات. متأثرة جداً، أسرعت للطابق الأول وهي تصرخ:

- أختي! أختي المسكينة! ماذا أصابك؟ ربما نستطيع مساعدتك. كفي عن البكاء، أنت تكسرن قلوبنا.

أحاطت جميع النساء برحمة المسكينة. تمكنت أخيراً من إخبارهم: كانت زينب قد اختفت، تائهه وسط الحشد. حاولت أمها البحث عنها في الشوارع الصغيرة الجانبية لكن دون جدوى، كانت زينب قد تبخرت، ابتلعتها الأرض ولم يبقى لها أي أثر.

انتشر خبر هذا الاختفاء في الحي على الفور. عبرت نساء غريبات السطح ليأخذن جزءاً من ألم رحمة و يحتثنها على الصبر. بدأ الجميع بالبكاء بصخب. كانت كل واحدة من الحاضرات تتن، تتنحّب، تتذكر لحظات حياتها الأكثر حزناً، تشفع على حالها الخاص.

التحقت بمجموعة الباكيات وأجهشت بالبكاء. لم يهتم بي أحد. لم أكن أحب زينب، كان احتفاظها يسرني بالأحرى، كنت أبكي لأسباب أخرى. أولاً، كنت أبكي لأفعل كما يفعل الجميع، كان يبدو لي بأن حسن السلوك يتطلب ذلك؛ كنت أبكي كذلك لأن أمي كانت تبكي و رحمة، التي أهدتني حجراً زجاجياً جميلاً، كانت تشعر بالكاربة؛ لكن ربما كان السبب العميق هو ذاك الذي أجبت به أمي لما تعبت و كفت عن البكاء. توقفت جميع النساء، مسحن وجوههن، منهن من فعلت ذلك بمنديل و منهن من استعملت أسفل

قميصها. تابعت إصدار صراخ مطول. حاولن مواساتي. قالت لي أمي:
- توقف! سيدى محمد، سند زينب، توقف! ستزدلي عينيك بكل هذه
الدموع.

أحبتها و أنا أ فوق:
- لا يهمني إن لم نجد زينب، أنا أبكي لأنني جائع!
 أمسكتني أمي من معصمي و جرتي، مغناطة.

تغديت وحيدا و ذهبت إلى الكتاب. مر العصر بالنسبة لي مثل العصور الأخرى: رتلت الآيات الكريمة، ضربت لوحى. في المساء، بعد تلاوة درسي، أعدت سلوك طريق المنزل، كنت أتوقع أن أجده رأسا على عقب. لم يكن الأمر كذلك. كانت النساء تنفخن على نيرانهن و هن ساكتات، تحركن يخناثهن، تسحقن توابلهن داخل مهاريس نحاسية. لم أتجرا على سؤال أمي عن مغامرات زينب.

كما هي العادة، عاد أبي بعد صلاة العشاء. مر العشاء ببساطة، لكن عند وقت الشاي تكلمت أمي عن أحداث النهار بدأت قائلة:

- لقد قضت رحمة المسكينة يوما مليئا بالرعب. لقد شعرنا كلنا بالضيق.

- سأل أبي: ماذا حدث?
استأنفت أمي:

- تعرف علال الفران الذي يسكن في كالكليين؟ بلى، بلى، لا بد من أنك تعرفه. إنه متزوج بخديجة، أخت جارتنا رحمة. منذ سنة مضت، لقد أتوا ليمضوا أسبوعا هنا عند آبائهم، إنهم أناس شرفاء، نقاة و حسنو التربية، متزوجان منذ ثلاث سنوات، كانوا يرغبان بشدة في إنجاب طفل. لقد استشارت خديجة المسكينة المعالجين، الفقهاء، السحرة و الشوافات بدون نتيجة. منذ سنة، ذهبا في زيارة تبركية إلى سيدى علي بوسرغين. سبحث

خديجة في العين، وعدت الولي بالتضحيّة بحمل ابن حرق الله أمنيتها. أنجبت طفلًا. إن الأسرة في فرحة عارمة منذ ستة أيام. ستكون تضحيّة الاسم يوم غد.

تجرا أبي على الإشارة إلى أنه لم يكن يرى في هذا الحدث أي داع للجزع. لكن أمي قاطعته وأعلنت بأنه كان عاجزاً عن الإنصات حتى نهاية القصة.

- قالت: انتظر! انتظر! لقد بدأت للتو، أنت تقاطعني طوال الوقت. كانت رحمة إذن مدعوة إلى السبوع و حفل الاسم. اشتري لها زوجها لباساً جميلاً مزركشاً بأزهار متعددة الألوان. أخرجت منديل زفافها، ذلك المنديل الأحمر الجميل بزينة الطيور، ألبست ابنتها زينب ملابس جديدة و خرجنا باكراً هذا الصباح. مررتا من مشاطين، مقارين، الواديين...

- قال أبي ببساطة: لن تذكري كل شوارع فاس.

قهقهت، استقرت على أعين حادة للحظة واستأنفت أمي:

- وصلنا إلى رسيف. كان الناس يقطعون الطريق، كان هناك تاجر يبيع السمك الطازج، بفرنك و خمس و سبعين للرطل، (في الجوطية، يباع السمك بفرنكين و خمس و عشرين). كان الناس يقاتلون ليشتروا. عافت رحمة و ابنتها في دوامة الازدحام بمجرد خروجها، أصلحت رحمة حايكها و لاحظت اختفاء زينب! نادت، صاحت، استغاثت بالحشد. أوقف

البائع تجارته، أتى الناس لنجد الأم المفجوعة، لكن لم يتم إيجاد الفتاة. عادت رحمة و هي تبكي، بذلنا كل ما في وسعنا لمواساتها، أسرع علال البستاني بإخبار زوج رحمة. جاب منديان عموميان جميع أنحاء المدينة، أعطياً أوصاف الفتاة، واعددين بمكافأة لمن يعيدها لوالديها.

خلال هذا الوقت، نحن، نساء ضعيفات، لم نكن نستطيع إلا البكاء، إبداء تعاطفنا مع الأم المسكينة.

كان قلبي حزيناً. ذهبت أنا و فاطمة بزيوية إلى مولاي إدريس. في ظروف مشابهة، يجب طرق باب الله و أوليائه دائمًا ما يفتح هذا الباب في وجه المفجوعين. لاحظت امرأة عجوز المنا، سألتنا عن السبب. أخبرناها عن الحدث المحزن. أمسكتنا من أيدينا و أخذتنا إلى دار قبطون، منزل

الإدريسيين، مكان لجوء جميع المتخلّى عنهم. هناك، وجدنا زينب. كانت المقدمة قد استقبلتها و أطعّمتها في سبيل الله. حظيت ببريال كمكافأة و شكرناها لحسن ضيافتها. استعادت رحمة كلّ بهجهتها عندما استعادت ابنتها.

- ختم أبي: الحمد لله ثم أضاف: حضري فراش هذا الطفل، إنه نعسان جدا. تحت أغطيتي و بعينين مفتوحتين، كنت أتخيل في نعاس خفيق منزل الإدريسيين. كنت أتصور بيّنا واسعا بفسيفسae باهت، ينزع مثل قفير بأصوات نساء في دعوى طلاق، فتيات تعيسات و أطفال تائهون. أنا كذلك، كنت تانها في مدينة مهجورة، كنت أبحث عن مكان لجوء بدون جدوى. أحسست بأن وحدتي أصبحت تضيق على الخناق. صرخت. جاءت كلمة طيبة من بعيد لتخفف حمای و سقطت في الظلام، مطمئنا، مسترخيا، أتنفس بهدوء.

في الخميس التالي ولتشكر الله لإعادته ابنتها لها، نظمت رحمة وجة للمحتاجين. ساعدتها جميع نساء المنزل. غسلت لالة كنزة، الشوافة بمساعدة فطومة أكثر تلميذاتها تفانيا و إخلاصا، غسلن الطابق الأرضي جيدا، فرشن الأرض بحصائر و زرابي بالية. كانت فاطمة بزيوية، رحمة و أمي تحرّكن حول البرام و الكساكس. كن يطبخن في الهواء الطلق على السطح، على نيران من الخشب. كانت واحدة منهن تحضر الماء و أخرى تقشر الخضر أما الثالثة فكانت تحمل معرفة كبيرة و تحرك بها الصلصات التي كانت تغلي في أوعيتها النحاسية.

أنا و زينب، مسلمين لنزواتنا، كنا نجري من غرفة لأخرى، نصعد الدرج و نحن نلهث، نتلقى سحب دخان في عيوننا، مرفوقة بتوبيخات، ننزل ثانية لنلتجى إلى البسطة، لا نعرف ماذا نفعل بحريرتنا. كنا ننتظر وقت الغداء و حضور المسؤولين بفارغ الصبر.

عندما ملئت أطباق الخزف الكبيرة التي استأجرتها رحمة بالكسكس المسقى جيدا بالمرق و الذي يعلوه هرم من اللحم و الخضر، ذهب إدريس العاود إلى مولاي إدريس و إلى منزل العميان الذي يقع في شارع رياض جحا، ليحضر ضيوفه. بعد قليل، سمعنا في رواق المدخل، صخبا مجودا

بضربات عكاز و صياغات. كان إدريس أول الداخلين إلى الفناء. تبعه رجل أعمى بلحية بيضاء يرشده غلام ذو عشر سنوات. بعد ذلك، انتشر سيل من المسؤولين رجال و نساء في الساحة. كان العجوز الأول يمارس سلطة حقيقة على هذا الحشد ذي الثياب الرثة. كان الجميع يطاعونه. كانوا يظهرون الكثير من الاحترام لهذا الزعيم.

علمت فيما بعد بأن منزل العميان الذي يقع في شارع رياض جحا كان له زعيم يتم اختياره و قانون داخلي كان أعضاء هذه المؤسسة يخضعون له. كان إذن أمام عيني زعيم المسؤولين وسط جماعته.

جلس الجميع على الحصائر و الزرابي البالية. قبل تقديم الطعام لهم، استهلوا أنشودة كانت تتحدث عن النعم التي تنتظر المؤمنين كرماء القلب، أولئك الذين يطعمون المساكين و يكرمون ضيف الله. انتهت القصيدة بأدعية لإنزال البركة على منزلنا و على كل ساكنيه. ضم الرجال، النساء و الأطفال أيديهم، كانت الكفوف مفتوحة نحو السماء. تلوا أول سور القرآن. كنت أعرف هذه السورة جيدا و تلوتها بورع:

الحمد لله

رب العالمين

مررنا أيدينا على أوجها. قدم الكسكس. حول الأطباق التي كانت موضوعة على الحصير، جلس المسؤولون ليأكلوا. كانت زبديات من الطين، مزينة بالقطران، تقدم مليئة بالماء. كان المسؤولون يأكلون و يشربون بكرامة، بدون استعجال، بدون اضطراب. بعد أن شبعوا، لعقوا أصابعهم بعنابة، تتشفوا بفوط كانت موضوعة تحت تصرفهم.

عند إشارة زعيمهم، بدأوا تجوييد حزب من الكتاب المبين. كانت جدران منزلنا التي لطالما أصدرت صوت المجلجلات و الكانكا العزيزين على الشوافة تهتز مقدسة بفعل الآيات الكريمة. كان الحزب المختار طويلا للغاية. تم تجويده باليقان مليء بالعظمة. كان العميان في خرقهم يتلون كلام الله بيمان و يكتسبون نبل و عظمة تفوق الخيال.

بعد دعاء أخير تلاه زعيم العميان و ختم بكلمة أمين التي نطقها الحضور بصوت واحد، نهض الجماعة، رنت العكاكيز على فسيفسانتنا الباهرة. رحل المسؤولون و هم يضاعفون الشكر و عبارات المباركة.

دعت رحمة المشرفة الجارات و بعض النساء القادمات من المنازل المجاورة، جمعتهن في غرفتها، قدمت لهن وجبة ممتازة من اللحم بالخرشوف، كسكس بالحمص، سلطات بر تعال بالسكر و القرفة. حضرت أمي الشاي بالنعناع. جميعهن كن تصرخن، تقهقهن، تداعبن بعضهن بالتبادل، تطلقن زغاريدا.

قبل أن يجتمعن من أجل الطعام، كانت أمي و الجارات الآخريات قد غيرن ثيابهن، أخرجن من صناديقهن ففاطينا باللون براقة، دفينات مزينة بازهار و لبسن مناديل حريرية زاهية لتزيين رؤوسهن. دامت الحفلة حتى غروب الشمس. انتهت على السطح بزغاريد أخرى، أمنيات أخرى و وعد باللقاء ثانية.

خلال كل هذا الوقت، لم يهتم بي أحد، كنت قد أكلت مع زينب في طبق صغير كان يخصني و هدية من أبي في ليلة عيد الأضحى. كنا قد نجحنا في الحصول على الشاي الذي سكناه في براد من التنك، لعبة لزينب و في الأخير شاجرنا.

في الليل، عاد للمنزل هدوءه. أحسست بالحزن، أخرجت علبتي، أفرغتها على جزء من البطانية، نظرت إلى أشيائي واحداً بواحد. لم يكونوا يحثونني هذا المساء. كانوا ينامون جامدين، متوجهين و عدائين نوعاً ما. كانوا قد فقدوا قوتهم السحرية و أصبحوا حذرين و كتميين. أعدتهم إلى علبتيهم. ما إن أغلق الغطاء حتى استيقظوا في الظلام ليقوموا بدون علمي بألعاب فخمة و فاخرة. لقد كانوا يجهلون أن جدران علبة العجائب خاصتي لم تكن تستطيع أن تقلت من تأملها. كبر حجري الزجاجي البريء، تمدد، بلغ حجم قصر للأحلام، تزيين بالضوء و بقمash نفيس. ولجت المسامير، أزرار الخزف الصيني، الدبابيس و الجوادر المتحولة إلى أميرات، عبادات و مراهقات إلى هذا القصر، عزفوا ألحاناً عذبة، تناولوا أكلات فاخرة، نظموا حصصاً للأرجوحة، تسلقوا الأشجار لقضاء الفواكه، اختفوا في السماء على جناح الريح بحثاً عن مغامرات.

فتحت العلبة بحذر بالغ لاستمتع بالعرض بشدة أكبر. اختفى السحر، وجدت بكل بساطة حمراً زجاجياً، مسامير بدون روح و بدون غموض. كان هذا المنظر قاسياً. أجهشت بالبكاء، أنت أمي، تكلمت عن التعب، أخذتني للنوم.

الفصل 4

في الأيام الأولى لفصل الربيع، ذهبت أنا وأمي لزيارة لالة عيشة. كنا مدعوين لقضاء اليوم كله. قبل بضعة أيام، حضرت أمي حلوي منزلية من السميد الناعم، فطائر باليانسون و السكر، سللو، دقيق محمص ممزوج بالزبدة و عدة توابل.

حملنا كل هذه الحلويات. تركنا المنزل في الصباح؛ أتى إدريس الفظ لفانا في بيت صديقة أمي محلا بقفة المخزون خاصته و دجاجة بمظهر جيد جداً. أحضر إدريس كذلك قلب سكر، علبة شاي و باقة نعناع. اعترضت لالة عيشة، لامت أمي على هذه المصاريف الباهظة. كانت تنتظر زيارتنا و لهذا فقد قامت بالتسوق.

كانت لالة عيشة تسكن في زقاق زنقة حجامة، منزل ذو باب منخفض. كان هذا المنزل يشبه، بطريقة ما، لالة عيشة نفسها. كانت الإثنتان معاً قد عاشتا أفضل الأوقات، كانت الاشتنان تحافظان على سلوك مصطنع، لباقة بائنة.

كانت لالة عيشة تسكن غرفتين صغيرتين، في الطابق الثاني. كانت شرفة تطل على الفناء مزودة بدرابزين من الحديد المطرق تؤدي إلى الغرفة الرئيسية. كانت الغرفة الأخرى تطل مباشرة على الدرج و تستعمل بالخصوص كمستودع لمخزون الشتاء. كانت لالة عيشة تطبخ فيها كذلك. كان للحجرة الكبيرة نافذتان، كانت إحداهما تطل على فناء المنزل، والأخرى على سطوح المنازل المجاورة و سطح مسجد صغير في الحي. كانت هذه الغرفة التي كان طولها يضاعف عرضها نظيفة جداً. كانت أقمشة الكريتون الملبنة بالشاحير تغطي التخوت، كانت وسائد ضخمة مطرزة بنقط صغيرة و مغلفة بنسيج حريري شفاف تتراءم هنا و هناك. كان الجدار مزيناً برفوف مطلية، تحمل زبديات من الخزف الأوروبي، أطباقاً مزينة بورود كبيرة، كؤوساً على شكل غراريف. كانت ساعة حائطية من الخشب الداكن، غنية بالنقوش، القبيبات الجرسية و القلاند تحتل مركز الشرف. كانت الأرض مفروشة بحصير من الأسل. تم بسط سجاد ذات ألوان حية فوق الحصير.

كان مجموع هذه الأشياء يغمر في جو من اليسر والهدوء. بالطبع لم يكن الترف بل الراحة، عش ناعم في مأمن من الريح.

بمجرد وصولنا، قدمت لنا لالة عيشة بعض الحلوى والشاي بالنعناع. تكلمت بعد ذلك عن آلام مفاصلها التي عادت تضيقها، عن وجع أسنان كان قد أفقدها صوابها في الأسبوع الماضي، عن شهيتها المسوددة. طرحت العديد من الأسئلة على أمي التي كانت تجيب بلباقة، تتوقف عند نقطة ما، تبدأ استطراداً طويلاً، تمثل مشهداً بالحركات. بطبيعة الحال، كان جيراننا هم موضوع الحديث. لم تكن أمي تتحدث عنهم بسوء ولكن بحرية كبيرة في التعبير. كانت تقارن زوج رحمة بحمار ينهق دون توقف، و الخاص بفاطمة بزيوية بجرذ فلق. لم يكن أبي الذي كانت تدعوه بـ «الرجل» يفلت من ضربات مخالفها. كانت قامته الطويلة، قوته و سكوته تصبح محطة سخرية. أنا كنت أحب أبي. كان يبدو لي وسيماً. بشرته بيضاء محمرة قليلاً، لحيته سوداء، شفتاه حمراء مرجانية، عيناه سوداوان و صافيتان، كان كل شيء فيه يعجبني. صحيح أن أبي لم يكن يتكلم إلا قليلاً و كان يصلي كثيراً، لكن أمي كانت تتكلم كثيراً و لا تصل إلى كفاية. كانت بالطبع أكثر تسلية و مرحًا. كانت عيناها المترعرعتان تعكسان روح طفلة. رغم لون بشرتها العاجي، فمها الغليظ، أنفها الصغير و المتنع، لم تكن تبدى أية أنافة. كانت تبذل جهودها لتبدو أكبر من سنها. في سن الثانية والعشرين، كانت تتصرف مثل قابلة عظيمة الخبرة.

تحديثتنا لنا لالة عيشة بدورها عن جيرانها. كانت تصريح بفضائلهم المتعددة، كانت إداهن متواضعة و جميلة، و أخرى نظيفة، مقتضة و طباخة ماهرة، كما كانت هناك أخرى تقية و شريفة؛ من يسمعها يصدق أنهن كلهن تصاہين قداسة ملائكة الجنة. لكنها أخفقت صوتها لتهمس لأمي في باطن أذنها برأيها الحقيقي. أنهت حديثها بهذه الكلمات:

- لقد باركتني الله عندما ألهمني بفكرة السكنى في هذا المنزل الذي تعيش فيه كل النساء مثل الأخوات.

صعدت أصوات من الطابق السفلي، خرجت من جميع الغرف لشكر لالة عيشة على كلماتها الطيبة. وزعت أمي و لالة عيشة بصوت واحد المزيد من الثناء.

جاء أطفال المنزل ليدعوني للعب. كانوا يكونون مجموعة صغيرة تتكون من أربعة أولاد و ثلاثة بنات. لم أكن أعرف أسماءهم. وضعتنى البنت الكبرى ذات التسع سنوات تحت حمايتها. صعدنا إلى السطح. قمنا بسرعة بتأثيث صالة استقبال باستعمال أغطية قديمة و جلود أكباس. لعبت عليه مصبرات صدئة موضوعة فوق ثلاثة أحجار دور السماور؛ قامت أحجار أخرى موضوعة على قرص ورقي مقام كؤوس الشاي. ارتشفنا بوقار شايا افتراضيا لكن لذذا للغاية، أكلنا حلويات متخيلاً، وزعنا مداخن الفتاة الكبرى، مضيقتنا.

بعد ذلك، قررنا لعب العروس. اختيرت أصغر الفتيات لتمثل دور العروس. اكتفت الكبرى بشخصية النكافة، واحدة من تلك النساء المتخصصات في تنظيم مثل هذه الحفلات. نزلت لتحضر قطعة منديل، أحمرا للخددين، كحلا مسحوقاً جيداً لتتحليل العينين. جلست العروس على وسادة، قامت النكافة حسب العادة بوضع التبرج و الإباس المخطوبة الشابة وسط ضجة من الزغاريد والأغاني المرتجلة. ألبستها غطاء عوضاً عن فستان، سرحت شعرها، زينتها بأوراق مفرغة، مصنوعة حلياً ببذاءة، ابتعدت لتأمل عملها.

أحد الأولاد، محركاً من طرف غريزة الشر خاصته، جمع حفنة تراب و رمى بها وجه عروسنا. عمّت الفوضى، بدأت العروس و مدعووها بالصرارخ، بالقتل، بالجري في جميع الاتجاهات، بوجه ملطخ بالدموع و المخاط. كنت أصرخ مثل الجميع دون أن أعرف لماذا. كنت أحاول الإفلات من ذراعي البنت الكبيرة التي كانت تبذل جهدها سدى لتهذبني. صعدت إحدى النساء، وزعت بعض الصفعات و الشتائم، وصفت الأبراء و المذنبين بالشياطين و أنزلتني تحت ذراعها مثل الحزمة لتعيذني لأمي. تلقيت المزيد من التوبيخ الظالم. هددتني أمي بأنها لن تأخذني ثانية لأي مكان.

عادت أمي و صديقتها للحديث عن رحمة، زوجة صانع المحاريث، عن فاطمة بزيوية و عن خالتى كنزة العرافه.

حكت أمي عن صلحها مع جارتها في الطابق الأول، هرب زينب، صدقة المساكين. كانت تمدح رحمة. تتأسف على لحظة تعكر المزاج التي سببت الشجار. كانت رحمة تصبح امرأة شابة فاتنة، صريحة جداً! نزيهة جداً!!...

- قالت أمي: ثم إنها جميلة جدا! دائماً مبتسمة، دائماً نشيطة. يجب على زوجها أن يشكر الله لأنه أهداه سمراء لذيدة جداً. ألا تحبين هذه البشارة السفيعاء بحبات صغيرة جداً، هاتان العينان الكبيرتان اللتان تضحكان؟ ألا تملك فما جميلاً بشفتين مسدودتين و مقطعتين قليلاً؟

كانت لالة عيشة توافق، تومئ برأسها، تتنهد من الرضى.
لكن كانت أمي تتبع مسبقاً:

- فاطمة، جاري المقابلة، هي الأخرى لم ينسها الخالق. عينان جميلتان مليئتان باللطف! حاجبان بانحناء مثالي! بشرة صهباء! لكنني لا أحب وشم ذقنها.

- أضافت الصديقة: لديها كذلك نضاراة الشباب.

كنت أسمع ساكناً في مكانٍ. كنت أتعجب من سماع أمي و هي تعترف بجمال جارتنا. كنت أحس بهذا الجمال، لكن لم أكن أستطيع التعبير عنه بعبارات محددة.

كنت ممتنًا لأمي لتعبيرها، بعبارات دقيقة، عما كان يطفو داخل مخيالي على شكل صور غير واضحة، مشوشة، غير مكتملة. بخصوص خالتى كنزة اكتفت المرأة بهز رأسهما دلالة على التفاهم. كانت خالتى كنزة، الشوافة تتنمي بالنسبة لي لعرق آخر. كانت ملكية. كان بنو آوى يحسون بأنهم بنو آوى بجانب هذه اللبوة. إن جمال الملوك غريب! كلا، ليس ملوكات مملكات عبرة يقضى عليها الجوع، الشبق أو الشرابة، لكن ملوكات عذراوات تحملن على جنوبهن إلاه الإنصاف.

كانت عيناها الكبيرتان، في وجهها الشبيه ببرشمان ناعم، تقنن الزبان و تفرض الاحترام على أولئك اللواتي كن لا يحببنها. في الحقيقة، كنت أخاف منها بشكل غير واضح. كنت أربطها في أحلامي بالقوى المظلمة، بأسيد الخفاء الذين كانت تمارس معهم تجارة مستمرة. كنت أظن بأنها كانت تتمتع بقدرات لا محدودة و كنت اعتبر السكن مع شخص بهذه الأهمية كامتياز.

وصل مولاي لعربي، زوج لالة عيشة، بشكل مفاجئ. سمعناه يقول الجملة المخصصة عند المدخل:

- ألا يوجد أحد؟ هل أستطيع الدخول؟ أجابته ثلاثة أصوات نسائية في الوقت نفسه:

- أدخل! أدخل! أدخل!
سمع وقع خطواته في الدرج.

دخل مباشرة إلى الغرفة الصغيرة. لقد كان يعلم بزيارتنا ولم يكن مسموها له أن يرى أمي. أسرعت زوجته بموافاته. كان هناك تهامس مشوش ينزع في الغرفة الصغيرة و يتخلله سكوت. دام طويلا، كنت أنا وأمي جالسين ساكنين. لم نكن نعرف كيف نشغل أنفسنا. حكيت لأمي عن العابنا على السطح و سبب الفوضى التي تبعتها. أنصتت إلى بشرود، أجايبتني بجمل غير واضحة، نصائح ذات طابع عام حول التصرف السليم بين الناس.

نهضت لتنظر من النافذة، واجهت عيني جارة تتحنى هي الأخرى على الدرابزين، تتأمل الفناء الفارغ. حيث المرأةان بعضهما، تحدثنا عن فصل الربيع الذي كانت بداياته دائما متعبة. استغلت الغريبة الفرصة لتحدث عن إحدى النزاهات، رحلة في الهواء الطلق كانت قد شاركت فيها، لقد مضت عليها سنوات. كانت البادية المزينة مثل باقة برائحة العسل. كانت الطيور تنتشر من دغل إلى غصن. النساء تجرين حافيرن القدمين على العشب، تتبطن في الجدول، تغنين أهازيج تشرح القلب. عند منتصف العصر، ضربت عاصفة خفيفة الطبيعة. جمعت السجادات و الأغطية بسرعة. تكفل كل واحد بجزء من الأمتعة: أطباق فارغة، طقم الشاي، نعلات للماء. كان الفريق يتكون من رجلين و خمس نساء، كلهم آباء. اعتبر البعض المطر كبركة أما البعض الآخر فاعتبرها كارثة.

- كنا في حالة مزرية، عند عودتنا، كانت فساتيني الجميلة قد لحقها الوحل. ققطان مشمشي من ذلك الذي لم يعد يصنع في زمننا هذا. فوق هذا، كنت ألبس جلبابا مطرزا بأزهار خبازية و ...

عادت لالة عيشة لتلقيينا، بوجهه مرتبك. أشارت إلى أمي لتتبعها إلى ركن الغرفة الأكثر ظلمة. بقىت في النافذة. بقيت المرأة التي كانت تحكي أفضل ذكرياتها تنتظر عودة أمي للحظة. عندما رأت بأنها لم تعد و باعتباري صغيرا جدا لأقدر بهاء ملابسها، تركت جملتها غير مكتملة، تنهدت، رفعت عينيها إلى السماء لتشهده على عدم فهم الجنس البشري، أدخلت رأسها، اختفت في الطل الناعم لشقتها.

كانت أمي تتكلم بصوت خافت مع صديقتها. لم أتجرا على الاقتراب. سمعت كلمة « باشا » عدة مرات خلال حوارهما الغامض. كانت هذه

الكلمة تدهشني. تصايفني. الباشا؟ ألم يكن ذلك الشخص القاسي الذي يجعل الناس يتقاولون فيما بينهم حسب نزواته؟ يضعهم في زنزانة سوداء بخبزة شعير و قلة ماء؟ يدعهم يلتهمون من طرف الجرذان؟ كلمة «بasha» كانت تجعل الناس الضعاف يرتجفون. كان يرتبط في ذاكرتهم بمشاكل لا تحصى، بآلام صاحبة، بصرخات و انتحابات. كانوا يستدینون ليدفعوا لرجال البasha، يتحملون جميع أنواع الإحراج في المحاكم و يرون دائمًا ما كانوا يعتبرونها حقوقهم تتتحول بحيلة خبيثة إلى حجج ضدهم. لم تكن كل هذه الاعتبارات تمنعهم من افتعال شجرات من أجل أشياء تافهة. كانوا يسرعون بالذهاب إلى «بasha» ليعرضوا عليه مشاكلهم الصغيرة. كانوا يعودون من هناك دائمًا مستاءين، بعد تلقيهم لرفض قاس.

بدأت لالة عيشة بالبكاء بصمت. كانت تخفي وجهها بفسانها و تخر، أشفقت عليها أمي، أحاطت كتفيها بذراعها، تحدثت إليها كما لو كانت تتكلم مع بنت صغيرة.

كان المشهد يسلبني. كانت لالة عيشة الأكبر من أمري تتنقل الموسعة، تصبح الأخ الصغرى بين ذراعي الكبرى. كنت أرغب في الضحك، لكن كنت أعلم أن ذلك تصرف غير لائق. أجبرتني سخافة الموقف على الهرب إلى الدرج لكي لا أبدو قليل التهذيب. تمكنت اللقاء بالغريبة الصغيرة التي كانت تحسن لعب دور **النَّكَافَةِ**. كنا سنعيش معاً بعض المغامرات المثيرة، في بلد سحري. للأسف! كنت أعاني من الوحدة مسبقًا. جلست على إحدى الدرجات و دننت بلحن مرتجل كلمات خالية من المعنى:

الباشا!
أكل لالة عيشة
يا ليل! يا ليل!
يا عيني!
تبكي في الوحدة.

نادتني أمي من آخر الغرفة. سألتني إن كنت أنمى النهيق لمدة أطول. سكت، استندت على الحائط و سرعان ما نمت. سمعت شخصاً يوقظني. جرتني يد قاسية إلى غرفة لالة عيشة حيث كانت الطاولة معدة. كنت نعساناً جداً. أجبرتني أمي على الأكل، لكن لم أستطيع

ابتلاع شيء. كان مذاق الدجاج بالجزر يشبه التبن. لطخت جلبابي ببقة دهن كبيرة و تلقيت توبيخا صارما. في الأخير، وضعوني على فراش استطعت أن أشخر فيه على راحتني.

عندما استيقظت، كانت الشمس قد اخترت، كانت الشموع تومند صانعة ظلاما رائعا على الجدار.

جاء أبي لإحضارنا. نزلت الدرج متعرضا عند كل درجة. كانت الشوارع قليلة الإنارة. كان أبي يحمل فانوسا من التنك تم تزيينه بزجاج ملون يزيده تألقا. كانت أطيفات تبرز في الظلام، تتذبذب شكلها بشريا، تخفي بعد لحظة من خلفنا مبتلة من طرف الليل. لم أكن أعرف أي شارع. كنت أسمع وقع خطوات في بعيد. كانت تقترب ثم تخفي. نبح كلب. نشب شجار فقط على قمة أحد السطوح. كان العدوان يتحديان بعضهما، كان كل واحد يصبح بقدامه و شجاعته، ينفثان نفخات غضب. ابتعدت أصواتهما. كانت خطواتنا و حفيظ ملابسنا فقط من تنعش هذه المدينة الميتة.

وصلنا إلى بيتنا، أناستني أمي. غطتني في النوم.

في اليوم الموالي، الجمعة، عاد أبي للبيت لتناول الغداء كما هي عادته. كان يرتدي جلبابا من الصوف ناصع البياض به أزرار و عمامة جديدة، صلبة جدا بفعل الشد.

قدمت أمي الطعام، كان طبقا منقنا للغاية، أكلنا لحم الخروف بالخرسوف البري، كسكسا بالسكر و القرفة و في الختام سلطة لذيذة من البرتقال و زيت الزيتون.

ارتشفنا عدة كؤوس من الشاي بالنعناع. في وسط الصينية، كانت وردتا أصفهان تتفتحان داخل فنجان قديم من الخزف الصيني.

نتهدت أمي و خاطبت أبي:

- إن القدر يكون قاسيا جدا أحيانا. كل من الفقراء و الأغنياء، الآخيار و الأشرار يقعون تحت رحمة تقلباته. أشعر بالكآبة! كلما فكرت في لالة عيشة ينزف قلبي. لم أرد إزعاجك مساء البارحة بالأحداث المحزنة التي حدثت في النهار.

أصغى أبي باهتمام:
تابعت:

- مولاي العربي، زوج لالة عيشة، تшاجر مع شريكه، شخص يدعى عبد الحق ابن لا أعرف من...
رفعت عينيها إلى السقف لتدعوا:

- فليبعد الله عن طريقنا، عن أطفالنا و عن أطفال أطفالنا، كل أولاد الحرام الذين يأتون بالابتسامة على الشفتين و الصدر مليء بالظلمات. كن حامينا و وكيلاً: أمين! عبد القادر هذا، ابن الحرام هذا، لم يكن تابع الشيطان هذا يملك حتى قميصاً نظيفاً عندما وظفه مولاي العربي كعامل لديه في ورشه التي توجد في مشاطين. كان يحسن معاملته، يفرضه المال، يدعوه دائماً للغداء أو العشاء. كان عبد القادر مؤدباً و متملقاً حتى. كان يمدح مولاي العربي، يثنى على كرمه، طبعه الجيد و نبل أحاسيسه. كان كلاهما يعملان كثيراً. كانت البلغات المطرزة تلقى نجاحاً كبيراً لدى نساء فاس. كان لإنتاج مولاي العربي و عمله سمعة جيدة. فكر عبد القادر في الزواج. شجعه مولاي العربي على هذا القرار و وجدت له لالة عيشة شابة تستحق المديح. لازالت الأعراس تكلف الكثير. رغم الليالي التي سهرها، لم يتمكن عبد القادر من الاندخار. لقد كان محرجاً عندما تطلب الأمر دفع مهر لخطيبته. لجأ لرئيسه. تمكّن مولاي العربي من جمع ثمانين ريال. أودعها له بنية صافية. لقد ارتكب خطأً تسبّب في هذه النقود له دون كتابة وثيقة الاعتراف بالدين. ليساعد عبد القادر على ربح المزيد جعله شريكاً له في عمله.

- هل تعرف كيف شكره ابن الحرام هذا على أفضاله؟
لم يكن أبي يعرف.

على أية حال، لم تدع له أمي الوقت للإجابة. تابعت بهذه الكلمات:
- لا! لن تخمن أبداً! الناس عديمو الحياة، البانسون سيئون النوايا، أولئك الذين يغضبون الله و رسوله بفعلهم الوضيعة سيلقون جزاءً أفعالهم السيئة في يوم الحساب. أنكر عبد القادر، لم يكتفي بالإنكار فقط، بل ادعى بأنه دفع نصف رأس مال عمل مولاي العربي لشراء العدة، الجلد و الخيوط الذهبية. لم يكن الباشا مطلاً على جميع تفاصيل القصة. لم يقبل أية رواية من كلا الطرفين. كان أحد حراس الباشا مكلفاً بإجراء التحقيق، لكنه اكتفى بالحديث مع الخصميين. لقد طلب منها مبلغاً خيالياً من أجل الوقت الذي ضيعه، يقول: للصلح بينهما. رضخاً للأمر. تم عرض القضية على قاضي

التجار. أرسل هو الآخر معهما أحد حراسه الذي طلب منهما أن يعرضوا عليه الأحداث، لكنهما رفضا. قالا: «يمكن فقط لمتخصصي المجلس أن يفهموا موضوع النزاع»، اجتمع المتخصصون، تحدثوا حتى المساء. في آخر المطاف، حكموا لصالح عبد القادر. ياله من زمن! لم تعد هناك عدالة! ستقول لي: ليس خطأ هؤلاء القضاة إطلاقاً، من الصعب معرفة جذور ونتائج قضية كهذه. كيف للمرء أن يحكم على قضية لا يعرف كل معطياتها؟ أعرف، إن العالم هكذا، يلزم قضاة و نوابهم ليوفروا لهم العمل. إن الناس الشرفاء هم الضحايا دائمًا.

تدخل أبي:

- ليس دائمًا يرتكب القضاة الأخطاء أحياناً. حتى وإن كانوا قضاة، فهم يظلون بشرًا، يعني أنهم معرضون للخطأ. الله وحده من لا يخطئ أبداً.
 - قالت أمي: لا حول ولا قوة إلا بالله، وحده، لا شريك له، ثم أضافت:
 - لقد ضايقنا كل هذا في الأخير. لقد بكت لالة عيشة، في المساء، كانت تعاني من صداع عنيف.
- تبع صمت هذه الخاتمة.

كنت أسمع حبات المسبيحة التي كان أبي يضغطها بأصابعه الطويلة. كانت رحمة تضرب فوق خبزها لترى إن كان قد تخمر. كانت زينب تلعب مع القط، قط أسود، زَمْنٌ، كانت الأسرة قد تبنّتته لترضي نزوة ابنته. كنت أسمع ما تحكيه لها. كان الأمر يتعلق بإطعامه عسلاً وزبدة، حلويات محسوسة، لوزاً وأفخاد دجاج؛ كان الرضيع الكبير سيحظى بسلهام مخمرٍ ويلبس عمامنة من الحرير.

خرقاء كبيرة! منذ متى كانت القلط مولعة بالعسل؟ سيكون قط بعمامة من الحرير أسفف شيء في العالم. لم تكن بنت بمثيل غباء زينب لتجد شيئاً أكثر تسلية في رأسها الفارغ. لم تكن تعرف اللعب في نظري. كانت إذن مسكونة للغاية ومحترقة. أنا، كان لدي كنوز مخبأة في عبة العجائب خاصتي. كنت الوحيد الذي يعرفها. كنت أستطيع الهرب من عالم الإكراهات هذا الذي يعيش بالباشوات، بقضايا التجار، بالحراس المستأجررين وأللتجاء إلى مملكتي التي كان كل شيء فيها في وئام، أناشيد وموسيقى. كان رفيقي عبارة عن أبطال و أمراء عادلين. لسماع آخر إنجازاتهم، كنت أنوي الذهاب للإنصات لعبد الله، البقال، عدا عن ذلك، لم يسبق لي أن

رأيت عبد الله، لكنه كان يحتل مكاناً مهماً في عالمي. كل القصص الرائعة التي كانت لي فرصة سمعها، كنت أنسبها له. لكن عبد الله كان له وجود. خصص أبي، الذي لم يكن يتكلم كثيراً، أمسية كاملة ليرثي أمي عن عبد الله و عن قصصه. أثارت قصة أبي خيالي، أسررتني طيلة طفولتي.

كان فصل الشتاء، كان الريح يصفق بباب السطح و يصفر في الدرج. كنت أضع رأسي على ركبتي أبي. كنت أسمع. كان يتكلم ببطء، بصوته الخشن، هاهي قصته:

"يعرف عبد الله العديد من القصص. نادراً ما تكون القصص التي يحكى ممتعة. تنتهي بشكل مفاجئ، دون البحث عن مؤشرات و لا نهاية واضحة. يشبه عبد الله قصصه بشكل غريب، إن بداخله شعراً و غموضاً. لديه متجر في حفارين، في ذلك الزقاق البارد جداً في الصيف و الخالي في جميع فصول السنة."

"يباع عبد الله جميع أنواع الأشياء المغبرة، الباهنة، معلقة بالمقلوب على رفوف ليست أقل اغتراراً، ليست أقل بها. لديه قليل من الزبان، لكن كثير من الأصدقاء. من الصباح إلى المساء، يأرجح عبد الله منشته، متربعاً على جلد خروف أكله العث.

إنه يسكن في الحي منذ زمن بعيد. كان رأسه ينتمي في عسرين، عشرة وسائل من ثلاثة أحجام مختلفة، حزمة خيوط و بعض علب التنك التي يفترض أن بها توابل.

منذ ذلك الحين، ابليست لحيته و تقلص حجم العسوان، لايزال هناك ثلاثة الوسائل، أما بخصوص الخيط و التوابل، فلم تسعني أي فرصة باستعمالها. لقد حكى قصصاً، منذ وصوله! لا يكرر عبد الله نفس القصة و يبدو كأنه يعرف عدداً لا يحصى. يحكى منها للأطفال، للناس الكبار، للحضربيين و للقرويين، للذين يعرفونه كما لزوار يوم واحد.

أحياناً، تدور قصص عبد الله ربع ساعة و أحياناً أخرى صبيحة كاملة. يحكى بها بدون ابتسامة، بإيقاع منشته الاحتفالي. يروي بدون توقف، دون أن يشرب أو يتحنح، دون تحريك يديه، أو شغل أصابعه.

لم تكن أي واحدة من عبارات البركة الغالية على القصاصيين العرب تزين قصته. يحكى معارك غريبة، قصص حب بريء مذهلة، أسفاراً مشوقة في

بلدان خرافية أو بكل بساطة شجار حانوتي مع جاره، ليلة بانس في العراء، طعام متسول.

« البعض يحبونه، البعض الآخر يكرهونه لكن لا يخروننه بذلك، لكن الجميع يستمعون له و هم مفتونون.

« يبدو عبد الله لا مباليا؛ لم يكن حب البعض، و لا كره الآخرين يخرجه عن لا مبالاته. يقول الأصدقاء، عبد الله الحكيم، عبد الله الشاعر و أيضا عبد الله العراف. يصفه أعداؤه بالكاذب، بالمنافق و أحيانا بالساحر. ماذا يكون إذن؟

« إنه بقال يحكى قصصا.

« طلب أحد الوجاهء سيني التوابا من زعيم الحي أن يذهب لسماع قصص عبد الله لأنه اكتشف فيها تلميحات و انتقادات تمس المخزن المحترم. على العكس، أكد واحد آخر بأن المخزن يدفع لهذا البقال عديم البقالة ليخلل الشعب و يمنعه من التدخل في شؤون الحكومة.

« كان عبد الله يرد على كل هذا بقصص. أصبح زعيم الحي من مستمعيه المواظبين و كان يقدر علمه أو ما كان يدعوه بهذا؛ يدعى عبد الله بأنه لا يعلم شيئا، لأنه يقول: لا يجب على العلماء الحقيقيين أن يحكوا القصص، بل أن يقولوا الحقيقة، أن يقولوها و يكتبواها.

« في يوم من الأيام، أخذ أحد العلماء الذين كرسوا حياتهم لعمل باللغ الأهمية جميع أوراق كتبه و وضعها على سقف الكعبة، بيت الله. بعد مرور عام، كانت الأوراق لاتزال في مكانها، دون أثر مطر، دون مس من عوامل خارجية، كان الحبر يمتد طريا على الورق الأبيض. لم يطبع كتابه إلا بعد هذه التجربة العظيمة. لقد كان معه حق ألف مرة: لا يمكن لشيء أن يدمر، يمسح أو يتلف الحقيقة.

« و كان عبد الله يضيف:

« - لست عالما، تدخل قصصي من أذن و تخرج من أخرى.

« هل هذا صحيح تماما؟ هل كان بدون استثناء على وجه الخصوص؟ بالتأكيد لا.

« كانت قصص عبد الله تلقى مصير كل القصص التي يتناقلها البشر على مر العصور. يضحك عليها هؤلاء، و يبكي عليها أولئك؛ إن هؤلاء حساسون تجاه شكلهم الخارجي، و أولئك يعرفون تأويل الإشارات.

يحكى عبد الله قصة للأطفال. قال له أحدهم:

« - لقد قرأت أجمل منها في كتاب القراءة خاصتي.

« - أجاب عبد الله: هذا ممكن جدا، إلا أن القصة التي قرأتها توجد في كتاب. جميع أصدقائك يملكون هذا الكتاب، و يستطيعون قراءتها. لكن تلك التي حكيتها لك لا توجد إلا في كتاب واحد، إنه هذا... و أشار إلى قلبه.

« يغلق عبد الله دكانه كل مساء و يذهب بخطى صغيرة. يجهل جميع سكان الحي محل إقامته. لكن هناك سي عبد النبي، أحد النمامين، الذي يؤكد بأنه رأه يدخل إلى فندوق حقير.

« على العكس، يحكى الحبيب، الذي تبعه، مغامرته الغريبة بهذه الكلمات:

« - إن سيدنا عبد الله هو من أولياء الله. لقد تبعته، فليس ماحني الله، إلى غاية صفاح، على الضفة الأخرى لواد فاس. في أحد الأزقة، كان يوجد باب إحدى الزاويات بزليج أخضر. دخل إليها و، بعد دقيقة، تبعه إليها. بحثت عنه دون جدوى. كانت الزاوية مهجورة، أطلقت تكبيرا طويلا ثم أغمى على. لم أعد أستمع لما يقوله الجهلة الآن، لأنني أعلم، أجل، أعلم بأن أولياء الله لديهم مساكن خفية.

« ربما كان الحبيب على صواب. أجاب عبد النبي الذي كان حاضرا:

« - لقد أفرط الحبيب في الاستماع لقصص عبد الله، و قد أثر هذا على عقله. إن الله هو العالم الوحيدي: إن أفعال عبد الله لا تشبه ما يقوم به مسلم حقيقي. هل سبق و أن رأيته يصلى؟ هل يترك محله في أوقات الطعام؟ هل يحترم يوم الجمعة؟ هل يقول أي كلمة تقية؟ إنه مفسد، شيطان بعمامة، عفريت بلحية بيضاء يعيش في الأكاذيب مثل الخنزير في الوحش.

« أحمر الحبيب، الذي كان ذا طبيعة هادئة في العادة، من السخط و هتف:

« - يجب عليه إذن أن يشبهك ليستحق لقب المسلم؟ أنت تصلى، نحن نشهد على ذلك، نترك محلك في أوقات الطعام؛ تحترم يوم الجمعة و أحاديثك تزيينا الاستشهادات القرآنية و الحديث. نحن نشهد على كل هذا. لكن يفطر من فمك دائمًا سُم التمييم، نتنانات الافتاء، رائحة الموت و براجم دمار أخرى. لست الشيطان حتى لأنه لا واحدة من أعمالك تحمل بصمة عظمة ما. أنت جرذ مخاري على الأكثر، لكنه تدرج جيدا في الدقيق الأبيض الجيد. يعتقد بأن الدقيق سيجعله نقيا بينما يكفي أن يلمسه ليصبح متسخا.

قفز عبد النبي ليضر به؛ أمسكه الحبيب، الذي يعمل حدادا، من معصميه وتابع وعشه دون أن يتاثر:

« - أرأيت؟ دانما ما يلجا الضعفاء إلى العنف، إن ذراعاي تمارسان الحديد ولا تخشيان النار؛ زيادة على هذا، لن استعملهما لسحق الصراصير من أمثالك. أنا لا أدفع عن عبد الله البقال، أحارو فقط أن أثير جهلك، أنت، من تدعى بأنك تعرف الكثير! لكن لديك جمجمة كبيرة وروح محنطة. أنت جثة ولا أحب لمس الجيفة.

ألقى الحبيب بعد النبي في اتجاه الحائط ورحل. صام أكثر من أسبوع ليتظر من غضبه.

« تم إخبار عبد الله بما حدث، في البداية بقي صامتا، مأرجحاً من شره بحركة احتفالية، ثم حكى قصة. »

الفصل 5

لم يسبق لي أن رأيت معلم المسيد سعيدا مثل هذا الأربعة. لم يتلقى أي تلميذ ضربات العصا. كانت عصا السفراج تصير أداة نزوات، واحدة من تلك الأشياء عديمة الفائدة التي يمسك بها لشغل الأصابع.

كنت أتلوم درسي كما هي العادة. هنائي المعلم:

- قال لي: هذا جيد، يا بني، ستكون، إن شاء الله طالبا ساعيا في طلب العلم. فليفتح لك الله أبواب العلم!

قبل الذهاب للغداء، أشار لنا **الفقيه** بالسكتوت. في الصمت التام، تكلم لنا عن عاشوراء، حفل رأس السنة. كان يجب علينا الاحتفال بها بشكل لائق كما العادة. سيكون **مسيدنا مسندا** ابتداء من منتصف الليل. سيأتي كل التلاميذ لافتتاح السنة الجديدة بالفرح والاجتهداد. كان أمامنا خمسة عشر يوماً لتحضير الحفل. كان يجب على كل واحد إحضار سعة زبدية من زيت الزيتون لإشعال القناديل، سيتم تبييض المدرسة بالجير، تغيير الحصائر القديمة بأخرى جديدة. نصحنا **الفقيه** بإخبار والدينا عن هذه الترتيبات. كان يعتمد على كرمهم.

في الأخير، بفرح كبير، حصلنا على إجازة لبقية اليوم. يا للسعادة! جريت إلى البيت لأخبر أمي بالأمر. أخبرتني فاطمة بزيوية بأنها لم تكن موجودة. لقد أنت صديقتها لالة عيشة لاصطحابها منذ ساعة تقريباً. تحولت فرحتي إلى تخوف، وسرعان ما صارت قلقاً. كان لهذه الخروجة علاقة ما بقضية مولاي العربي زوج لالة عيشة من دون شك. ربما نشب نزاع جديد بينه وبين هذا الشيطان عبد القادر، ابن لا أعرف من؟ ألم يحبس في سجن مظلم؟ كان يبدو أن للبائسا، القاضي و رجالهم علاقة بالأمر.

كانت أمي قد تركت المفتاح على باب الغرفة. دخلت، لم تعد الأشياء تعرفني، كانت تبدي لي وجهها عدائياً. تسللت بارعباني، كانت تتحول لوحوش، ثم تعود أشياء مألوفة من جديد، تستعيض أقمعة جديدة من وحوش الكتاب المقدس. كنت جالساً على فراش، فزع، بحلق جاف، منتظراً عودة أمي، الشخص الوحيد القادر على تحريري من هذه الأسحار. كنت جاماً خوفاً من إثارة عداوة الكائنات التي كانت تراقبني خلف كل شيء. مرت قرون. سمعت خطوات أمي البطيئة من الطابق السفلي. سمعتها تسعل.

استعادت الحجرة مظهرها اليومي. أضاء شعاع شمس فسيفساءنا الباهت الألوان.

توقفت أمي اللهثانية في البسطة، أسرعت للقائهما. كانت فاطمة بزيوية تنشر أسماكا صغيرة منحوتة كالحلي. وضعت سكينها، رفعت يديها على نحو غامض، تنفست بفوطة كانت تلبسها عوضا عن متزر و دون أن تطرح أية أسئلة انتظرت من أمي أن تكشف لها عن سبب غيابها.

بشكل غامض، جعلتها أمي تعدا بالسرية التامة. بعدها، بدأت تهمس خطابا طويلا من الفم إلى الأذن، مصحوبا بآيمانات، حركات كبيرة بالذراعين، مرفقة بتنهادات، ممثلة بهزات رأس.

كانت فاطمة تنصت بجسم يشمله التوتر، كانت عيناهما تتبعان كل حركة، كانت أصابعها تطلق حركات قصيرة لأشعر يا. كانت ترد على تنهادات أمي بتنهادات، على هزات الرأس بهزات رأس. توقفت القصة للحظة. كانت فاطمة و هي تضع يدها اليمنى على خدتها و يدها اليسرى على قلبها تردد:

- الله! الله! الله!

- كانت أمي تقول: أجل، كل هذا يفطر القلب و لا يمكن أن يدع روح مسلم حنونة بدون مبالاة. ما حصل للاللة عيشة لا يمكن للمرء تمنيه لعدوه اللدود، لكن يجب على المؤمن أن يحمد الله، حتى في الشقاء.

أدركت وجودي أخيرا. دعنتي للحق بها. تخلصت من حايكتها، نزعت أحذيتها المصنوعة من جلد الخروف الأسود.

- قالت لي: سأقدم لك الطعام، لا بد من أنك تتضور جوعا.

أخرجت من مستودع المؤونة جرة مورنسة بسمرة حمراء، أدخلت فيها مرفقاها بأكمله و انتهت بإخراج قدة لحم محفوظة. كنت أحب اللحم المحفوظ. قدمت لي في طبق قطعا كبيرة بحجم الإبهام تسبح في مرق لذيذ كانت قد سخنته بعنایة. كان الخبز طريا و معطرًا باليانسون. أكلت لوحدي. اختفت أمي. كنت أعرف بأنها في مكان ما تهمس لرحمة، مستأجرة الطابق الأول، بالقصة الجديدة للاللة عيشة بعد أن تعدا بحفظ السر. كنت أعلم كذلك بأنه ما علي إلا الانتظار. سألتقط كلمة هنا و أخرى هناك ثم سأعرف ما الأمر. أنهيت طعامي في عجلة. ذهبت للتحقق بأمي على السطح الذي كانت رحمة فيه بالفعل جالسة في الظل على جلد

خروف و تمشط شعرها. كانت قد أوقفت ذلك العمل للاستماع. كان شعرها الأسود المدهون بزيت الزيتون ينسدل على كتفيها. كانت أمي تقول:

- لقد باعت المرأة المسكينة كل شيء. حتى الجرذان لم تجد ما تسد به رمقها.

- سألت رحمة: و النقود؟
سارعت أمي بإخبارها.

- ستنعمل النقود لشراء العدة لمولاي العربي و لتأمين المصارييف الأولى لتجهيز ورشته الجديدة.

هذت رحمة رأسها لتبيّن بأنها قد فهمت بشكل تام. كتلت توافق:
- هذا جيد جدا! جيد جدا!

لإحساسها بالتشجيع، كانت أمي تشرح:

- لم تكن لالة عيشة، شريقة من الدار الكبيرة، لتسمح بانحدار زوجها في عيون مجلس بائعى البلغات و يتحول من رئيس إلى موظف بسيط. يواجه المؤمن العديد من العقبات في هذا العالم، المهم بالنسبة له هو تخطي جميع الصعوبات دون التمرد على خلقه. إن مولاي العربي رجل كريم و يستحق أن تتخلّى امرأة بمشاعر نبيلة عن مجواهراتها و عقارها لكي لا يفقد ماء وجهه أمام أقرانه. تقوم لالة عيشة بعمل حسن. سيعيده الله لها أضعافا مضاعفة، يوم لا ينفع الابن أباه، يوم لا يقدر الأب على تخليص أطفاله من حساب القاضي الأعلى. ستوزن فقط أفعالنا الحسنة و السيئة في الميزان. ضعيفات و هزيلات كما نحن، لا نستطيع الاعتماد إلا على رحمة الله القدير.

ردت رحمة بعدها:

- تبارك و تعالى! لا إله إلا هو.

عم الصمت. تابعت رحمة مشط شعرها بمشط القرن. وقفت أمي، أطلقت تنها طويلا، قالت في الأخير:

- بذلك وسعي لمساعدة لالة عيشة في مساعدتها، أحس الآن بأنني حزينة و متبعة.

توجهت أنا و أمي إلى الدرج.

مزقت أصوات و صرخات الجو. اشتدت عاصفة البكاء و الصياح. كان الصوت قادما من المنزل المجاور. أعدنا الصعود جريا. بعد المفاجنة، انهمرت الأسئلة من كل مكان:

- من الذي مات؟ من الذي مات؟

كانت مجموعات من النساء قد تشكلت فوق الجدران التي تشرف على سطحنا و على السطح الذي جاءت منه أصوات اليأس. كن يثثرن، يشحرن، يلوحن، يمددن أعناقهن لسماع أصوات جديدة. كان يسمع وسط الضجة صوت أكثر حدة يتنحّب. كانت النساء تأتين من السطوح البعيدة، تفقرن من فرق جدران الفصل، تقمن بالألعاب بلهوانية باستعمال سلم قصير. كانت بعضهن تجلسن مفرشات على الجدار و آخريات يتركن سيقانهن تتدلى. كانت زنجية عجوز لم أكن أرى إلا رأسها و ذراعيها المكسوفتين و اللذين كان لهما لون أسود براق، تحرك يديها اللتين كان لونهما الوردي يفتتني؛ أجبرت النساء على الصمت.

- ردت العدة العجوز عدة مرات: أعرف من مات، سيدى محمد بن الطاهر، الحلاق. كان مريضاً منذ شهرين.

- سألت امرأة شابة كانت تلبس منديلأً أصفر على رأسها: لماذا مات؟

- أجابت الزنجية: الله وحده يعلم، لكن إن سيدى محمد بن الطاهر، الحلاق، هو من مات حقاً.

بقيت النساء صامتات. اختفى رأس الزنجية. توقفت الأيدي للحظة على حافة الحائط، ثم اختفت بدورها.

كان جميع من في الحي يعرفون سيدى محمد بن الطاهر، الحلاق. كان يلبس الأبيض، كانت لديه لحية خفيفة و تعلو شفتيه ابتسامة دائمة. كان يتسوق بنفسه و سبق و أن التقى به عدة مرات في زقاقنا و هو يحمل قفة من الحلفاء؛ كانت تبرز منها خضر الفصل، أحياناً قطعة لحم وردية، بصل أو ثوم.

كانت الصرخات قد هدأت، كانت الضجة قد تحولت إلى نحيب متواصل بنبرة خفيضة، ما يشبه غناء مستسلماً لإيقاع ساذج.

نزلت أمي إلى الغرفة، صعدت ثانية، برأس ملفوف بغطاء خفيف. قالت لرحمه:

- سأمر من فوق الجدار، سيفيدني الذهاب للبكاء قليلاً.

- قلت لها: مي، خذيني معك، أنا كذلك أريد البكاء قليلا.
- قالت أمي بحزن: لا، لازلت صغيرا ثم إنك ولد. بعد قليل، سياتي مقرئو القرآن ليجودوا و ستستطيع الالتحاق بهم.
- أصرت: أريد البكاء! أريد البكاء!
- خذ و ابك بجدية.

كانت هذه الجملة مصحوبة بصفعة قوية.

بدأت بالبكاء، تدخلت رحمة لصالحي. انتهت باقناع أمي باصطحابي. ساعدتهن المرأةن على تخطي الجدار المشترك. كنت قد توقفت عن البكاء. كنت أقفز الدرجات أربعة بأربعة لالتحق بالباقيات في الطابق السفلي.

لقد كن عشرين واحدة تعبرن عن المهن بصلب. على الأرض، كان هناك فرش و حصائر. كانت باكيات أخرىات تأمين، تطلقن أصوات حادة منذ المدخل. كانت أولئك اللواتي كن في البيت مسبقا يُجبنهن بصرخات أخرى. كانت زوجة الحلاق تتنحّب بصوت مبحوح وتهوي بضربات قوية بيد مسوطة على خديها و فخدتها. كان المنظر يقتني لدرجة أنتي نسيت هدف زيارتي. كنت قد أتيت للبكاء ولم أكن أبكي. كنت أحارول أن أفهم ما كانت تقوله امرأة عجوز شعثاء. كانت تخفض رأسها حتى الأرض، تعيد رفعه، تغنى و هي تمدد النهايات:

لقد كنت عماد المنزل

لقد كنت شمسيني و درعي

لقد كنت الفارس الشجاع

سيصير المنزل مظلما بدونك

بدونك، ستصبح الشمس باردة،

بدونك، لم يعد لدى عينان لأرى بهما.

لن تستطيع عيناي التوقف عن البكاء بعد الان

ستبكي عيناي دموع دم.

ستجف عيناي و سأضيع في الظلمات.

بقيت امرأة شابة غريبة عن البيت مغلفة بحائكها. كانت تردد بجميع النبرات:

يا أمي! يا أمي المسكينة

يا أمي! كنت أحبك أكثر من أي شيء في العالم، كانت بعضهن تفعلن دون قول شيء وآخريات تدعين الأولياء، تخاطبن الله ورسوله بأدعية ورعة. في ركن ما، كان هناك أطفال يبكون. اقتربت منهم.

ووجدت زينب هناك، كانت تحاول عبثاً أن تفعل مثل الآخرين، تفرك عينيها، لكن لم تكن أي دمعة تسيل. كانتا دائمًا جاقتين ولا معتنٍ هكذا عندما كانت تتسبب لي ببعض المتاعب. نظرت إليها للحظة وبحركة سريعة وغير متوقعة، باعثتها بكلمة على الأنف. غالب صراخها على الجلبة. هربت إلى السطح.

كانت أمي قد غابت عن ناظري. كنت أعلم بأنها تتنحّب وتصرخ براحتها، دون الاقتراح بجاراتها.

قدم المقربون أنفسهم عند باب البيت. لجأت النساء إلى الطابق الأول. كن يتابعن البكاء بصمت بينما كان المجودون يباشرون حزباً طويلاً. أخيراً، صعدت أمي من جديد، أخذتني من يدي وساعدتني لاتجاوز جدار الفصل.

ذهبنا إلى غرفتنا.

أنت فاطمة بزيوية لتسأل عن حال زوجة الحلاق. من كانت النساء اللواتي كن يبكيين؟ هل كانت أم الحلاق ماتزال حية؟

تكلمت أمي عن ألم زوجة الحلاق، ذكرت أسماء بعض الحاضرات، اعترفت بأنها كانت تجهل إن كانت أم الحلاق ماتزال حية.

اشتركت لالة كنزة، الشوافة، من طابقها الأرضي، في الحديث. خرج الجميع من هذا الحديث بهذا الاستنتاج الفلسفى للغاية: كل الكائنات فانية؛ عاجلاً أم آجلاً سيأتي دورنا.

كان طنين المقربين يصلنا عبر الجدران. من وقت لآخر، كانت نساء الحلاق تُطلقن صرخة طويلة. كانت كل واحدة من هذه الصرخات تتنزع تنهداً قوياً من أمي. لم أكن أجزو على اللعب. هل كان من اللائق أن أخرج تحفي في اليوم الذي كان فيه سيدى محمد بن الطاهر الحلاق، شخصية مهمة في زفافنا، يفارق والديه، أصدقائه و زبائنه إلى الأبد؟

بعد قليل، بعد الغسل الاعتيادي، سيتم تلبيسه بالأبيض لأخر مرة. سيحمله رجال على رؤوسهم في نقالة مريحة من خشب الأرز و سيدهبون لطمره

في الأرض المبللة. ستفعل الأرض إلى الأبد على سيدي محمد بن الطاهر، الحلاق، كنت أحلم بكل هذا، متكتنا على درايسين نافذتنا. غمرني حزن كبير. تمكن التعب من أعضاني. طلبت من أمي الإذن للتمدد على السرير الكبير. وافقت. ارتميت عليه وتابعت التفكير في دفن الحلاق. كنت أراه، ملفوفا بدقة في قماشه القطني الأبيض، صلبا على نقالته المغطاة بسقف، يسافر على بحر من الرؤوس المعمرة، وسط احتفال من الابتهاجات والأدعية. سبق و أن رأيت مواكب دفن تمر في الشارع. أحيانا، كان الرجال يمشون بيته وقار ويرتدون تراتيل بأصوات عميقه مثل الهاوية، أحيانا، يكونون قليلا جدا و يحثون الخطى. كانوا يكتفون بتردد كلمة التوحيد بنشار: الشهادة (لا إله إلا الله و محمد رسول الله). لقد رأيت موتي مكشوفين حتى، موضوعين على النقالة ببساطة دون شخص لمرافقهم إلى مثواهم الأخير. لقد بدا لي ذلك محزنا للغاية.

وجد أبي، الذي أخبرته بانطباعي، هذه القصة لمواساته: في سوق يتردد عليه الناس كثيرا، كان سيدي... (لقد نسيت اسمه) يملك دكانا، كان رجلا تقى، شريفا و مودعا مع الجميع. في كل مرة يعبر موكب دفن السوق، كان هذا الشخص الطاهر يتناول بلغته، يلبسها سريعا، ويرافق الميت حتى المقبرة. ذات يوم، حدث و أن مر دافنان حاملين نقالة كان يرقد فيها متسول لم يكن يرافقه أحد. نهض الرجل، تناول بلغته من أعلى الرف الذي كان يضعها فيه كل يوم، لكنه بقى واقفا دون أن يلبسها. انتهى بإعادتها إلى مكانها. قال أصحاب الدكاين بأن تصرفه لم يكن إنسانيا.

- قالوا: لا يرافق إلا مواكب دفن الأغنياء.

أعلن سيدي... الذي سمع تهامسهم:

- هل أنتم مؤمنون؟ إذن، اسمعوا لماذا لم أرافق ذلك الأخ إلى غاية قبره. عندما تناولت بلغتي، كنت أنوي فعل ذلك، لكنني رأيت وراء النقالة حشدا كبيرا من كائنات فائقة الجمال. لقد كانت ملائكة الجنة. أنا، مجرد أم، لم أتجرأ مطلقا على الاختلاط بمخلوقات النور هذه. كان عبد الله ينتقل إلى رحمة خالقه. كنت سعيدا لمعرفة ذلك و جلست ثانية بين توابلي.

في كل مرة كنت أرى فيها دافنين حاملين جثة وحيدة، كنت أردد معهما:
إن الله معك، يا أيها الغريب، على هذه الأرض!

كنت أضيق كذلك في ذهني: « هو كذلك يلتحق بقبره برفقة حشد من الملائكة فانفة الجمال. » كنت سعيدا جداً بذلك.

عادت الأصوات و الصرخات بشدة متزايدة. كانوا يخترقون الجدار، يتكسرن مثل صوت الأمواج أو هيجان العاصفة. تركت نساء البيت أعمالها. بدأن بالبكاء، بالنحيب إلى جانب موادهن و طناجرهن.

لقد كان الجسم يغادر البيت على الأرجح. كانت لحظة مؤسفة. كنت لا أزال أسمع ضجة المجددين. اختبأت الشمس وراء سحابة، عصف ألم كبير بالأرض. انفجرت بالبكاء. نسيت أمي الحلق و دفنه و أسرعت و هي مرعوبة لتسألني عن سبب بكائي. كانت تستجوبني و هي قلقه.

- ما الذي يوْلِمك؟ هل لسعتك حشرة؟ هل تشعر بمعض؟

كنت أتنفس جيدا، لم أكن أجيب. دامت النوبة مدة طويلة. امتنعت عن الأكل. كانت أمي قد طبخت عدسا بالطماطم و البصل. كنت أحبها عادة، لكن لم أكن أريد أن أكلها. بقيت ممددا على السرير. غطتني أمي بغطاء من الصوف الحريري مزین في أطرافه بشرائط حمر. غفوت حتى عودة أبي، في وقت متاخر من المساء. وافقت على شرب كأس حليب و غطست ثانية تحت الغطاء.

لقد بدا أبي مشغول البال بشائي. لمس صدغي عدة مرات، أمسك يدي، رتب غطائي بحركات ضبط. كنت أرى شفتيه تتحركان. كنت أعلم أنه يتلو بعض الأدعية أو الآيات ذات القدرة الشفائية.

كنت أفكّر: « ربما سأموت، أنا أيضا، ربما سيكون وراء تابوتني ملائكة جميلون مثل ضوء النهار !

كنت أتخيل الموكب: بعض الأشخاص من الحي، فقيه الكتاب القرآني، أبي، أكثر جدية من أي وقت و ملائكة، آلاف الملائكة يلبسون حريرا أبيضا. في البيت، كانت أمي لتطلاق صرخات تمزق الحلق، كانت لتباكي ليلا و نهارا. كانت لتنظر أبي لوحدها في المساء.

لا! لم أكن أريد الموت!

- كنت أصرخ جالسا في سريري: لا أريد أن أموت! لا أريد أن أموت! رميت الغطاء و وقفت، صحت بهذه الجملة بكمال قوة رتني. أعادني أبي للنوم بدد مخاوفي بكلمات مطمئنة. كانت أمي تردد بعيينين منتفختين:

- صغيري! صغيري!

هذات. بدأت أذناي بالصفير. كنت أسمع ، خلال خرير الماء هذا، أمي وهي تروي أحداث النهار. موت سيدتي محمد بن الطاهر، الحلاق، متاعب لالة عيشة، بيع مجواهراتها و عقارها. كانت تقول بأن سيدتي العربي العلوى سيجهز ورشة جديدة و يستأنف العمل. كانت تمدح كرم و شجاعة لالة عيشة، تلعن المنافقين، النصابين، الناس بدون دين و لا ملة مثل عبد القادر هذا، ابن لا أعلم من.

خلال هذا الوقت، بين أهداب رموشي، كنت أرى ملائكة جملاء تنزل من السقف، أمير ريش أجنحتهم بلون الفضة. وضع أحدهم علبة العجائب خاصتي على سريري. كبرت بشكل مبالغ فيه، اتخذت شكل تابوت. دخلت إليها بفرح. أغلق الغطاء. كانت تسود في العلبة برودة ورود و أزهار أشجار البرنتقال. حملت العلبة إلى ما وراء السحب و قصور الزمرد. كانت جميع الطيور تغرد. وجدت الدوريبين اللذين كانوا يوقظانني كل صباح؟ كانوا يتحدثان مثل العادة:

- أحب التنين المجف.

- لماذا تحب التنين المجف؟

- يحب الجميع التنين المجف.

- أجل! أجل! أجل!

- يحب الجميع التنين المجف.

- التنين المجف!

- التنين المجف!

- التنين المجف!

أجبرني شعور بالاحتراق في جفني على فتح عيني. كان هناك شعاع شمس يدخل من النافذة. كان ينزل مباشرة على وجهي. كان الدوريان يتكلمان عن مزايا التنين المجف.

- قالت لي أمي بابتسامة عريضة: فليكن صباحك مباركا يا صغيري، هل تحسنت الآن؛ كنت تعاني البارحة من بعض الحمى. عدنى اليوم بأن تكون عاقلا جدا. لن تذهب إلى الكتاب.

- قلت لها: أنا لست مريضا.

- أعرف! أعرف! العب بهدوء في ركنك. كل هذه الفطيرة، إنها ساخنة جدا.

أخذت الفطيرة.

نادى إدريس الفظ من الطابق الأرضي. لقد جاء محضرا مؤونة اليوم. نزلت أمي لاحضارها. سمعت فاطمة بزيوية تقول:

- الخبارى منذ الآن! إنها طرية جدا.

أجابت أمي بجملة لم أفهمها. دخلت إلى مطبخها، خشخت دلاء، حركت منفخها، دقت توابلها داخل مهرسها النحاسي.

في الطابق الأول، كانت رحمة تنشغل في البسطة. كانت تشعل النار كذلك وتدق توابلها. كان هناك من يدندن. سمع صوت منفخنا القديم من جديد. لقد كان متعبا ولم يكن يعرف ما يقول إلا هذه الكلمات:

ذباب!

ذباب!

ذباب!

كان الخاص برحمة يُتوَعِّد سجله. كان يستمتع أحياناً بترديد:

أشعر بالحر!

أشعر بالحر!

أشعر بالحر!

أو ربما:

إنني أتألم!

إنني أتألم!

إنني أتألم!

توقفت عن الاستماع إلى المنافيخ. قدمت أصوات جديدة لتسليني. كانت انفجارات شرارات تندحرج مثل البلي التي كانت تنتشر على أرض الفسيفساء. كانت فاطمة بزيوية تندف صوفها. كانت جمل محمومة تصعد من الطابق الأرضي، كانت لالة كنزة تتحدث إلى زبونه. عَگرت موجة من الضحك الجو. كانت قصيرة و بدون نتائج. هدلت حمامه على السطح. كانت تقول كلمات جميلة جداً لدرجة أنني ابتسمت للملائكة. رأيت على عارضة خشبية ذبابتين تلاحقان بعضهما، تتوقفان بدون سبب ثم تتابعن سباقهما نحو المغامرة. كان هناك من دق المقرعة عند باب المنزل.

- سألت عدة أصوات: من هناك؟

أيا كان، لم تكن لدى أدنى رغبة في أن أعرف.

كان هناك صوت ضعيف يصلني من السماء، غناء رفيع و ضعيف مثل خيط العنكبوت. كان المودن يؤذن للصلوة. كانت عبارة: الله أكبر! تصلبني بموجات عريضة من صومعة بعيدة.

كان الصوت يموت، يذوب في زرفة السماء، يعود من جديد، يظهر بقوة معينة، يختفي من جديد في جو الريبع.

سقطة طنانة كبيرة ذات سواد معدني عبر الفتحة التي كانت تغلب على الغناء، صفتت الجدار و ارتمت بعنف عبر نافذة غرفتنا على زجاج قنديل الزيت. رن الزجاج لكنه قاوم الصدمة. خرجت الحشرة بنفس العجلة التي دخلت بها. فتنتتني هذه الزيارة. بدأت بالضحك و التصفيق.

راقبت أصوات المنزل لمزيد من الوقت، لكنني مللت من هذه اللعبة. عادت أمي لرؤيتها، ابتسمت لي و لكونها راضية بدون شك عن حالتي الصحية و عن هدوئي، عادت ثانية لتفقل داخل دلاءها و تدق توابلها.

لأشغل نفسي، تلوت آيات القرآن القليلة التي كنت أعرف، في البداية بصوت منخفض، ثم بكمال قوّة جبالي الصوتية. كنت أرتل كلمات المصحف الكريم بشغف. جفت ذاكرتي. ترددت للحظة قبل أن أستأنف تجويدي بورع أكثر. كنت أخترع قرآني الخاص. كانت كلمات بدون تنمية و بدون معنى تُطلع، تدور في جو الغرفة، تتدفق نحو السماء مثل سرب من الفراشات ملونة بغنّي.

أنت أمي لرؤيتي ثانية. نصحتني بأن أقلل من حيوتي في التجويد. ربما أصاب بنوبة حمى. أخرجت من فستانها سلسلة نحاسية نخرها الزنجر و مدتها لي:

- قالت لي: أضف هذه إلى عجائبك،

امتصت السلسلة المصممة بدقة إعجابي. تأملتها لمدة طويلة. فررت تنظيفها. كنت أعرف تحويل النحاس، هذه المادة الحقيرة، إلى ذهب خالص. خرجت إلى البسطة. داخل علبة مصبرات محببة، وجدت رملًا دقيقًا كان يستعمل لتنظيف الموائد المستديرة و صينيات الشاي. انهمرت في العمل بحيوية. كانت أصابعني تولمني عندما ظهرت النتيجة المنتظرة

أمام عيني. قمت بعده شطفات داخل دلو مسوّدَ كانت مكنسة دوم صغيرة تسبح فيه.

تحولت سلسلتي إلى حلية ذهبية. لفتها حول معصمي لأعاين النتيجة: كنت أمسكها من كلا الطرفين، أضعها على صدرِي، على جبهتي، كنت أجعلها سواراً. أخرجت علبتني. نشرت كل كنوزي على غطاء.

تحولت أكثر أزرارِي و مساميرِي تواضعاً، بعملية سحرية كنت وحدِي من يعرف سرها، إلى جواهر.

غارقا في تأمل كنوزي، لم أكن قد رأيت قط زينب عند دخوله. ماء بشدة تجاهي. لم أكن أخشاه. قررت أن أشْرُكَه في فرحي و أفتح له أبواب عالمي. اهتم كثيراً بخطاباتي، مد قائمته ليُلمس حجري الكريم من الزجاج المرصع، نظر إلى سلسلتي الذهبية بدھشة. صنعت له منها عقداً. بدا فخوراً في البداية. ثم حاول نزعه بعد ذلك. لم يستسلم لضربات مخالفه. استشاط غضباً، ذعر و رحل كالسهم، بذيل منفوش، بعينين متمددين من القلق. ركضت خلفه لاستعيد ممتلكي. لم يجب فقط اللعين على نداءاتي. لم يكن يريد أن تكون له أي صلة بي، كان يتسلق درجات الدرج، يطلق تهديدات.

نبهت أمي، طلبت النجدة من فاطمة بزيوية، من رحمة و حتى من عدوتي زينب، صاحبة هذا العفريت رباعي الأرجل. أسرع الجميع إلى السطح لكن فقط، لجهله سبب ملاحقتنا له، كان يكشن مخالفه ليُسلق طول جدار ذو ارتفاع شاهق. كانت النساء تحاولن مواساتي.

- سيعود هذا المساء، ستعيد لك زينب سلسلتك.

زينب! زينب! كانت هي من حرضه ليأتي و يحتك بي، يستغل طيبتي و يسرق مني أجمل حليبي. كنت أختنق من الغضب و السخط. اشتعل غيظي؛ انقضضت على زينب. غرزت أظافري في خديها، نتفت شعرها بخصل، سددت لها ركلات رائعة على البطن. دافعت عن نفسها، المتوجحة، بعنف، شدت أذنائي، أوقعته أرضاً، داست على صدرِي. كانت النساء تصرخن، تحاولن تفريقنا و تتقفين لكمات و ضربات رأس من كلا الخصميين.

تمكنت أمي أخيراً من السيطرة علىي. أدخلتني إلى الغرفة، أدخلت رأسي في دلو من الماء، نشفت وجهي بفوطة و أصدرت لي أمراً بالنوم. كان صدرِي لا يزال يهتز بالبكاء، نمت على الفور تقريباً.

الفصل 6

كنا نلجم إلى صالة الكتاب عبر أربعة درجات. المسيد، حجرة طويلة ريفية نوعاً ما، كانت بها غرفة علوية واسعة. وضع فيها المعلم جرتين من الخزف المورنـش، لاحتواء زيت الزيتون التي كان يحضرها التلاميذ في قنينات و زبديات. كان الكبار مسؤولين عن ذلك.

لشراء حصائر جديدة، شارك كل واحد حسب إمكانياته. كان أب أحد التلاميذ يعمل كسخان لغالية الماء. وهب للمدرسة بحمل حمار من الجير. في يوم الإثنين، قبل ثمانية أيام من حفل عاشوراء، تم وضع الحصائر القديمة في الغرفة العلوية. شَكَّل المعلم فرقاً و عين زعماء عليها. استعرنا دلاء و مكتنـسات صغيرة من الدوم.

بدأ العمل. وسط ضجة من الشتائم، الانفعالات، البكاء و موجات الضحك، فصل البعض رؤوس الذئب، المعلقة بعظمة على أبواصـم، لقد بذلوا جهدهم لمدة طويلة بهدف تنظيف السقف و الجدران من نسائج العناكب.

تم تحضير دلوٍ كبيرٍ من حليب الجير. باشر عشرة تلاميذ يحملون مكـناسـات صغيرة، تجـبـيرـ الجـدرـانـ.

كانوا يمسكون مكـناسـهم بـجـرأـةـ، يـلـطـخـونـ في طـرـيقـهـمـ أـطـفـالـاـ يـصـرـخـونـ. كانوا يتلقـونـ الجـيرـ الحـارـ فيـأـعـيـنـهـمـ، يـبـدـأـونـ بـالـصـياـحـ، تـارـكـينـ أـشـغالـهـمـ. كانوا آخـرـونـ يـحـلـوـنـ مـحـلـهـمـ، مـفـعـمـيـنـ بـالـحـيـوـيـةـ. كانت تـتـشـبـ شـجـارـاتـ. كانـ الجميعـ يـصـرـخـونـ فيـوقـهـ نـفـسـهـ. أـحـيـاناـ، فوقـ هـذـهـ الجـمـاعـةـ، كانـ صـوتـ المـعـلـمـ يـدـوـيـ. كانتـ الضـجـةـ تـتـوقفـ لـلـحـظـةـ، ثـمـ تـسـتـأـنـفـ أـكـثـرـ هـيـجـاناـ وـ جـدـةـ. تمـكـنـتـ منـ الحصولـ عـلـىـ مـكـنسـةـ صـغـيرـةـ، غـمـرـتـهاـ فيـ حـلـيبـ الجـيرـ وـ كـلـيـ فـرـحـ، انـقـضـتـ عـلـىـ الجـدارـ لـأـرـيـ لـهـذـهـ الـيـرـقـاتـ كـيـفـ ظـبـيرـ بـجـديـةـ. اصـطـدمـتـ بـحـانـطـ منـ الأـذـرـعـ الـوـرـدـيـةـ، الـأـفـوـاهـ الـمـفـتوـحةـ، الـأـعـيـنـ الـجـاحـظـةـ منـ الغـصـبـ.

تمـسـكـتـ أـيـدـيـ بـمـكـنسـيـ الصـغـيرـةـ. قـاـوـمـتـ بـكـلـ قـوـايـ، لـكـنـ تـبـيـنـ بـأـنـ قـتـالـ كانـ غـيرـ مـتـكـافـيـ. أـفـلـتـ الـأـدـاءـ الـقـيـمـةـ وـ وـجـدـتـ نـفـسـيـ جـالـساـ فيـ بـرـكـةـ مـاءـ كـانـ تـجـمـدـ مـؤـخرـتـيـ. لمـ أـكـنـ أـفـكـرـ فيـ الـبـكـاءـ، نـهـضـتـ، مـصـمـماـ عـلـىـ اـسـتـرـجـاعـ مـمـتـلـكيـ. اـرـتـمـيـتـ فـيـ الـعـرـاـكـ، لـكـنـ صـوتـ المـعـلـمـ سـيـطـرـ عـلـىـ الضـجـةـ.

توقفنا، منتفضين من الغضب. مادين أذر عنا و أيدينا، بأصابع متباude،
بدأنا جميعنا بشرح موضوع سوء التفاهم؛ كنا جميعنا نطالب بالعدالة؛ كان
صوت كل واحد فينا يحاول أن يغلب على أصوات الآخرين.

أمرنا المعلم بالصمت، سحب منا وظائفنا و لرؤيته لمظهرنا البائس،
نصحنا بانتظار أن يكون في حاجة إلينا، انتظرنا في أحد الأركان. أعلن
الفقيه بأن الكبار فقط هم من كان مسموحا لهم بطلاء الجدران بحليب
الجبر. انتظرنا حتى المساء أن يكلفنا المعلم بأداني عمل. لم يفعل ذلك.

تم تبييض الجدران. في اليوم التالي، تم تكوين مجموعات من جديد، كان
لكل مجموعة اختصاصها. أصبحت شخصية مهمة. غبت كز عيم
للفاركين. قمنا بغسل الأرض. كان عشرون تلميذا يحملون دلاء كبيرة
يقومون بسخرة الماء. كانوا يذهبون لإحضاره من نافورة زاوية تقع على
بعد خمسين خطوة من كتابنا.

تم غمر الأرض بالماء. حملت عملي على محمل الجد و، لأعطي المثال،
كنت أستعمل مكنستي الصغيرة بنشاط. لقد آمني هذا في كبني. من وقت
آخر، كنت أقف مُحْمَراً. كانت عضلات الذراعين تؤلمني. كنت أحس
بأنها ترتجف عندما أرتاح. في الماء حتى الكاحلين، حافي القدمين، يدفعني
هذا و يشتمني ذاك، كنت سعيدا! وداعا للدروس، التلاوات الجماعية،
الألواح الصلبة، البغيضة، القاسية! لنفرك الأرض الترابية المغطاة بالغبار
و القذارة، مزينة بنجوم كبيرة من الجير، التي كانت تصمد أمام فركتنا
الحيوي.

- آخ! لقد أعطيتني ضربة كوع في عيني.

- احترس! لقد بللتني حتى الحزام.

- انظر! لقد سقط إدريس في الدلو.

- ها! ها! سيغرق! سيغرق!

- أفركوا أيها الكسانى.

- أنت هو الكسول، إن ركنا نظيف من خاصتك.

نشفنا كل مكان بخرق من الجوت.

في المساء، عدت إلى البيت ميتا من التعب، لكن فخورا جدا بنهائي.

كنت أتباهى بإنجازاتي العديدة أمام والدي. نجحت في إقناعهم بأنه لولي لما كان هناك أي عمل متقن. هناني والدي. قال لأمي بأنني بدأت أصبح رجلاً حقاً. ذهبت للنوم.

خلال نعاسي، حدث وأن جلست في سريري، ألمي أواماً، أوزع شتائماً. كانت أمي تعيني للنوم بحركات رقيقة، جمل حنونة. في الصباح، استعدت للذهاب لكتاب، منعتي أمي. قالت بأنها كانت في حاجة إلى لارافقها إلى القيسارية، سوق الأقمشة. كان الأول قد آن للتفكير في ملابس العيد خاصتي. صفت بحماسة.

- هل سأحصل على قميص جديد؟

- ستحصل على قميص جديد.

- هل سأرتدي صداراً بشرانط؟

- سترتدي صداراً بشرانط.

- هل سألبس جلبابي الأبيض الذي وضعته في الصندوق؟

- ستلبس جلبابك الأبيض، البلقة الجديدة التي سيصنعها لك مولاي العربي؛ زوج لالة عيشة وحقيبة مطرزة.

وقفت منتصب القامة، دفعت صدري؛ ابتدأت بعض خطوات رقصة بربرية حتى. لم أكن مستسلم إلى مثل تلك النزوات إلا تحت ظروف استثنائية. كنت سأبلغ حد إصدار صرخة أو اثنين عندما ذكرتني أمي بأن أحفظ كرامتي.

كانت فاطمة بزيوية تضحك ملء شديتها. لم يكن ضحكتها يفاجئني. هذا الصباح، كنت أحس بأنني قادر على إبداء طيبة، حلم، كنت أبدي كرماً لا حدود له. كنت أسامح زينب من أعماق قلبي، كل المتابع التي سببتها لي؛ كنت أسامح قطها الذي عاد بعد أن تخلص من عقده، سلسلتي الذهبية الجميلة، كنت أسامح أيام الثلاثاء لكونها أيامًا طويلة جداً، عصا السفرجل لعضها الدائم للحم أنني الضعيف، كنت أسامح أيام الغسيل لكونها باردة وحزينة للغاية، كنت أسامح كل شيء في العالم أو على الأقل ما كنت أعرفه من العالم.

تركت أمي تتفرغ لأشغالها المتعددة قبل أن أجهز نفسي للخروج وصعدت إلى السطح الذي لم يكن أحد يستطيع أن يراني فيه و أنا أفرغ فرط السعادة التي كنت أشعر بأنني مفعم بها. كنت أجري، أغنى، أضرب الجدران

بعنف بواسطة عصا وجدتها هناك و يا لمحاسن الصدف. كانت العصا تصبح سيفا. كنت أستعمله بمهارة. أقطع رؤوس الباشوات، قضاة التجار و رجالهم. كانت العصا تصبح حصانا و أتبختر، أهز مؤخرتي، مرسلة رسات. كنت الفارس الشجاع، اللابس لجلباب ناصع و صدار بشرانط. كانت حقيبتي المطرزة تجر كتفي نظرا لأن مخزونني من الخراطيش كان ثقيرا. رميت عصاي، نزلت الدرج بسرعة لأجيب نداء أمي. عندما سمعتها، كانت قد بدأت بنعتي باليهودي، بالكلب الأجرب و بأسماء أخرى ليست مستحسنة. لم يكن ذلك نداءها الأول. لا بد من أنها، كما العادة، أغوتني بكلمات لطيفة، كلمات مثل:

- هل لعب شريفي بما فيه الكفاية؟

- ألا يريد شريفي أن يجيب أمه؟

- إنزل بسرعة، يا شريفي!

- ما الذي تنتظره لتنزل أيها العنيد؟

- ألا تسمعني، يا حمارا وجهه كالزفت؟

- ما الذي حصل لك، أيها الكلب الأجرب؟

- انتظر لأصعد لك، أيها اليهودي عديم الكرامة.

في خضم شغف اللعبة و نشوة الركب، لم أكن قد سمعت كل هذا الابتهال. فقط الكلمات الشاتمة يهودي و كلب أجرب هي من رمانى في العالم الحقيقي.

التحقت بأمي مذولا و رافعا كوعي لأنفادي آية محاولة عنف.

اكتفت أمي، مع لومي بشدة على سلوكي، بامساكي من كتفي و توبيخي. كانت جاهزة للخروج، ملفوفة في حايكها الأبيض، ببلعة سوداء في قدميها، أسرعت بتغطية وجهها بقمash قطني أبيض بإحكام و ذهبا. رجتها رحمة أن تستعلم لها عن الأئمنة الحالية للقمash، لاسيما ثمن ذلك الموصلين المسمى « بقدونس » و ذلك السatan الرانج، الذي كان يحمل اسم « باقة السلطان ». كنا قد قطعنا مسافة معينة و كدنا نبلغ منعطف الزقاق، عندما نادتنا لالة كنزة، الشوافة.

لم تكن أمي تستحسن فكرة أن نعود أدراجنا. سألتها من بعيد عن ما تريده. من البيت، عبرت المستأجرة الرئيسية عن رغبتها في تغيير مخزون

فستانين أخوياتها. كان يلزماها عدد كبير من الأذرع من الساتين الأسود لتهدى مزاج العفريت الكبير النافع، الملك بلحمر. مؤخرا، كانت تحس بشر ماكر، بسبب أفعال لالة ميرا. لتوقف الشر، كان لا بد من فستان أصفر كاللهب. كان يجب إرضاء سيدتي موسى كذلك، كان لونه المفضل هو الأزرق الملكي، لكن فستان السنة الماضية لازال صالح للاستعمال.

- أعطى النقود لابني.

دفعتني أمي في اتجاه المنزل.

- أستطيع بالفعل أن أجنبك كل هذه المشتريات.

أعطتني الشوافة النقود. لم تعد تردد فقط شراء الساتين الأسود. في الأخير، سرعان ما وصلنا إلى الشارع.

قرب سيدتي أحمد التيجاني، هذا المسجد ذي الأبواب المزينة بغنائم، اندفعت امرأة نحو أمي، كان الفرح يملأها، كانت تشكر الله لأنها التقت بنا. انحنت على و الصقت حجابها الخشن على خدي لتفبلي. لقد كانت جارة لالة عيشة، صديقة أمي. استندتا على جدار المسجد و استهلتا حديثا طويلا عن قضية مولاي العربي التي انتهت نهاية سعيدة بفضل إخلاص لالة عيشة. على أية حال، كان مولاي العربي يستحق تصحية كهذه. ما إن تزدهر ورثته، لن يفوته أن يشتري لزوجته مجوهرات، عقارات و أغطية. لم يكن رجلا ناكرا للجميل.

إلا أن الجارة أضافت هذه الجملة الخادعة قبل أن ترحل:

- لكن من يستطيع أن يثق بالرجال؟ لقد تزوجت ثلاثة مرات، في كل مرة، كان زوجي لا يفكّر إلا في تجريدي من الممتلكات القليلة التي كنت أملك. فلنأمل بأن لالة عيشة لم تصادف جاحدا و مدعيا بغضا.

قالت أمي بحكمة:

- وحده الله يعلم.

تركنا الجارة الثرثارة. كانت حشود الحضريين و القرويين تحت الخطى في شارع البقالين، ساحة كتاب العدل، سوق الفواكه الجافة. كان سائقو حمير يدفعون حيوانات نحيفة محمّلة بكثرة بأكياس من السكر، صناديق الشموع، رزم من النسيج القطني، أوان من الخزف و الألعاب.

كان ازدحام معقد يتشكل عند كل مفترق طرق. كنا دائمًا نتمكن من التسلل بين مجموعات المتسكعين. لأمر بسهولة، كنت قد نزعت بلغتي، وضعتها

في قلنسوتي. عند كل خطوة، كانت أمي توصيني بتوكسي الحذر. كان من الممكن أن أفقدها خلال التدافع أو تسرق مني. كنت أطمئنها. كنت أحس بها تضرب ظهري بشكل خفيف.

رأيت أول دكاكين القماش. كانت تلوح من بعيد. كان التجار، ليجذبوا الزبناء، يعلقون على عرشهم رايات من الحرير، كنوز ذات ألوان باهتة، مناديل مطرزة «بالطار».

كانت القيسارية، ملتقى كل أنواع المدنية، تبدو لي و كأنها تحتوي على كنوز سليمان ابن داود الشهيرة. ففاطم من جوخ أرجوانى، صدرات مزينة بعنایة بالقبطان و أزرار الحرير، جلابيب من الفوال الصوفى، برانس فاخرة تجاورها أنسجة تل متفرقة مثل نسج العناكب تحت الندى، أنسجة التفتة، الساتان المموج و الكريتون بألوان الطبيعة.

كانت أصوات النساء تعطى لهذا المكان جوا من الألفة. كان التجار لا يشبهون غيرهم في باقي الأسواق. كان أغلبهم شبابا، أبهاء الطلع، جسان الهندام، لبقون في حديثهم. لم يكونوا يغضبون أبدا، كانوا يبدون صبرا بلا حدود، يزعجون أنفسهم ليرموا لزيونة قماشا معلقا في أعلى الرفوف، يبسطون القطعة، يعيدون طيها لإعادتها إلى مكانها، لكون الزيونة وجدت تحت كومة من الحرير، قماشا أعجبها أكثر.

زرنا خمسة أو ستة دكاكين قبل شراء ثلاثة أذرع من القماش القطني الأبيض. كانت مستعمل لتفصيل قميص لي. كان قماشا قطنيا من نوعية جيدة، نوعية «السمكة». لم تكن أمي تريد أي ماركة أخرى. أرانا البائع سمكة بكامل حراسفها مطبوعة بالأزرق على طول لا يأس به من القطعة. دامت مراسم المساومة أقل بكثير من وقت شراء الصدار الأحمر بشرانط. توقفنا أمام عشرة دكاكين، كان التجار يسرعون و يعرضون علينا أكوا ما من الصدارات على مقاسى، كانت جميع درجات اللون الأحمر تتراقب أمام أعيننا؛ لم تكن أية واحدة تطابق الدرجة التي كانت تريدها أمي. في الأخير ثبت اختيارها على صدار كرزي اللون، مزين بكثرة بشرانط لولبية و زهيرات من القبطان، أغمق قليلا من القماش.

نزلعت عني جلبابي، جعلتني أجرب الصدار، زرّرته لي حتى العنق، ابتعدت لترى كيف يبدو، أشارت لي بالاستدارة يمينا، ثم يسارا، استغرقت

وقتا طويلا لتفك الأزرار، صنعت منه كرة دستها بعنف بين يدي التاجر.
استعلم صاحب الدكان:

- هل أعجبتك هذه البضاعة؟

- أجابت أمي: الثمن هو من سيفرر.

- إذن، هل أجهز العلبة؛ دانما أقدم تخفيضا لزبنائي الجادين. يباع هذا الصدار بخمسة ريالات بيسر، سأتركه لكى بأربعة فقط.

- لنقصر الحديث، سأعطيك ريالين.

- أنت لا تعطيني ثمنه بالجملة، أقسم بهذا! لن أبيعه بهذا الثمن، هل سأتسول لأطعم أطفالى هذا المساء.

كان التاجر قد انتهى من طي الصدار بعناية و يبحث عن ورق ليلفه به.

- قالت أمي: إسمع، أنا أم لأسرة، أتكلف بيبيتي، ليس لدى أى وقت للمساومة. هل تريد أن تدع لي هذا الصدار بريالين و ربع؟ أقوم بهذه التضحية من أجل ابني الذي يتمنى بشدة أن يرتدي هذا اللباس في يوم عاشوراء.

هذا الولد يعجبني، سأبدل مجهودا من أجله، أعطيني ثلاثة ريالات و نصف.

مد التاجر يده، كان ينتظر استلام النقود. أدارت له أمي ظهرها، أمسكتني من رسги و مشت بي بضع خطوات.

- قالت لي: تعال! الصدارات تملأ القيسارية. لا بد من أن نجد حانوتيا جادا يعرف كيف يتكلم بشكل معقول.

بدأ التاجر بندائنا بنبرة مستعجلة.

- عودي يا لالة! فلتتعودي إذن. إن الصدار يعجب هذا الطفل. سأمنحه لك بدل من أن أحرمك من متعة ارتданه. صحيح أن الصدارات تملأ القيسارية، لكن هل تستطيعين حقا إيجاد واحد بهذه الجودة؟ تأملي الإنقان الذي صممته به جميع الدروز. أنظري إلى تنفيذ الأزرار... خذى هذا الصدار؛ إدفعي لي الثمن الذي يبدو لك معقولا. تبددين لي شريفة مليئة بالبركة، سأطلب منك أن لا تنسيني خلال صلواتك لكى يشفع لي الرسول يوم القيمة.

كانت أمي تقعد صوابها عندما يناديها شخص ما بالشريفة مصادفة. بحثت في جيوبها، أخرجت خرقه معقودة عدة مرات، اجتهدت مدة طويلة لتفك

العقد. أخذت ريالين و نصف أعطتها للناجر دون قول شيء. لم تأخذ وقتاً لستمع للحانوتي الذي كان يطلب إضافة. أخذت الحزمة و سحبتي. تسكعنا لمزيد من الوقت في السوق. استعلمت أمي عن ثمن الأقمشة، ميلات الموضة، معنى هذا الرسم أو ذاك.

تركتنا جو الفخامة هذا لنذهب إلى حي التوابل. كنا قريبين من مدرسة عطارين، هذا المنزل الجميل الذي يسكن فيه الطلاب، عندما ذكرت أمي بساتين لالة كنزة الشوافة. هنأتهي أمي لاملاكي ذاكرة جيدة. عادت أدراجها. طوال الشارع، كانت تلعن كل شوافات الأرض، هؤلاء النساء الفاجعات اللواتي لم يكن يضيعن أية فرصة ليُسْمِّمنَ لك حياتك. كانت تتسائل عما كانت قد فعلته حقاً بنقود هذه الساحرة اللعينة كنزة التي كانت تستطيع أن تتسوق بنفسها لو أرادت ذلك. وقفَت في زاوية أحد الدكاكين، بدأت تبحث بدقة، انفتحت، تحركت، ألفت بلعنات جديدة على الشوافات وأعوانها، انتهت بإيجاد النقود في قاع أحد جيوب قفطانها. سرعان ما وجدنا بائع ساتين. طلبت أمي عدداً معيناً من الأذرع دون مناقشة الثمن، دفعت ثمنه و رحلنا أخيراً.

كان مزاج أمي الجيد قد اختفى. لم تتوقف عن توبىخي بدون سبب حتى وصلنا إلى البيت. أعطت لالة كنزة ساتينها الأسود، أعادت لها باقي المبلغ و صعدت الدرج، متأنقة و متهدئة عند كل درجة. خرجت رحمة إلى البسطة. دعتنا إلى غرفتها. طلبت من أمي أن تُرِّيَها ما افتقنته.

كانت غرفة رحمة بنفس أبعاد غرفتنا. كان هناك حاجز خشبي مهترئ بفعل الزمن يقسمها إلى ثلاثة أرباع. وراء هذا الحاجز، كانت رحمة تكتس مؤنها الشتوية. كانت تمثل بالخصوص في خبر ملح ذي لون وردي ملطخ بالرمادي و عنقide البصل. كانت الغرفة المؤثثة بفقر بأفرشة مدببة و حصير من الأسل، تحتوي، كترف وحيد، على رف طويل ملطخ بالألوان. كان هذا الرف يحمل عشرة زビديات خزفية بزهور، صحنين مزینین بدیکة رائعة و خمسة کؤوس على شکل غراریف.

كانت زینب تلعب في ركن مع قطها. كانت تقدم له مرآة صغيرة. كان الحيوان يرى عيناً دائيرية تنظر إليه بامتعان. كان يمد قائمته قلقاً، لكن كانت مخالبه تكتس السطح الملمس للزجاج. كرر مكيدته مرتين أو ثلاثة، نظر

خلف المرأة؛ لكنه لم يفهم شيئاً. أحس بنوع من الحيلة، غضب، تفوه ببعض البداءات بلغته، رحل كالسهم بذيل منفوش. كانت زينب تقهره. منذ مدة طويلة، كنت أر غب في مرأة صغيرة كخايتها. لم أكن أجرو أن أطلب من أمي شراء واحدة لي. كانت ستتظن بأنني أريدها لأنظر بها إلى نفسي و لن يفوتها أن تتعنتني بالصبي المخت.

كانت رحمة تمدح أمي على مشترياتها و تتأمل صداري. كانت الغرفة مظلمة. كان اللون الأحمر للصدار الذي يكتسب درجات محمل قرمزي يسكنني لكونه لوناً جميلاً و عميقاً، رصيناً و ملكياً في الوقت نفسه. كنت أشعر بأنني مفعم بفخر نبيل. كان هذا اللباس لي. في يوم عاشوراء، كنت سأبهـر أصدقاءنا و معارفنا. كان تلاميـذ المسـيد سيـتحـدـثـون مـعـي باـجـالـلـ. يـخـاطـبـ الصـغـارـ وـ الكـبارـ أـمـرـاءـ الـأـسـطـورـةـ باـحـتـرامـ.

آن أكون أمير أسطورة بهذا الصدار الفاخر، قميصي المستقبلي من نوعية «السمكة» و زوج البلغات الذي كان مولاي العربي، أفضل صانع بلغات في المدينة كلها، سيصنعها لي؟

كانت أمي تهـمـسـ لـجـارـتـاـ وـ هيـ منـحـنـيـ عـلـيـهاـ مـلـامـسـةـ خـدـهاـ. لمـ يـكـنـ ذـلـكـ يـعـنـيـنـيـ. لمـ يـكـنـ ماـ تـهـمـسـهـ النـسـاءـ بـغـمـوـضـ فـيـ غـرـفـةـ مـظـلـمـةـ بـهـمـ الـأـطـفـالـ الصـغـارـ الـذـيـنـ يـحـلـمـونـ بـأـنـ يـصـبـحـواـ أـمـرـاءـ أـسـطـورـةـ يـلـيـسـونـ جـوـخـاـ أـرـجـوـانـيـاـ.

كـثـرـتـ لـيـ زـينـبـ بـشـكـلـ رـهـبـ،ـ أـبـدـيـتـ لـهـاـ وـاحـدـةـ أـكـثـرـ فـظـاعـةـ.ـ بـدـأـتـ بـالـصـرـاخـ وـ تـحـرـيـضـ الـجـمـيعـ ضـدـيـ.

- أمـيـ!ـ أـمـيـ!ـ سـيـديـ مـحـمـدـ يـكـشـرـ لـيـ.ـ حـاـوـلـتـ الدـفـاعـ عـنـ نـفـسـيـ.
- إنـهاـ مـنـ بـدـأـ!ـ إنـهاـ هـيـ!

لمـ يـكـنـ أحدـ يـصـدـقـنـيـ.ـ أـجـهـشـ بـالـبـكـاءـ.ـ أـمـسـكـتـنـيـ أـمـيـ مـنـ ذـرـاعـيـ وـ هيـ غـاضـبـةـ وـ جـرـتـنـيـ إـلـىـ غـرـفـتـاـ.ـ كـانـتـ تـتـذـمـرـ بـصـوـتـ مـرـتفـعـ مـنـ قـدـرـهـ السـيـءـ،ـ مـنـ قـساـوةـ الـحـالـ،ـ مـنـ حـيـاةـ الـجـحـيمـ الـتـيـ كـانـتـ تـعـيـشـهـ بـسـبـبـيـ.ـ كـنـتـ أـتـسـأـلـ بـصـرـاحـةـ عـنـ الـأـمـرـ السـيـءـ الـذـيـ كـنـتـ أـفـعـلـهـ لـأـجـعـلـهـ تـعـيـسـةـ جـداـ.ـ تـرـكـتـنـيـ فـيـ أـحـدـ الـأـرـكـانـ،ـ أـنـخـرـ كـمـ أـشـاءـ،ـ بـقـلـبـ حـزـينـ،ـ بـشـفـقـتـنـيـ عـابـسـتـنـ وـ أـقـفـلـتـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ فـيـ مـطـبـخـهـ.

شـعـرـتـ بـالـجـوـعـ لـكـثـرـةـ الـبـكـاءـ بـصـمـتـ.ـ عـلـىـ أـيـةـ حـالـ،ـ كـانـ وـقـتـ الـغـدـاءـ قدـ مـضـىـ مـنـذـ وـقـتـ طـوـيلـ.ـ اـسـتـلـقـيـتـ عـلـىـ ظـهـرـيـ وـ بـدـأـتـ أـشـكـلـ قـائـمةـ طـعـامـ

فآخرة لليوم الذي سأكون فيه أميرا محترما ومحبوبا وسيكون علي استقبال شخصيات من مقامي. فكرت قليلا ثم قلت لنفسي: «يأكل الأمراء بكرم في منازلهم. لن أدعوه. سيكون ضيفي هم جميع المساكين، المسؤولين والمجودين الذين نادرا ما يأكلون وجبة سخية. ساوزع عليهم ملابس جميلة: صدارات حمراء مزينة بكثرة، جلابيب بيضاء كالحليب، بلغات صفراء يصرف جلدها عند كل خطوة. لن أنسى أن منهم عمامات من الموصلين. أنا، سالبس الأبيض. على رأسي، سأضع طرطورا بلون أحمر أرجواني، كان امتياز من ناس الساحة والعبيد السود سيقدمون لنا في أطباق من الخزف الصيني بعض ال...»

- هلا اعتدلت في جلستك لتأكل.

اعتدلت. كانت أمي قد وضعت الطاولة المستديرة على قوانها. لحم باللفت! لم أكن أحب اللفت! كنت أفكر في رفض هذا الطعام. كانت أمي تعيسة بما فيه الكفاية هكذا. كنت سأحدث نوبة جديدة، لم أمتلك الشجاعة. أكلت الطعام بشهية. حَوَّلَ الجوع الذي كان يلتهمني مذاق اللفت إلى نكهة شهية.

بدأ شخص بالغناء على السطح. كانت مقاطع من أغنية شعبية تأرجمها باسترخاء نفحة نسيم الربيع الجديد تصل حتى غرفتنا. توقفت أمي عن المضغ، أرْهَفَتُ أذنها. ابتعد الصوت، بعد لحظة، انتصبت واقفة مثل شرارة ضوء، ساخنة، مُسْكِرَة وحزينة مثل نفحة لبان.

ذهبت أمي لتطل من النافذة. نادت:

- فاطمة بزيوية، هل تعرفين من يعني هكذا؟

- لالة خديجة، زوجة العم عثمان.

- لا أفهم لماذا هي سعيدة لهذه الدرجة في حين أنها تزوجت بعجز في عمر أبيها.

- إنها ليت تعيسة! ينفذ العم عثمان كل طلباتها. يعاملها كابنته.

- و هي؟ كيف تعامله؟

ضحك جيراننا كثيرا.

- قالت رحمة: أنا أعرف كيف تعامله، حكت لي العجوز مباركة، العيدة القديمة للعم عثمان، قصة ممتعة جدا. لن أكررها لأنها طويلة للغاية.

- قالت جميع النساء بصوت واحد: احكيها لنا! احكيها لنا!

تم رجاء رحمة بعض الوقت، ثم بدأت:

- تعرفون العم عثمان، رجل عاش أوقات رائعة. ترك له والداه ثروة كبيرة عند موتهما. عاش شبابا طائشا و خسر الربح و رأس المال. لم يبق لديه سوى البيت الصغير المجاور لخاستنا. مباركة الوفية تقاسمت الثروة الجيدة و السينية. سي عثمان تزوج عدة مرات، لكن لا واحدة من زوجاته السابقات استطاعت أن تأسر قلبه إلا لالة عيشة لأنها كانت الوحيدة التي استطاعت ترويضه و جعله يأكل من باطن يدها مثل الحمل. صحيح أن خديجة، إن لم تكن تملك ثروة، تملك على الأقل الشباب و الحسن. انتظروا، سأصل إلى فصتي.

ذهبت لأطل من النافذة إلى جانب أمي. كانت جميع النساء قد تركن أشغالهن و يتکنن على الأسيجة و درابزين شرفاتهن. أخرجت لالة كنزة سجادة قديمة و جلست في الفناء لتستمع.

تابعت رحمة، التي لم نكن نرى إلا صدرها، تسلسل الأحداث. كنا جميعنا متشوقين لمعرفة التتمة.

- خرج سي عثمان الجمعة الماضية باكرا ليتسوق. كان يؤرجم جلته بفرح، يحيي البعض واضعا يده على قلبه، و يبدي ابتسامة عريضة لآخرين. لأنه يعرف جميع سكان الحي. وصل إلى الجوطة. كان باع لحم واحد فقط هو الذي فتح دكانه. لا داعي لأقول لكم بأن الناس كانوا كثيرين حول دكانه. لقد كان سالم الزنجي. كان يحمل تارة فأسا مذهلة و تارة أخرى ساطورا كبيرا. كان يقطع قطعا كبيرة من لحم الغنم كانت تختفي في قحف و جل الزبائن. أقول لكم بأنه كان هناك حشد. كان الناس يدوسون على أقدامهم بفرح، يتبادلون تربیبات و كلاما ساما. لكي يثير انتباه سالم الزنجي، قام سي عثمان بتحريك ذراعيه، رسم على وجهه ابتسامة عريضة، صرخ بمجموعة من الكلمات التي كان يمكن أن تعني: «ابتلع ساطورك» أو، « تستحق الضرب بالعصا » أو، بكل بساطة، « أعطني فخدا ». هده الزنجي غاضبا بفأسه من بعيد و تابع عمله.

ضحك الجميع حتى خرجت دموعهم. كانت رحمة تحسن السرد.

تابعت و هي فرحة بنجاحها:

- عاود سي عثمان فعلته بعد لحظة. أظهر سالم أسنانه، رفع فأسه عاليا، تردد بين أن يضرب بها رأس هذا الزبون البغيض و واجبه في أن يتتابع

خدمة الناس. من حسن حظ سي عثمان، الواجب هو من ربح. جاء كلب مثل أولئك الذين يكونون دائماً بجانب دكاكين الجزارين و بدأ يشتم عقبى سي عثمان. فقد هذا الأخير صبره و ضربه بركلة عنيفة. طارت بلغته. أخذها الكلب، أمسكها بين أنبياه و هرب. تبعه سي عثمان و هو يعرج. أخذتنا من جديد نوبة من الضحك و اضطررت رحمة للتوقف قليلاً قبل المتابعة.

- تمكنا من استعادة بلغته في نواحي جسر بين لمدون. عند عودته إلى الجوطة، لاحظ بأنه لم يبق أحد أمام دكان الجزار. كان الزنجي يغفو واضعاً شاشيته في أذنه و منشه بين أصابعه. على شناكل الدكان، كان يعلق قطعاً كبيرة من رئة الذبيحة للقطط. لاحظ كذلك بأن تجار الخضر كانوا ينامون وسط زنابيل فارغة أو وراء بضاعتهم التي كانت تصفر فيها ثلاثة حزم من الفجل. لم يكن سي أحمد يريد أن يعود خالي الوفاض. وحده الله يعلم كيف كانت لالة خديجة لتسقبه. في أحد الكاروانسرا، رأى مشهداً غريباً. كان أناس يدوسون أقدام بعضهم البعض بصفاء. كان شاب يخرج من هذه الدوامة، يطفو قليلاً فوق الرؤوس ثم يختفي. انتظر سي أحمد طويلاً، مليئاً بحسن الإرادة، أن تحدث معجزة. بما أن المعجزة تأخرت، أصبحت حكة أنفه لا تحتمل. ترك السوق ليذهب إلى أقرب باائع للتبغ. كان يأمل أن يستنشق نفحة جيدة في أنفه. ربما تأخر قليلاً لدى باائع التبغ. عند عودته، لم يتبقى سmk و لا مشترون.

كانت النساء تصرخن من الفرح. أنا كنت أتململ من الحماسة. كنت أطالب بالتنمية.

- كانت أمي تقول: أكملي! أكملي!

تابعت رحمة.

- غضب سي عثمان، رأه بعض الأشخاص يصبح شائماً. كان يرفع قبضتيه و يقول: «العجز اللعين! هل كنت في حاجة لسماع قصة زواجه، هذا الزوج المخدوع؟ لماذا حکى لي عن موته و ما دخلني بخطوبية ابنته!» في النهاية. عاد سي عثمان أدراجه. عند باائع النعناع الذي يقع في مفترق الطرق الصغير لشارع ساغا، نسي نفسه أمام وردة رائعة. ظن بأنه إن أهدتها للاله خديجة، كانت ستسامحه لعدم إحضاره لأي شيء يؤكل. كنت في الشارع عندما عاد إلى منزله، فخوراً بوردته

الجميلة التي كانت تعطر الجو و شاهدت الخاتمة بأم عيني. دخل، ثم فتح الباب من جديد على الفور تقريباً، سقطت الوردة عند قدمي، ثم تبعتها عمامه سبي عثمان يليها سبي عثمان باهت وشاحب. التقط غطاء رأسه، أخذ الوردة التي شمها مطولاً و، عندما رأني هناك و أنا أحدق إليه، أنعم على بابتسامة عريضة.

ضحكنا حتى تلوينا.

أنهت رحمة قصتها هكذا:

- حيرتني الوردة، العمامة و سلوك سبي عثمان و سالت مباركة عما حصل، و هكذا عرفت كيف كانت لالة خديجة تعامل زوجها العجوز. مدح الجميع رحمة على طريقتها في تلوين الأحداث الأكثر تفاهة. كان كلامها «به ملح».

تملكتني قصة رحمة طوال السهرة، في الليل، حلمت بها مجدداً.

الفصل 7

اشترت كل نساء المنزل « طعارجا »، بناديرًا و دفوفاً. كانت كل واحدة من هذه الآلات لها شكلها، لغتها الخاصة، كانت منها الطويلة من الخزف الأزرق، بقاعدة مغطاة بالجلد، و المنتفخة من الخزف الشبه ريفي، إطارات دائرية بسيطة و مشدودة بجلد الماعز المسموطة بعنابة.

اشترت أمي أحد تلك الطبول أو البنادير. جربته. تكلمت ضربات خفيفة و ضربات جافة منسقة فنياً بلهجة خشنة، خليط من الشمس و الريح من الجبال العالية.

بقي يومان فقط على عاشوراء، اليوم العظيم الذي ترتفع فيه إيقاعات و أغان من كل سطح عند كل عصر.

الآن، كل واحدة من جاراتنا تقوم بسلم موسيقي، تعزف لنفسها جواً من الرقص، مرفقاً بنعمات و كلمات مهمسة بصوت خافت. كانت زينب تضرب كالصماء على « طعريجه » صغيرة تافهة. في اليوم السابق، كان أبي قد أعطاني بوقاً خشناً جداً من التنـاك مطلباً بكل الألوان. كنت أطلق منه من حين لآخر أنيناً أنيـناً أـنـفـياً ينتهي بصوت أحـشـ مثلـ وـحـشـ غـاضـبـ. على آية حال، كنت أـنـوـيـ اللـعـبـ بـالـعـابـ أـخـرـىـ فيـ يـوـمـ عـاـشـورـاءـ. كنت أـرـيدـ « درـبـوكـةـ مـزـدـوـجـةـ » وـ شـخـشـيـخـةـ مـزـيـنـةـ باـزـهـارـ. كنت أـكـتـفـيـ فيـ الـوقـتـ الـراـهـنـ بـبـوـقـيـ. كانـ يـدـوـيـ بـيـنـ كـلـ أـصـوـاتـ الـمنـزـلـ كـصـوـتـ الإـنـذـارـ، أحـيـاناـ كـبـكـاءـ شـخـصـ يـحـضـرـ.

رجـتـنيـ أمـيـ أـصـعدـ إـلـىـ السـطـحـ وـ أـعـزـفـ كـمـاـ أـشـاءـ. فيـ المـدـيـنـةـ كـلـهاـ، كانتـ النـسـاءـ تـجـرـبـنـ « طـعـارـجـهـ »ـ. كانـ طـنـينـ مـكـتـومـ يـغـطـيـ المـكـانـ.

نـفـختـ خـديـ بـالـهـوـاءـ ثـمـ نـفـختـ بـكـامـلـ قـوـايـ فيـ بـوـقـيـ الطـوـيلـ؛ اـخـتـنـقـ الصـوـتـ وـ شـعـرـتـ كـأـنـتـيـ أـسـمـعـ رـضـبـعاـ يـبـرـزـ أـسـنـانـهـ الـأـولـىـ. كانـ قـطـ زـينـبـ يـنـامـ تـحـتـ الشـمـسـ. قـامـ بـقـفـزةـ رـعـبـ، كـادـ يـفـقـدـ تـواـزـنـهـ وـ يـسـقطـ مـنـ أـعـلـىـ الجـدـارـ، بـيـتـهـ المـفـضـلـ. تركـ لـيـ السـطـحـ وـ اـنـدـفـعـ دـاخـلـ مـزـرـابـ.

ظـهـرـ وـجـهـ قـلـقـ منـ أـعـلـىـ جـدـارـ مـجاـورـ ثـمـ اـخـتـفـيـ. كانتـ أمـيـ قدـ بدـأـتـ تـنـاديـنـيـ. نـزـلتـ لـأـلـتـحـقـ بـهـاـ.

- قالت لي أمي: لقد أرسل المعلم واحداً من زملائك، إنه ينتظرك في
الفناء. خذ بلغتك و اذهب إليه؛ إن الفقيه في حاجة إليك.

تركـت بـوقي بـأـسـف و نـزـلت الـدـرـج بـسـرـعـة لـالـتحق بـصـدـيق درـاستـي. لـقد
كان حـموـصـة، حـمـصـ، أـقـصـر تـلـامـيـذ الـكـتـاب قـامـة. كان اسمـه الحـقـيقـي
عـزوـز بـراـدـة. أـوـصـانـي بـالـإـسـرـاع.

كان تـرـكـيب التـرـيـات من أـجـل لـيلـة عـاشـورـاء يـتـطـلـب تـعاـون جـمـيع الأـيـدي.
كان من الـواـجـب الـمـجـيـء و الـعـمـل مـثـل الـآخـرـين بـدـل الـلـعـب بـالـبـوقـ. وـصـلـنا
إـلـى الـمـسـيـد. قـبـلـت يـد الـمـعـلـم و جـلـست وـسـط مـجـمـوعـة مـكـلـفة بـقـصـ فـتـائل
صـغـيرـة في مـرـبـع من قـمـاش أـبـيـض قـدـيم، رـثـ إلى درـجـة التـأـكـل. كان تـلـامـيـذ
آخـرـون يـأـخـذـون فـتـائل الـمـفـتوـلة بـعـنـيـة، يـشـبـكـونـها من الـوـسـط بـشـفـرة من
الـتـنـكـ. كان الـطـرـف الـحـرـ من الشـفـرة يـكـوـن شـنـكـلا و كان يـجـب وضعـه على
طـرـف كـأس مـمـتـلـئ نـصـفـه بـالـمـاء و نـصـفـه الـآخـر بـزـيـت الـزـيـتونـ.

كان الـكـبارـ، و هـم يـقـفـون عـلـى سـلـم مـتـخلـلـ، يـعـلـقـون تـرـيـات من التـنـكـ في
عـرـش الـنـوـافـذ و سـقـف قـاعـة الـكـتـابـ. كانت هذه التـرـيـات ذات تصـمـيم بـسيـطـ
لـلـغاـيـة و تـتـكـون من وـاحـد أو عـدـة أحـوـاق مـرـتـبـطة فيما بـيـنـها بـسـيـقـانـ صـلـبةـ.
كـانـتـ أـقـرـاصـ ضـيـقةـ، تـوـضـعـ عـلـيـها الـلـمـبـاتـ الصـغـيرـةـ، تـأـتـيـ لـتـلـتـصـقـ بـهـذهـ
الـأـحـوـاقـ: زـجـاجـاتـ عـادـيةـ بـهـا فـتـيـلـةـ تـسـبـحـ فـيـ زـيـتـ الـزـيـتونـ.

لـلـحـصـول عـلـى منـظـر جـيدـ، كانـ التـلـامـيـذ يـخـلـطـونـ بـالـمـاءـ لـمـبـاتـ مـسـحـوـقةـ
بـالـأـلـوـانـ مـخـتـلـفـةـ.

عـنـدـما وـصـلـتـ، كانتـ التـرـيـات لمـ تـكـتمـلـ بـعـدـ. كانتـ الزـجـاجـاتـ مـكـوـمةـ فيـ
دـلـوـ. كانتـ مـسـاحـيـقـ الـأـلـوـانـ مـوـضـوـعـةـ عـلـى شـكـلـ حـزـمـ صـغـيرـةـ فـيـ بـلـغـةـ
الـفـقـيـهـ وـ كـانـتـ شـفـراتـ التـنـكـ تـتـنـشـرـ فـيـ كـلـ مـكـانـ عـلـىـ الـحـصـيرـ. عـمـلـناـ
بـنـشـاطـ.

جرـحـ حـمـوـصـةـ إـبـهـامـهـ بـشـفـرةـ وـ ذـهـبـ لـيـتـعـالـجـ فـيـ بـيـتهـ وـ هـوـ يـبـكـيـ قـلـيلاـ.
كانـ أـغـلـبـ التـلـامـيـذـ يـعـلـمـونـ بـحـيـوـيـةـ؛ كانـ خـمـسـةـ أوـ سـتـةـ فـقـطـ، مـنـ بـيـنـ أـكـثـرـ
الـمـشـاغـبـينـ، يـذـهـبـونـ مـنـ مـجـمـوعـةـ لـأـخـرىـ، يـتـحـرـكـونـ فـيـ كـلـ الـأـنـاءـ،
يـقـطـعـونـ بـعـضـ الشـجـارـاتـ هـنـاـ وـ هـنـاكـ.

انتـهـىـ عـمـلـناـ مـعـ غـرـوبـ الشـمـسـ. قـبـلـ الـخـروـجـ مـنـ الـكـتـابـ، أـنـشـدـناـ بـعـضـ
الـتـرـاتـيلـ الـتـيـ تـمـدـحـ الرـسـوـلـ، تـلـوـنـاـ بـعـضـ آيـاتـ الـقـرـآنـ بـصـوتـ وـاحـدـ. أـلـقـىـ
الـمـعـلـمـ أـدـعـيـةـ بـوـرـعـ لـيـنـزـلـ الـبـرـكـةـ عـلـيـنـاـ، وـ عـلـىـ وـالـدـيـنـاـ وـ عـلـىـ كـافـةـ الـأـمـةـ

الإسلامية. لم ينسى، في أدعيةه، السلطان الأمير، أطال الله عمره و أعاشه على حمل ثقل المملكة.

بقينا صامتين في انتظار أن يشير لنا المعلم بالرحيل. جاء دوري بسرعة. قبلت يد المعلم، لبست بلغتي و خرجت.

في البيت، وجدت أمي متزوجة جداً. كان زيت الفنديل قد نفذ. كانت أمي قد نسيت شراءه. اقتربت إليها أن أشتريه. رفضت. عاد إدريس العاود. نزلت أمي إلى الطابق الأول. سمعتها تهمس في بسطة رحمة. سمع صوت خطوات إدريس العاود في الدرج من جديد. كان قد قبل أن يسدي إلى أمي الخدمة.

بلغني من الشارع صوت حاد لبائع شموع. كان يصرخ: «شموع وأعود ثقاب». كنا قد توقفنا عن استعمال الشموع. كان ذلك يهم الناس القراء، بدون نقود، أولئك الذين لم يكونوا قادرين على شراء فنديل جميل مزود بزجاجة تعكس الضوء، كان ذلك يهم أيضاً الناس المختلفين الذين يخشون الانفجارات، الدخان و الرائحة الكريهة، العديد من السلبيات التي لا توجد إلى في مخيلتهم.

حل الظلام بشكل مفاجئ. كنا ننتظر عودة جارنا بفارغ الصبر لنضيء الغرفة. سعل أحدهم عند باب دخول المنزل. سأله إدريس العاود إن لم يكون هناك أحد في طريقه. أسرعت أمي إلى بيت رحمة، أعادت فنانتها مليئة بالزيت. بضوء قطعة شمع، فكت الفوهة، ملأت الفنديل، نظرت الفتيلة من كربونها و أشعلت.

- قلت لها: سهرة مباركة.

- أجابتني أمي: فلتكن سهرتك مباركة.

- نادت لالة كنزة من الطابق الأرضي: لالة زبيدة، فلتكن سهرتك مباركة، هلا أعطيتني قليلاً من النعناع؟

- سيحضره لك سيدتي محمد.

أعطتني أمي بعض أغصان النعناع المعطرة جداً. ذهبت لأعطيها للشوافقة بفخر. وجدتها في الفناء. كانت رائحة البنزوين و اللبان و بخور أخرى تُثْقِلُّ الجو. كنت مفتنتاً بأن مجموعة من الشياطين، منجذبة بكل هذه الروائح، كانت في الظليل.

وضعت لالة كنزة في باطن يدي حفنة من حبوب السمسم لشكري. فكرت في أن تلك كانت حصة من طعام غامض يعطى للجن من طرف الساحرة. تذوقته بطرف لساني. لم يكن بمذاق السمسم أي شيء مرrib. أكلت. كانت الحبوب تتلتصق حول شفتني و على طرف أنفي. كان لساني يزبح ما استطاع بلوغه. نفضت الباقي بأصابعها.

كان الدرج مظلما لكن هذا لم يكن يخيفني. الفراغ الذي كان أمامي لم يكن فارغا إلا ظاهريا. كانت أرواح خرساء تتنحى لتدعني أمر. عندما سأبلغ السن اللازم. ستكشف كل هذه الأرواح نفسها أمام عيني الساحر خاصتي.

سمعت أمي تلفظ بوقار:

- الله أكبر.

سؤال أحدهم:

- هل ما أسمعه هو المؤذن الذي ينادي لصلاة العشاء؟

- أجابت أمي: أجل.

في الظلام، كنت أحبس أنفاسي، أرهف السمع. لم أكن أسمع المؤذن. يقال بأن للنساء سمعا حادا أكثر من الرجل.

لم يتأخر أبي في الوصول. جرى العشاء كما العادة.

قبل أن ننام، أخبرني أبي بأنه ينوي اصطحابي معه في اليوم التالي، في الصباح، للتنزه في الأسواق و اختيار العابي. كنا سنذهب كذلك إلى باب مولاي إدريس لشراء شمعة دينية. سأهبهما لمعلم الكتاب في ليلة عاشوراء. كنت سعيدا. كان شيء واحد يزعجني. كنت أعلم بأنه من المستحيل لي أن أفلت من حصة الحلاق. لم يكن ليفوت أبي أن يأخذني إلى شماین في الدكان الضيق لسي عبد الرحمن الحلاق.

لم أكن أحب لا سي عبد الرحمن، ولا دكانه.

نممت، لكن النعاس كان قد ترك جفوني. حلمت طويلا بشموع دينية ضخمة، مزينة بتخريمات من الورق المفرغ بدقة من طرف يد صبور، شفرات براقة، « دربوكات مزدوجة »، ثريات من الحديد المطرق محملة بفناجين بلورية.

لم يكن أبي يعرف شيئا عن الفن العظيم للبيع و الشراء. كان يجهل حذافير المسماومة و نشوة الحصول على شيء ما، بفلس أقل مما دفعه الجار. اصطحبني بعد الفطور للقيام بجولة حول بائعي الألعاب. كان صوت «

الطعارض » يدوي في كل شارع، جلاجل شخصيات التنك، لحن الشبابات. كان تجار « الطعارض » يجدون صعوبة في التحرك داخل دكاكينهم الصغيرة التي أصبحت ضيقه لكثرة أكواام البضاعة. كانت « طعارض »، بنادير، دفوف، أبواق و مزامير تتندلى على شكل عناقيد، تجتمع على شكل أكواام متعددة الألوان، تماماً الرفوف. حشد من النساء، الرجال الناضجين، البنات والأولاد يتطلقون حول كل دكان. كان البعض يجربون آلة و الآخرون يرافقونهم بالتصفيق، يصرخون، يطلبون، يتحدثون مع البائع الذي لم يعد يعرف من أين يبدأ.

كانت مجموعة من القرويين، الفادمين من قراهم البعيدة، يشترون مخزونهم من السكر، التوابل، الأقمشة و الآلات الموسيقية. كانوا يسدون الطريق برمهم.

كنت أمسك بيدي أبي الذي كان مشغولاً بإبعاد الناس ليشق لنا طريقاً. حصلت على « دربوكى المزدوجة »، عربة صغيرة غريبة من الخشب و بوق جديد.

كان أبي يدعني اختار، يدفع دون نقاش. كنت ألقى عليه خطابات طويلة، أطرح عليه آلاف الأسئلة التي نادراً ما كان يجيب عليها. كان يبتسم لرؤيتي سعيداً جداً. أنهينا تسوقنا بشراء شمعة دينية، وزنها رطل. كان شارع باب مولاي إدريس يؤدي إلى حي صانعي الأحزمة المطرزة و بايعي الفواكه الجافة.

كان دكان سي عبد الرحمن الحلاق يقع قرب قدم دالية عتيقة. كان المعلم بنو عاشر يشغل الدكان المقابل. كان لكل واحد زبانه. كان كلا الحلاقان يجهلان المنافسة.

كان أبي يأتي ليحلق شعره في دكان سي عبد الرحمن منذ استقراره في فاس.

كان الحلاقون يشاركون في عدة احتفالات عائلية. كان أبي قروياً يسكن في المدينة الكبيرة و مع ذلك عند ولادتي كان يريد الاحتفال بمجيئي إلى العالم كما ينبغي. كان سي عبد الرحمن أفضل عون له. جاء، حسب العادة، و معه اثنان من متعلميته ليجلس المدعوين و يقوم بتقديم الطعام. عند أول حلقة لي، استعان أبي بخدماته و كانت كذلك فرصة مناسبة ليأخذ برأيه و نصائحه.

لم أكن أحب سي عبد الرحمن. كنت أعلم بأنه من سيقوم بختاني. كنت أخشى هذا اليوم. كنت أحس بقشعريرة تسرى في بدنى عندما أراه يستعمل الموسى أو المقص.

وجدناه مشغولا بالقيام بحاجة. كان المريض يبدي رقتبه الحليقة. كان سي عبد الرحمن ينحني على عنق المريض. صرفت عيني عن هذا المشهد. أدخل سي عبد الرحمن محججين من التنك خلف رأس الغريب و تمنى لنا نهارا سعيدا بعبارات مؤدية.

- قال: أرى بأن هذا الشاب دلل كثيرا: طبل، بوق، عربة مذلة و شمعة دينية. صحيح بأن الشمعة الدينية ستعطى للفقيه. يجب التعامل جيدا مع المعلم، و إلا فالاحتـرس من عصـا السـفرـجل.

بدأ الجميع بالضحك. كنت أحمرّ من الغضب. لا يوجد ما يضحك في عصـا السـفرـجل. لم يسبق لهؤلاء السادة أن تلقواها على أخصـصـهمـهمـ إلى حد العجز عن الوقوف. كانوا يستطيعون الضحك. تثير عصـا السـفرـجلـ في أولئـكـ الذينـ يـعـرـفـونـهاـ إـحـسـاسـاـ بـالـخـشـيـةـ وـ الـاحـترـامـ.

رفع رجل نحيف، ذو لحية صغيرة و عمامة ضخمة، ستار المدخل. كان يتأنـوهـ كـثـيرـاـ. ليـسـمـ عـلـىـ الجـمـيعـ،ـ اـكـتـفـىـ بـهـزـ رـأـسـهـ بـحـرـكـةـ إـيجـابـيـةـ.ـ انـهـارـ بـيـنـ مـسـانـدـ كـرـسـيـ صـلـبـ وـ تـبعـ تـأـوـهـ.

- تبدو لي متـعبـاـ جـداـ ثـانـيـةـ،ـ أيـهاـ العـمـ حـمـادـ!ـ هلـ أـسـتـطـعـ مـسـاعـدـتـكـ؟

- سوف أموت يا سي عبد الرحمن.

- لا تنطق بمثل هذه الكلمات التي لا تليق بالمسلم. إن الله وحده من يعلم أسرار الحياة و الموت. مما تشكرون؟

- أنا لا أشكـوـ منـ شيءـ.ـ فقطـ،ـ فـيـ اللـيلـ،ـ يـصـبـحـ تـنـفـيـ قـصـيرـاـ،ـ أـخـنـقـ وـ يـمـتلـئـ قـلـبـيـ بـالـخـوفـ.

- يلزمك مقو، يا عم حمـادـ.ـ أـعـرـفـ وـصـفـةـ فـعـالـةـ جـداـ.ـ هلـ سـتـسـطـعـ تـذـكـرـ هـاـ.

- إن ذاكرـتـيـ سـلـيـمةـ؛ـ أـقـولـ لـكـ بـأـنـ القـلـبـ هوـ الـذـيـ يـضـعـ.ـ أـعـطـنـيـ هـذـهـ الـوـصـفـةـ بـسـرـعـةـ.

- إنـهاـ بـسيـطـةـ.ـ أـطـلـبـ مـنـ أـهـلـكـ أـنـ يـقـلوـ بـصـلـةـ مـفـرـوـمـةـ جـيدـاـ فـيـ الـزـيـتـ.ـ إـخـلـطـ مـعـ هـذـهـ الـبـصـلـةـ الـمـقـلـيـةـ مـلـءـ مـلـعـقـتـيـنـ مـنـ العـسلـ،ـ الـيـانـسـونـ وـ حـبـوبـ

السمسم، أصف الزنجبيل و القرفة، عطر الكل بثلاثة مسامير من القرنفل.
إذا تناولت لقمة من هذا العلاج كل صباح، ستختفي تو عكاك.

- سي عبد الرحمن، فليكافئك الله، يوم الحساب؛ كنت أعلم بأن حكمتك
ستساعدني كثيراً. سأذهب لشراء المكونات حالاً.

تنهد العم حماد، تحرك، ثم انتهى بالنهوض من على كرسيه و رحل، و هو
يطلق أنينا صامتاً.

تحقق سي عبد الرحمن من التصاق المحاجم التي كان قد وضعها على
رقبة زبونه الغامض.

- شرح سي عبد الرحمن: إن مساعدتي غائب اليوم و المتعلم في السجن
لجنحة لا أعرفها؛ أنا أعمل لوحدي.

تابع مخاطبا أبي:

- أتمنى، أيها المعلم عبد السلام، أنه ليس لديك شيء مهم لفعله، سأستغرق
مدة لأكمل هذه الحجامة. لقد قمت بوادحة لأحد أصدقائك البارحة. مولاي
العربي العلوي، صانع البلغات. يعجبني هذا الرجل. إنه وقرر دائماً
رصين الكلام و الأفعال. ما أستغربه، هو أنه ليس لديه أطفال. ربما لديه
زوجة كبيرة في السن؟ لا بد من أن أهلك يعرفون زوجة مولاي العربي.
يقال بأنها شريفة بقلب كبير. بفضل مساعدتها، استطاع مولاي العربي أن
يسدد ديونه و يعيد تجهيز ورشته. أعلم بأن أعماله مزدهرة جداً الآن.

كان أبي يسمع بلا مبالاة. كان سي عبد الرحمن يكتوي شفراً، ينحني على
رقبة المريض ذي المحاجم، يضع أشياء صغيرة داخل درج.

جالساً على مقعد بين مسندين من الخشب الدائرى، بقدمين في الفراغ،
كنت أنظر إلى الحصير الرث الذي كان يغلق الجدار، عدة الشفرات و
المرايا اليدوية، أتعجب بعرش الأسقف المرسوم باللون باهتة.

كان سي عبد الرحمن قد استأنف مونولوجه:

- الا تظن بأنه يجب عليه أن يتزوج امرأة أخرى؟ ربما لم يبن الأولان
البعد، لكنني متأكد من أن أعمال مولاي العربي ستتمشى من حسن إلى
احسن. إنه يصنع بلغات نساء ممتازة، تتسم بجودة مدهشة حقاً، سواء على
مستوى المادة، الزينة أو الألوان. تلقى منتجاته دائماً إقبالاً كبيراً من طرف
النساء. النساء فقط هن من يصنعن ثروة البعض أو دمار الآخرين. في

بعض البلدان، تذهب النساء حتى إلى الحلاق لتصفيق شعرهن. لماذا لم
أولد في أحد تلك البلدان المذهلة!

أطلق سي عبد الرحمن تنهد أسف طويل ثم استأنف:

- ليس لدي أي حق في التذمر، أنا الحلاق الذي يحظى باهتمام العديد من
العائلات من المجتمع الراقي. إنهم كرماء. سيعرف الله كيف يكافنهم.
الحمد لله!

دخل زائر جديد.

- قال: السلام عليكم!

- أجاب سي عبد الرحمن: و عليكم السلام و رحمة الله تعالى و بركاته.
حرك أبي شفتيه، سعل الزبون ذو المحاجم ثلاث مرات، بصدق في مكان
ما و تسمر في وضعيته الصلبية. كان يدبر ظهره لنا. كنت أرى أهداب
لحيته التي كانت خارجة من الجانب. كانت أذناه الحمراوان كالكرز
تشبهان وردتين غريبتين. انطلاقا من لون رقبته، من المرجح أن يكون
عجوزا و يعمل في الحقول أو في العديد من الحدائق التي تحيط بفاس. لم
يعد يثير اهتمامي. كنت أنظر إلى القادر الجديد، كانت بشرته بيضاء
كالشمع، حواجبه كثيفة و لحيته أكثر سوادا من جناح الغراب، كان وجهه
يشع لطفا.

جلس على ما يشبه منبرا مرتفعا جدا كان يقابل باب الدكان. لم يتوقف سي
عبد الرحمن عن تملقه بالابتسamas و الكلام الطيب. عندما جلس الشاب،
أطلق الحلاق حمامة أو اثنتين ليعبر عن فرحة ثم شرع في الحديث.

- كيف حال والدك المحترم، يا سي أحمد؟ (فليحفظه الله في صحة
ممتازة و يكثر خيره !) الأذالت ركبته تولمه؟ لقد تحسنت! أنا سعيد جدا
لذلك! لقد أتى مرهمي بنتيجة. لقد تجاوز توقعاتي حتى. و أنت، يابني؟
دعني أهنتك، أتمنى لك السعادة و الفرح. أجل، أنا أعلم مسبقا. أعرف
القليل في الحقيقة، يحدثني والدك عنك أحيانا، لقد أخبرني بالحدث السعيد.
ستتزوج ابنة سي عمر كاتب العدل.

خلال كل هذا المونولوج، فتح المدعو سي أحمد فمه عدة مرات، حاول أن
يتقوه بكلمة لكن كان سي عبد الرحمن يخمن أجوبته و يوفر عليه عناء
النطق بها. كان الحلاق يتتابع:

- إن سي عمر رجل تقى. إن لقاء شخص مثل سي عمر أو والدك المحترم الحاج علي في زمن تكثر فيه الرشوة، الظلم و الطمع هو نعمة من الله.

استدار نحو أبي ليخبره:

- إن سيدى أحمد هو ابن الحاج علي العمرانى، بائع الشاي في حى ساغا.
لا بد من إنك تعرفه.

- بلى! بلى! لا بد من إنك تعرفه، لقد حج ثلث مرات في الأراضي المقدسة. لقد لمس الحجر الأسود ثلث مرات. أنا أدعوك الله أن ينعم على بأن أكون جاراً لرجل تقى مثله في الجنة! سيتزوج سي أحمد ابنة سي عمر كاتب العدل. يملك سي عمر، إضافة إلى العلم، الحكمة و اللياقة، ثروات مادية؛ سيزيد الله من ثروته.

خاطب سي أحمد:

- كيف حال دراستك؟ عرفتكم منذ أن كنت رضيعاً، و ها أنت الآن عالم!

- قال سي أحمد أخيراً: لست سوى طالب للعلم.
قال هذه الجملة بشكل مفاجئ. كان سي عبد الرحمن يمص «سدادة» واحد من محاجمه. أضاف مستغلاً دائماً سكوت الحلاق الإضطراري:

- سي عبد الرحمن، لا شك في إنك تعلم أكثر مني عن زفافي. إن والدي هما من يتكلمان بهذا الأمر. ليس القرار بيدي.

- قال الحلاق: و منذ متى كان الشباب هم من يقررون عندما يتعلق الأمر بمثل هذه المثالك الخطيرة؟ أحياناً تكون لديهم بعض التعليمات، لكن تعليمات مجتمعة في الكتب و على شفاه معلميهم. تنقصهم تجربة الناس الناضجين، أوجه المقارنة، معرفة الرجال. إن الزواج لا يعني قضاء سهرات لطيفة مع فتاة شابة و جميلة، بل يعني خلق صلات قرابة جديدة مع عائلة أخرى، إنجاب أطفال جيدين قادرين على مساعدتك في الكبار. لدى بنت في سن الزواج. سيكون صهري المستقبلي مثل ابني تقريباً، أنا الذي كنت دائماً أتمنى أن يكون لدى إبن.

سحب سي عبد الرحمن المحاجم، ذهب لإفراغها وراء ستار. كان انتفاخان داميان يظهران على رقبة الزبون. أسرع الحلاق بتغطيتهما بالقطن و أقبل نحوه.

- سأبدأ بهذا الطفل الذي لا بد من أنه يشعر بالملل. كان سيفضل أن يكون في الشارع بدون شك.

بينما كان يغلفني بمنشفة كبيرة مخططة بالأحمر والأصفر، كان يتبع بهذه الكلمات:

- أنا أفهمه! الشارع! الشارع، بالناس و روانه، الناس و نداءاته، الناس و همساته، غنائه، نواحه، شجاراته و أصوات أطفاله، الشارع بأماكنه التي تظلها الدالية و الدلب، الشارع الذي يحلم، الذي يغني و الذي يحرد... الآن، كان يصبن رأسه و يفركه بيديه المبسوطتين. كانت نظرته ملتسبة. تابع نشيد الشارع خاصته.

- الشارع الذي يكردح فيه الحمار الرمادي الصغير، الذي تتجول فيه القطط الهزيلة، الذي تدور فيه أسراب طيور الدوري، الشارع الذي يعبره زوج من الحمام بريش متقرح، يخصص هذا الشارع، بمواكب حفلاته و مواكب أدفانه، ابتساماته الأكثر لطفا للعشاق، يحيطهم بدفء حنان الأم، يتزين لهم فقط بالألوان اللطيفة و الأضواء النادرة.

- هتف سيدتي أحمد: إنك شاعر يا سي عبد الرحمن! و الله! لم يسبق لي أن قرأت شيء بهذا الجمال عن الشارع.

- كيف لي بأن أكون شاعرا و أنا بالكاد أعرف القراءة و الكتابة؟ لا، أنا فقط أحب مدینتنا الجميلة فاس. إن الشارع بالنسبة لي هو احتفال مستمر.

- قال أبي: أنت تعرف كيف تتكلم عنه بشكل جيد.

- سي عبد السلام، نتكلم دائمًا عن الأشياء التي نحب بشكل جيد. إن نعارة سوقية من الطين يمكنها أن تثير حماسة هاو للنعرات و تحوله إلى ما يسميه سيدتي أحمد شاعرا.

اختار سي عبد الرحمن موسى ذات مقبض من الأبنوس، مررها، أعاد تمريرها على حجر لزج بالزيت، مسحها بعناء، جربها على ظفره قبل الشروع في حلقة رأسى.

بدأ من قمة الجمجمة، أجبرني على إخفاض أنفي حتى الركبتين، فرك بضربات خفيفة زغب رقبتي. عاد بعد ذلك إلى الجوانب، قام بجولة حول الخصلة التي كانت تتدلى على أذني اليمنى. كانت الموسى تحرقني قليلا. لم أكن أقول شيئا. لم أعد أسمع الحديث حتى. انتابني فتور. انتهى بي الأمر بالنوم. ذهب رأسى بطريقة منحرفة و جرحتني الشفرة قليلا.

استيقظت منتصف الليل، كان الحلاق ما يزال يتكلم. كانت قطرات العرق تغطي جبيني، تسيل على طول أنفي.

توقف أخيراً، نفخ وجهي و عنقي باستعمال منشفة و نزع عني المنشفة الكبيرة. أحسست بأنني خفيف، كما لو أنه تم إفراغ كل دمي. أحسست بألم في قلبي. بحثت عن أبي بعيوني. انتبه لتو عكى، وقف، هب لإنقاذني.

- قال لي: تعال، سيفيدك الهواء الطلق. سي عبد الرحمن، أنا كذلك في حاجة إلى الحلاقة، لكن سأعود في المساء؛ يبدو هذا الطفل متعباً. يا سادة، سأترككم في رعاية الله !

ها نحن من جديد في الشارع؛ لم يسبق لي أن رأيته بهذا الجمال و السحر قبل هذا اليوم. أحسست بحال أفضل بكثير. عند وصولنا إلى البيت، جلسنا من أجل الطعام. كان صدى « الطوارج » يصلنا من كل المسطوح.

في الطابق الأول، كانت زينب تضرب بدون إيقاع لعبتها ذات الأربع فلوس، طعريجة من الطين التي لم يكن طولها يتجاوز شبراً واحداً. لقد أخذت بالكاد وقتاً لأكل، كنت أططلع لأجعل زينب تموت من الغيرة. وجدت عصيتي، تقلدت « بدر بوكتي المزدوجة » و بدأت ثوبه تتقدّب طبلة أدنى كل سكان الحي.

فكرت. يجب أن تكون موسيقاي أكثر غنى. تحولت إلى رجل الأركسترا. جلست، وضعت طبلي أرضاً على جوانبه، تمكنت من إمساك بوعي بركتي. أمسكت يداي العصبة بقوة. نفخت في بوعي بكل قوتي. اختلط صوت الطبل بالخوار. صارت الموسيقى مصممة. التحقت بي زينب لمشاركة في الحفلة. أقمنا أجمل حفلة موسيقية جعلت جدران بيتنا ترن. طلبت جميع النساء، مع احتساب أمي، الرحمة. لم تكن موسيقانا تعجبهن. نصحتنا بالصعود إلى بلكون السطح و سحر آذان الجيران.

طلبت أمي مني قبل ذلك أن أخلع جلبابي و صداري القديم. كانت ترغب في أن تجرب قميصاً جديداً على. البستني إيهاد فوق القديم. كان يطفو من التجهيز.

كانت أمي تبدو راضية عن عمل الخياطة. كان القميص يغطياني كلياً و يسقط حتى الأرض. كانت ذراعاي تصبيعان داخل الأكمام الكبيرة. كانت

ياقتي التي يبلغ ارتفاعها أصبعين مصنوعة من عدة سموك من القماش و كان يغلق حافتها بريم من الحرير الأبيض.

لم أكن أفكر إلا في طبلي، كانت حصة القياس هذه تشعرني بالملل. استطعت التحرر، استعدت صداري القديم و جلبابي. ركضت إلى السطح. كانت زينب في انتظاري برفقة بنتين و ولد قدموا من المنازل المجاورة، كان كل واحد يملك الآلة الموسيقية. كان الولد يملك طعريجة مثل البنات، تخلى عنها للحصول على بوقي. كان أكبر مني و يفهم في الموسيقى. عرف كيف يخرج من هذا البوّق، الزمزمات الأكثر مفاجئة. استسلمنا لفرح الإيقاع، سكرنا في الضجة.

تسليفت نساء متقلات بالثياب الجدران لتنظرن إلينا. كن يضحكن من إثارتنا، تشجعننا بكلمات لطيفة كانت تضيع في الجماعة.

لعبنا حتى غروب الشمس. أنت أمي لاصطحابي. حسب قولها، كنت قد استمتعت بما فيه الكفاية هذا المساء. كان يجب الذهاب للعشاء و النوم. كانت تتوى إيقاظي مع أول ساعات النهار للذهاب للمسيد و بدء السنة بالفرح، العمل و تلاوة الآيات الكريمة. أخذتني إلى المطبخ. هناك، كان المعلم الخشبي الذي يستعمل أيام الغسيل مليئاً بالماء الفوار. لجعل هذا الماء أقل حرارة، سكبت فيه دلواً من الماء البارد. خلعت لي ملابسي، غمرتني في هذا الخليط الدقيق. انقطع تنفسني. بدأت بالصراخ، التخبط لكي أتخلص من يدي أمي التي كانت تفركني بقوة باستعمال أسطوانة من الفلين ملفوفة داخل قماش خشن للغاية. بعد استحمامي، أكلت بعض اللقم من خبز مغموم في صلصة طبق من اللحم بالحامض. استلقيت على فراشي. غطتني أمي بغطاء دافئ. سرعان ما غرقت في الظلام، ظلام تملأه بنات صغيرات، مزعجات و غبيات بالإضافة إلى حلاقين ثرثرين.

جرني صوت أمي من أعماق النعاس. سبحت، لوقت طويل، في ضوء أحمر تجوبه شرارات و كواكب ضالة، ثم، فتحت عيني. أعدت إغلاقهما بسرعة، على أمل إيجاد الظلام مريحاً جداً و بارداً جداً. كان الصوت يصر:

- استيقظ، إنها الثالثة صباحاً. لقد جهزت لك صدارك الجميل، قميصك الجديد و حقيتك. لم ترى حقيبتك المطرزة بعد. افتح عينيك! فلتستيقظ إذن!

تباكين، فركت جفني بحيوية باستعمال قبضتي. حاولت العودة إلى النوم عدة مرات، لكن أمي كانت قاسية. بللت يدها و مررتها على وجهي. توقفت أذناي عن الأذيز. واربت رموشي بحزن. كان أبي لا يلبس جلباباً من الصوف الرفيع، يبتسم لي.

- استعد لتحتفل بعاشوراء في المسيد مع زملائك. تشجع! تشجع!
غسلت عيناي و أنا في حالة سير أثناء النوم، شطفت فمي، أنعشت أطرافي. استعدت وعيي عندما مررت أمي، على بشرتي مباشرة، قميصي الجديد، الذي كان يطفوئ من التجهيز. كان يحكني بشكل فظيع. عند كل حركة، كنت أملأ الغرفة بصوت ورق مدعوك.

ليست صداري الأحمر ذا الرسوم المعقدة و البارزة جداً. تقلدت بحقيبتي، أكملت هذا المجموع الأنثوي جداً بجلبابي الأبيض الذي كان يرقد في قاع صندوق أمي. كانت تفوح منه رائحة أزهار أشجار البرتقال و الورد المجفف.

ها أنا ذا أصبحت رجلاً آخر! كنت مستيقظاً كلياً. كنت أنطلع للذهاب للكتاب. الملابس، الأحذية، كان كل شيء جديداً. كنت أسبق أبي في الدرج و أنا مفعم بالكرامة و الثقة.

كان الضوء يلمع في كل نوافذ البيت. كان الرجال و النساء يبدأون السنة بالنشاط. أولئك الذين كانوا سيبقون في السرير في صباح مثل هذا، كانوا سيحسون خلال إثنى عشر شهراً بالتقاضس و الكسل.

كان صوت أحد المسؤولين يبلغنا من الشارع. كنت أسمع صوت عكاذه. لا بد من أنه كان شخصاً أعمى.

كنت أفقد بلغتي كل ثلاثة خطوات. «كان نوالدai عين كبيرة». لم تكن الملابس و لا الأحذية على مقاسى. لكنني كنت سعيداً.

ما إن وصلنا إلى الشارع، دس أبي في يدي قطعة نقدية من فئة خمس فرنكات و وضع بين يدي الشمعة الدينية التي قمنا بشرانها. كانت تلك هي هدايا السنة الجديدة خاصةً لمعلم الكتاب.

كان المارة الذين نلتقي بهم يبتسمون لي بتعاطف. كانت الدكاكين مفتوحة و الشوارع مضاءة. كنت أبذل مجهوداً رهيباً لأحافظ على بلغتي. لمحت من بعيد نوافذ عرش كتابنا.

كنت أفلت شمعتي الدينية من الحماسة. كانت عناقيد ضوئية تتدلى و تحول هذه الواجهة الحزينة و المغبرة عادة إلى زينة رائعة. كانت قناديل الزيت، المتعددة الألوان، تتلاأً و كان وجودها في حد ذاته عبارة عن جو نقى من الاحتفال و الفرح.

حثثت الخطى، كانت أصوات التلاميذ تبدو واضحة في برودة الصباح. كانت تتنافس في المرح مع عشرات الشعلات التي كانت ترقص داخل حمام من الزيت و الماء المصبوغ باللون قوس قزح. اشتد انطباع الاحتفال المذهل هذا عندما دفعت باب المسيد. لم أعد الأمير الوحيد بصدر الجوخ الأرجواني، أصبحت عضواً في اجتماع للأعيان الصغار، كلهم يرتدون ثياباً فاخرة، يتلون تحت إشراف ملك أسطوري أمداح بهجة و دعوات بركة.

تركتني أبي وسط رفاق دراستي. وضعت شمعتي الدينية التي وزنها رطل واحد بالإضافة إلى عملتي النقدية من فئة خمسة فرنكات بشكل جليل. تزاحم الأطفال ليدعوا إلى مكاناً.

كنت أجود الآيات القرآنية بخشوع؟ وصل تلميذ آخر. كانت كومة الشموع الدينية تكبر بجانب الفقيه. كانت الحرارة تصبح خانقة. كان رأسى مغطى بقلنسوة جلبابي. نزعته. كان قميصي يلتصق بجسمي. كانت وحوشات لا تحتمل تجوب ظهري. تغطت يداي و جبيني بلآلئ العرق. نزف أنف أحد التلاميذ و لطخ ملابسه الجميلة ب قطرات قرمzie. رفعت عيني إلى السقف. كانت الشعلات الصغيرة ترقص، تترز، تندف شراراة زرقاء أحياناً. سكتت لأسمعها ترثيل كلام الله مثلنا. كانت أصواتها تختلط بخاصة التلاميذ. كنت مفتتعاً بأنه لم تكن أي واحدة منها تحتفل بعاشوراء صامدة داخل قفصها الزجاجي، لا مبالغة بموجات السعادة التي كانت تنتشر على وجوهاً.

هذا الصباح، ضمت الأشياء العادية جداً و الكائنات الأكثر حرماناً أصواتها إلى خاصتنا، كانت تشعر بنفس الورع، تصبح بنفس شدتنا بكبر و رحمة الله، خالق جميع الكائنات الحية.

بعد تلاوة القرآن، غنينا أمداها. كان آباء بعض التلاميذ يتزمنون معنا. كانوا قد جاءوا ليرافقوا أطفالهم. ربما لم يكن لديهم عمل ينتظرون: كانوا يحتفلون بعاشوراء في المسيد كما في أيام طفولتهم.

كان لون اللعبات يصبح أصفراء، يضعف مع اقتراب النهار. في الشارع، كانت حركة المرور قد أصبحت كثيفة. رفرف دوريان حول الثريات المعلقة على عرش النوافذ.

نطق المعلم بأدعية طويلة بعينين نحو السقف و فاتها يديه كمن يقدم شيئاً.

طلب من الله أن يحمي أعمال الأمة الإسلامية و يزيد من ازدهارها، أن ينشر نعمه على الأحياء والأموات، أن يقوى روابط التضامن بين الناس، و أن يجعل النظام، العدالة و التعاطف تسود على هذه الأرض.

آمين! آمين!

كانت أول مرة أرى فيها الفقيه بدون عصا السفرجل. بدا لي وسيماً، ملفوفاً بجلبابه ذي الخطوط البيضاء و السوداء، كان يلبس سلهاماً من جوخ رمادي على كتفيه. أعطانا ثلاثة أيام عطلة. نظراً لأن يوم الدخول كان يوم خميس كانت العطلة ستة أيام. قبلت يد الفقيه قبل العودة إلى منزلنا. كلفني بتلبيغ متنمياته لوالدي بمناسبة السنة الجديدة و نطق ببعض الأدعية لصالحهما.

كانت الحركة تدب في الشارع كثيراً الآن. كان كل المارة يرتدون ملابس جديدة تقريباً. كان البعض يعودون من السوق محملين بسلال من الحلفاء التي كانوا يحملونها بعزلة لكي لا يوشوا مظاهرهم الأنثقة، كان آخرون يتجلبون بدون هدف. كانت أمي قد أخرجت منصورية جميلة من الفوال الناعم، مزينة بخطوط من الساتان الأصفر. كانت قد غطت شعرها بمنديل أسود ينتهي بأهداب طويلة متعددة الألوان.

كان المرجل ينز. كان والدائي ينتظران عودتي للغداء.

كانت أمي قد حضرت كومة من الحلوي من العجين المورق، على شكل مربعات. كانت تدهنها بالزبدة الطرية و العسل. كانت شهية. شربت كأسين كبيرين من الشاي بالنعناع.

أثناء الطعام، وضع والدائي برنامجاً للنهار. صباحاً، اقترح أبي أن يصطحبني إلى مولاي إدريس، ولـي المدينة. بعد صلاة الجمعة، كنا سنعود للغداء. بعد الزوال، كنت سأرافق أمي إلى منزل صديقتها لالة

عيشة؟ كنت سأستطيع أن أخذ معي أحد بوقى؛ كان طبل الفخار الهش
معروضاً للتكسر أثناء الطريق.

كان لحسن طالعى رأى آخر. بعد أن تسكت مع أبي في الشوارع التي
تعج بالمارأة، بعد شراء طبق من الخزف الأزرق في ساحة كتاب العدل
التي كان يانعو الفخار يعرضون منتجاتهم فيها اليوم، دخلنا إلى مزار
مولاي إدريس. قمنا هناك بطقوس صلاة الولي وذهبنا للغداء.

جاءت لالة عيشة لتفاجئنا عند نهاية الطعام. عبرت أمي عن فرح كبير
لرؤيتها من جديد. أغدق المرايات على بعضهما قبلات حارة، عبارات
احترام و كلمات طيبة. تركهما أبي لاسهابهما، اختفى.

كانت لدي رغبة شديدة في الضرب على الطبل، إطلاق بعض أصوات
الصفير من بوقى لكنني كنت أعلم بأن أمي لن تسمح بمثل هذه النزوات.
امتنعت عن ذلك. كنت أنتظر المساء لاستسلام للمusic الروح و جسدا.
بقيت في ركن أسمع كلام زائرتنا. لمحت منذ وصولها إلى أن في جعبتها
الكثير لتحكيمه. كانت أمي متفرغة كلية و ترتعش من الفضول. لم تنسى،
رغم كل شيء، القيام بواجبها كمضيفة. نفخت على الجمر، أضافت قدحا
من الماء إلى المرجل، شطفت الكؤوس. فتحت علبة من التنك و أخرجت
منها ستة قطع من حلوي السميد.

- أصرت أمي : لالة عيشة، اجلسى على الأريكة الكبيرة؛ سيكون الشاي
جاهاً عما قريب. لا! لا! قلت على الأريكة الكبيرة، في مركز الشرف!
أرجوك، اجلسى براحة.

ارتمت لالة عيشة بين الوساند، تنهدت من الرضى و بدأت قصتها، في
الواقع، لم تكن قصة حقيقة، لكن سلسلة أحداث موصولة ببعضها البعض.
أحياناً، كانت الواقع تصبح معقدة جداً لدرجة أن لالة عيشة نفسها كانت
تنسى إلى أي حد وصلت. في تلك اللحظات، كان وجهها يرتبك، كان ما
يشبه الخوف يقلص ملامحها، كانت عيناهما تفضحان قلقاً عميقاً، لكن
سرعان ما تأتي ابتسامة عريضة لتبدد العاصفة و تستأنف لالة عيشة
مونولوجها.

كانت أمي تتلقى نفس الآلام، تتحدى نفس الأفراح، تحس بنفس انفعالات
صديقتها. كانت تفتح فمها أحياناً كما لو كانت ستساعدها لكن لعدم إيجادها
الكلمة اللازمة، كانت تصمت.

كانت بعض المقاطع من شريط النوادر التافهة هذا تملأني بالسرور.
حكت لالة عيشة بأنه في المنزل المجاور لخايتها كان لجميع النساء،
بمصادفة غريبة، اسم خديجة.
للتمييز بينهن، كانت تحدد مهنة الزوج: خديجة، زوجة البقال، خديجة،
زوجة الخياط، خديجة، زوجة بائع الزيت.
أضافت لالة عيشة:

- كان سيكون من الأسهل مناداتهن بخديجة الصماء، خديجة الحولاء،
خديجة السوداء، كان الجميع سيعرف بمن يتعلق الأمر.
ضحكنا من أعمق قلباً على هذه الدعاية. غابت أمي للحظات. عادت و
معها باقة من القصعين والأفستانين. شرعت في تحضير شايها الخاص
بالأيام العظيمة. بينما كانت تصب الماء الفوار في إبريق الشاي سالت لالة
عيشة.

- كيف حال زوجك؟ حديثي عن أعماله هل لديه شريك جديد؟ هل يعمل
لوحدة؟

- ليس له شريك، لكنه لا يعمل لوحدة. إنه يوظف ثلاثة عمال. تباع
البلغات جيداً ولا أستطيع التذمر. وعدني بأن يشتري لي، عند بداية فصل
الشتاء، قططاً من جوخ مشمشي، شيء كنت أتمناه منذ وقت طويل.

- الحمد لله! تنتهي الصعوبات دائماً بالتيسير وتقع المأسى في طي
النسيان.

- قالت لالة عيشة وهي تنتهد: أجل!
انتظرت أمي تفسيرات جديدة لكن صديقتها سكتت بشكل مفاجئ. ألقفها
الأمر.

- فيم تفكرين، يا لالة عيشة؟ تبدين حزينة. أتمنى بأن يكون كل شيء على
ما يرام في أسرتك.

تنهدت لالة عيشة دون قول شيء. سكتت أمي قعر كأس من الشاي،
تدوّقته. بدت راضية. خدمت ضيفتها وخدمتني.

تكلمت لالة عيشة أخيراً. انحنىت على أمي وهمست لها بصوت خافت:
- نحن حقاً مخلوقات ضعيفة، نحن النساء. إن الله وحده هو معيننا و
وكيلنا. لا يجب أن نثق بالرجال. إنهم... إنهم...

لم تجد لالة عيشة النعـت المناسب، اكتفت بتحريك يديها عند ارتفاع كتفيها ورفع عينيها إلى السماء.

سمحت لي أمي بالذهاب إلى السطح لألعاب بالطبل. فهمت بأن المرأتين كانتا تملكان أسرارا لتخبرا بعضهما بها و كانتا تخشيان أذني الفضوليتين. فرحت بالمصادفة السعيدة. صعدت إلى السطح. وحيدا في هذا العالم الواسع، كنت أستسلم لفرح الإيقاع. كنت أخترع الألحان الأكثر بربرية. كنت أضرب على كل الوجهين الجلديين « لدربوكتي المزدوجة » الفخارية، بعصا غاضبة. كانت الجدران تضاعف الأصوات. خلال هذا الوقت، كانت أمي و لالة عيشة، تتحنى الواحدة منها على الأخرى، تثثران، تثثران، تثثران!...

في المساء، كانت مجموعات من النساء بملابس فاخرة تزين السطوح. كانت « الطعارض » ترن، كانت الغناءات تنهمر من كل مكان. كانت الشمس ما تزال في الأفق بلونها الأصفر، تغطي كل المدينة بلون وردي فاتح و خبازي لطيف. أومضت أول نجمة. قبلت لالة عيشة أمي و رحلت. أشعل قنديل الزيت. كنا بدون مرح. كان طبلي و بوقي موضوعين على أحد التخوت. كنت قد تقررت منها. استعدت ملابسي القديمة بسرور. من بين ملابسي الجديدة، لم أحافظ إلا بالقميص؛ بفضل حرارة جسمي، كان ثوبه قد أصبحلينا.

لأهرب من صوت الطبول الذي كان ما يزال يدوي تحت جمجمتي، ففتحت علبة العجائب خاصتي، للأسف! لم تعد عيناي تقويان على النظر.

الفصل 8

بعد مرور أيام مرح عاشوراء، عادت الحياة إلى مجريها الطبيعي، أي عادت إلى تجهمها، استعادت رتابتها. بدأت الحرارة تشتت. غزت أسراب من الذباب البيت، ملأته بأزيزها، زينته ببرازها. حضر البق الذي كان يغفو في المنجور القديم. كان بقا مسكيناً ومتعباً من صيام وبرد الشتاء. كان ذا لونبني مغرب و هزيلاً للغاية، كما لو كان قد أفرغ من دمه.

عندما جلسنا في هذه الغرفة، كانت قبيلتهم تتمتع بازدهار كبير. أعلنت أمي حرباً شاملة عليهم. استعملت كل الوسائل للتخلص منهم. استعملت أساليب عنيفة: جير حي، كبريت، زيت، قامت بعمارات أكثر مكراً، تعويذات، مساحيق متعددة اشتريتها من عند صانع معجزات، أدعية. تمكنت ببعض عائلات فقط من الإفلات من المجزرة. كانت أعضاؤها المنحلة تحافظ على وجود أليم على طول روافد وعوارض سقفنا. توقفوا عن التكاثر وعندما كان أحدهم يغامر سهوا بعيداً عن المرتفعات، كان يعلم بأنه لاأمل في نجاته. إن المجيء إلى متناول أصابع الإنسان كان طريقة للانتحار، طريقة مثل أخرى لإنهاء الأمر، للهروب بأسرع ما يمكن من هذا العالم وهذه الملائكة.

إلا أن الذباب كان يزداد من يوم لآخر. كل صباح، كانت أمي تطردهم بضربات عديدة من الفوطة. كانوا يخرجون من النافذة بأزيز من الغضب. ببسط الستارة، كنا في مأمن من هذه الدويبات المنغصنة. كان بعضها الأكثر مكراً يتبع القيام بجولات في ظليل الغرفة.

منذ اليوم الأول من الحرارة، خلعت أمي حصیر الأسل، لفته وخبأته خلف السرير. كانت الأفرشة موضوعة مباشرة على الأرض التي تم غسلها بالكثير من الماء.

أصبحت الأنهر طويلة، تم هجر قاعة المسيد نظراً لكونها حارة جداً وضيقة جداً. نقلنا ألواحنا ومحبراتنا ذات صباح وجهزنا الكتاب في مزار يقع على بعد خطوات. كان هذا الضريح يؤوي قبر ولبي. كان سكان الحي يجهلون اسمه لكن الشابات اللواتي كن يرغبن في الزواج كن يأتين يوم الخميس ويقمن بالدوران سبع مرات حول القبر. كان هناك أشخاص آخرون مدفونون في هذه القاعة الكبيرة ذات برودة الجنة.

كانت مشكاة في أحد الزوايا تحدد اتجاه الشرق، منذ اليوم الأول، عند نداء المؤذن، أمرنا **الفقيه** بالصمت. أرسلنا لتنوضا في النافورة الصغيرة الدائرية التي كانت تخر في إحدى الزوايا. سغارا و كبارا، مصطفين خلف معلمها، قمنا باتزان بواجب كل مسلم صالح: الصلاة المفروضة. تكررت هذه الطقوس مرتين في اليوم، طوال فصل الصيف.

كان لتغيير الديكور، النور الخافت الذي كان يسقط من الفتحات الجانبية و نوع من التعاطف على وجه **الفقيه** أثر جيد جدا على صحتي، المادية و المعنوية. بدأت أحباب الكتاب، قامت ذاكرتي بمعجزات. انتقلت من عشرة

سطور على لوحى إلى خمسة عشر. لم أجده صعوبة في حفظها.

في يوم من أيام الجمعة، حكى أبي، مفعما بالفخر، لأمي الحديث الذي دار بينه وبين معلمي الذي التقى به في الشارع في اليوم السابق. كان **الفقيه** قد أكد له بأنني، إذا تابعت العمل بهذا الاجتهاد و الحماسة، سأصبح يوما ما عالما يمكنه أن يكون فخورا جدا به.

صحيح بأن ذلك لم يكن الهدف الذي كنت أسعى إليه. كانت كلمة عالم تذكرني بصورة رجل بدين بوجه عريض جدا تعمه اللحية، بملابس فضفاضة و بيضاء، بعمامة ضخمة. لم تكون لدى أدنى رغبة في أن أشبه مثل هذا الرجل.

كنت أحفظ درسي كل يوم لأنه كان يبدو لي بأن ذلك يجعل والدي يحباني أكثر و بالخصوص لأن ذلك كان يجنبني لقاء عصا السفرجل الواخزة. كنت قد وضعت لنفسي برنامجا ملبيسا: حتى الغداء، كنت أحفظ الآيات المرسومة على لوحى بورع، بعد الزوال، كنت أمنح نفسي ساعتين كاملتين من النوم، بينما أتظاهر بتجويد الكلمات المقنسة.

كنت أدين بكل مرحي لهذه الاستراحة. كانت روحي تهرب من حدود الكتاب الضيقة و تذهب ل تستكشف عالما آخر، لم تكن معرضة لآية إكراهات هناك. في ذلك العالم، لم أكن دائما أميرا صغيرا تطيعه الكائنات و الأشياء، كنت أحيانا أصبح رجلا، الرجل الذي كنت أرغب في أن أتحول إليه فيما بعد. كنت أرى نفسي بسيطا و قويا، ألبس ملابس من الصوف الحريري، بعينين مليئتين باللهم و قلب يفيض حنانا.

في الليل، تحت غطائي، كنت أستأنف نفس المنام. كنت أبني و أعيد بناء حياتي بمعماراتها المتعددة، لقاءاتها، حركاتها اللامعة، عوائقها الحتمية،

حتى اللحظة التي تأتى فيها بقى سوداء عملاقة لتفريق العناصر المكيفة
بأنه و إحداث الفوضى في هذا العالم الذي بدأ ولادته للتو. كان كل شيء
يتباعد. في ظلام الليل، كانت أجزاء عالمي المشتتة تظهر من حين لآخر،
كمالاً لو كانت الدوامة قد حملتها. كنت أعود لأشغالي في الصباح.

كان يوم إثنين، عندما غير أبي من عاداته و جاء للغداء في البيت. شرح لنا
بأن جلابيب الصوف كانت أقل رواجاً من فصل الشتاء و بأنه كان ينوي
البدء بإنتاج حواياك القطن.

كانت هذه الأقمشة تلقى نفس الإقبال دائمًا. صيفاً و شتاءً، لا تستطيع نساء
فاس الخروج إلا ملفوفات بهذه القطع البيضاء.

- أنا أنوي اليوم أن أصطحب كليكما إلى سوق المجوهرات.

- منذ مدة و أنت تطلبتن مني تلك الأسورة المسممة شمس و قمر (ذهب
و فضة). حان الوقت لأهديها لك. من جهة أخرى، لقد فقد عاملني والدته
التي تعيش في الباشية. لقد ذهب لحضور مراسم الدفن؛ سيعود في الغد و
ستتابع العمل.

سألت أمي:

- هل ماتت بمرض ما؟

- قال أبي: أظن بأنها ماتت بالخصوص لكبرها في السن، لكن لا يهم،
فليرحمها الله!

- اعترضت: لكنني لا أستطيع التغيب عن المسيد لمرافقكم إلى سوق
المجوهرات، لدى درسي لاحظه.

- أجاب أبي: لا تشغل بالك. لقد قابلت الفقيه في طريقي و أعلمه بغيابك.
أنت تعمل جيداً، سيكون نصف اليوم من الراحة هذا مكافحة مستحقة لك.
لكن ربما كنت لا تريد رؤية مجوهرات جميلة و إجراء المزاد؟

- أوه بلـى! إن المجوهرات جميلة، جميلة مثل...

لم أجزئ على إكمال تشبّهي. شجعني أبي:

- جميلة مثل ماذا؟

أخفضت نظري و، بصوت خافت، قلت بخجل:

- إن المجوهرات جميلة مثل الأزهار.

قهقهة أبي و أمي. بدت لي ردة فعلهما غير مناسبة. تسرب شك إلى نفسي
حول مستوى ذكائهما.

بعد الغداء، ذهبت لأجلس في الدرج بانتظار وقت مزاد المجوهرات. مقرضاً على إحدى الدرجات، واضعاً يدي على ركبتي، فكرت بعمق في حديث الغداء. مقارنة مجوهرات بأزهار، أكان هذا دليلاً على البلادة؟ كانت ضحكات والدي تعبّر عن التساهل الذي يبديه الأشخاص الكبار مع الأطفال الذين يقولون لهم كلاماً فارغاً وصبيانياً. كنت أحس بأن تشبيهي كان يعبر عن فكرة مهمة. كان من الواجب استقبالها بالصمت. كان الضحك في ظرف مماثل يعتبر فظاظة.

كنت أعرف بعض الأزهار: الأذريون و الخشاش التي تتفتح في فصل الربيع على القبور، الأقحوان البدين الذي يهب للشمس قلوبه الذهبية، اللبلاب الذي يعتدل تحت أقدامنا عندما كان أبي يأخذني إلى تلال باب كيسة في نهار جميل.

على سطح بيتنا، كانت إبرة الراعي، القرنفل و ورود الأصفهان تنبت في قطع من الفخار.

كانت معرفتي بالمجوهرات محدودة. إلا أنني رأيت بادخة منها في الحفلات على النساء و الفتيات. كنت أصنفها إلى فئتين: مجوهرات كل الأيام من الفضة الرمادية الزرقاء التي كانت تقتنني و مجوهرات الحفلات البراقة بالحجيرات الكريمة. كانت هذه الأخيرة، المطرقة بأيدي العباقة في قصور موجودة تحت الأرض، ما تزال تحافظ، داخل تألقها و لون الشمس خاصتها، بنكري النيران التي أذابت مادتها. بالنسبة لي، كانت كل مجوهرات الحفلات هذه قادمة من الكنوز الدفينة، كانت تخص أميرات أحلام نسيت ذكرًا هم منذ زمن بعيد. كان من اللازم أن يكون المرء ساذجاً أو صبيانياً ليصدق بأن هندسة الذهب الدقيقة هذه كانت من عمل صانع تقليدي مجتهد، مستعجل لإتمامها من أجل مقايضتها مقابل عملة مقينة. كانت هذه الحلي السحرية تخلق من العدم بقوّة الحب. كانت تأتي لتوضع على الشعر أو البدن الناعم لأميرات الأسطورة. كانت مجوهرات أخرى تخلق من العدم كذلك تحت خطوات هذه الأميرات نفسها إلا أنها كانت مصنوعة من مادة هشة. هكذا كانت تزهر حقول من الخشاش، يشرق الحوذان و الأذريون، ينشر البنفسج و السوسن عطرهما.

في سن السادسة، لم أكن أستطيع أن أعبر عن آراء مشابهة عن المجوهرات و الأزهار، لم يكن أي نظام قد علمني بعد كيف أنظم أفكاري

بشكل منهجي. كان معجمي ما يزال قليلاً لكي أجدد ما يعج به ذهني بشكل مشوش. كان، على ما أظن، هذا العجز عن مشاركة الآخرين باكتشافاتي هو من ولد في كابة مؤلمة. كنت أسامح الأشخاص الكبار على توبتي، على الحاجة إلى ضربي لارتكابي لحمافة ما، لكنني كنت أخذ عليهم حقاً شديداً لعدم محاولتهم فهمي.

بالنسبة لأمي، كنت ولداً ممتازاً إن كنت أغسل قدمي قبل الدخول إلى الغرفة؛ بالنسبة لأبي، كنت محظوظاً إن كنت أفلد حركاته يوم الجمعة لاداء الصلاة المفروضة؛ بالنسبة للجيران، كنت طفلاً مثالياً إن لم أرسم جرافيتي على جدران الدرج وإن لم أحذث ضجة عند لعبي في السطح. كنت لأصبح وحشاً من البلادة لو حاولت إطلاعهم على أسرار عالمي الخاص. كنت قد تعلمت على نحو غريزي الحيل التي يجب استعمالها للعيش بسلام مع كل هؤلاء الرجال وكل هؤلاء النساء الذين يتکرون ويفيضون بتعاليهم.

مقرضاً على إحدى الدرجات، واضعاً يدي على ركبتي، كنت أردد بدون كلل: «المجوهرات جميلة مثل الأزهار». في البسطة، كانت أمي وفاطمة بزيوية تتهامسان منذ ربع ساعة. من حين لآخر، كان صوت أمي يرتفع بنبرة غاضبة لطرد قط زينب الذي كان يتسلك حولها.

- كانت تقول له: إرحل، أيها الأجرب، الوسخ مثل جرذ المجاري، إذهب لتتزه قرادي في مكان آخر.

كانت الهمسات تستأنف. ضحكة مكتومة، بعض التنهادات المليئة بالنفاق، واتجهت كل واحدة من النساء إلى شققها. مر أبي بجانبي:

- قال لي: تابع اللعب، سأعود بعد صلاة العصر لاصطحابك أنت وأمك.

- صاحت أمي بصوت عالٍ: مازاً تفعل عند الدرج؟
أجبتها بصوت منافق:
-

ألعاب.

- كرر الصوت: مازاً تلعب؟

- ألعاب الملك.

- قالت أمي وهي تشهد جميع من في المنزل: أنا أتساءل ما الذي يمكن أن يفعله ملك عند الدرج وهو مقرضاً على إحدى الدرجات!

بدأت الجارات بالضحك.

ووجدت زوجة صانع المحاريث أن من الظريف إضافة:

- لالة زبيدة، سيكون لا بنك مستقبل باهر، إنه يظن نفسه ملكاً منذ الآن!
بقيت جملتها التي تعلوها بعض الوقاحة بدون رد.

سرحت بتفكيري مجدداً. و إن كنت أريد أن أصير ملكاً! ماذا يمكن لزوجة
صانع محاريث أن تفهم في الأمراء والملوك؟ فلتكتفي بتقšíر حضرها،
دق توابلها، النحيب على ثمن الزيت والفحm الذي ارتفع ثمنه بفلس!

لم تكن لديها روح أميرة إطلاقاً، لم يسبق لها أن حلمت بنافورة داخل
حوض من الرخام! لم تقم في حياتها بأدنى مقاربة بين جمال المجوهرات
و الخاص بالأزهار. كانت تلبس دائماً في إصبعها الصغير خاتماً شريراً
من النحاس مزين بحجر زجاجي. في أيام الحفلات، كانت تعلق على
صدرها، في عروة تونيكها، يداً من الفضة بنقوش خشنة. هذا المساء،
ستلبس أمري في رسغيها سواري شمس و قمر. ستكون رحمة شاحبة من

الغيرة. طوال أيام عديدة، سأسمعها تقول بدون مرح:

- لست محظوظة، لقد تزوجت صانع محاريث مسكين؛ إنه بالكاد يستطيع
إهدائي حبلاً لأسحب به الماء من البئر. آه! لم يحسن الله الفصل بين الناس.
أعطى لهذه المعاناة و البوس، و للأخريات الازدهار، الطعام الجيد،
المجوهرات الذهبية و الفضية. يا إلهي! متى سينتهي عذابي؟
ستجيئها أمري بلياقة بالغة:

- أختي، فيما ينفع التذمر و لوم القدر؟ إن الله عادل، يعطي لكل واحد
حسب نيته.

- ستقول جميع الجارات: لا إله إلا الله!
بالطبع، لا إله إلا الله! سمعت المؤذن يعلنها.

- هل هذا آذان العصر، يا أمري؟

- أجل، سيعود أبوك عما قريب. خذ، ستغير جلباك للخروج، إن الذي
تلبسه مليء بالبقع.

كانت مكنسة الدوم الصغيرة تصر في غرفة فاطمة بزيوية، توقفت بشكل
مفاجئ. اجتازت جارتـا البسطة بخطوات خفية، أدخلـت رأسها في غرفـتنا
و سـألـت بصـوت خـافت.

- هل يجب أن أـستـعد أـيـضاً؟

لا بد من أن أمي قامت بإشارة إيجابية. أسرعت فاطمة إلى غرفتها. صفق غطاء صندوق.

في الطابق الأرضي، نطق صوت أبي الجملة المعتادة:

- لا يوجد أحد؟ هل أستطيع الدخول؟

أجابته لالة كنزة من آخر معبدتها الأسود المليء بدخان البخور:

- أدخل، معلم عبد السلام.

سمع وقع خطواته في الدرج. تركت درجتي وذهبت لأغير ملابسي.

كان سوق المجوهرات يشبه مدخل قرية النمل. كان هناك تدافع، كان الجميع منهمكين في كل الاتجاهات. لم يكن يبدو بأن هناك من يتوجه إلى هدف محدد. كانت أمي و فاطمة بزيوية تتبعاننا، أنا و أبي، بخطوات بطيئة، ملفوفتين بإحكام داخل حايكيهما الأبيضين.

كانتا تتحدىان بصوت خافت عن من الأفضل. كانت الدكاكين المرتفعة تعرض أمام عيننا بريق مجوهرات الفضة الجديدة التي كانت تبدو مقطعة في تلك سوقي، تيجان و أحزمة ذهبية ذات عمل متغطرس جداً كان يفقدها كل نبلها، لم تكن هذه المجوهرات تشبه الأزهار على الإطلاق. لم يكن يكسوها أي غموض. كانت أيد بشريّة قد صنعتها بدون حب لإرضاء غرور الأغنياء. كانوا على حق، كل هؤلاء الحانوتين، ببيعها بالوزن، مثل التوابل. كان هذا يشعرني بالغثيان. كان العديد من الزبائن ينتقلون من دكان إلى آخر. كانت أعينهم تلمع من الشراهة و الطمع. كانت هناك شخصيات أخرى، رجال و نساء، متجمعون هنا و هناك، يكتبون دمو عليهم. فيما بعد، فهمت المعنى الكامل لكتابتهم. لقد أحسست بنفسي بهذا الإذلال الذي يخلقه المجرء لإعطاء جشع الرجال اللامبالي ما كانا نعتبره من أعز أملاكنا. مجوهرات ارتبطت بها نكريات، حل حفلات كانت تشاركتنا جميع أفرادنا تصبح في سوق مثل هذا أشياء تافهة توزن، تشتت، تدار و تقلب بين الأصابع ليدفع نصف ثمنها الحقيقي في الأخير.

ما إن وصلنا، جاء سمسارة أو دللون ليقتربوا علينا عدة سلع. كان أبي بالكاد ينظر إليها. يرفضها بتحريك رأسه. كانت المرأة تنهان مسان خلفنا و هما تستندان إلى الجدار. بدا لي الوقت بطينا جداً قبل أن ينتهي أبي

بأخذ، من يدي شيطان كبير بعينين منتشرتين كان ينادي بأعلى صوته بأي رقم كان، زوج أساور تملأ الأحجار الهرمية، أحدها ذهبي و الآخر فضي. أعطاها لأمي التي عاينتها بإمعان، جربتها أربع أو خمس مرات، رجت فاطمة بزليوية أن تضعها على رسغيها لترى مظهرها. ناقشت كل تفصيل لمدة ربع ساعة. ثم أعادتها أمي لأبي دون تفسير. كان السمسار يتابع آليا تكراره للرقم الذي يمثل ثمن هذه البضاعة. مد له أبي المجوهرات، قام بإشارة إيجابية. تغير الرقم و غاص الشيطان الكبير السمسار بين الحشد. كانت يده فقط هي التي تظهر و هي تتحرك فوق الرؤوس ممسكة بالسوارين ثم انتهت بالاختفاء.

انتظرنا طويلا. كان التعب يشل ساقي، كان رأسي يدور، كنت أثاءب حتى أكاد أقتلع فكي.

بدأ أبي بإبداء علامات نفاذ الصبر. ظهر السمسار. كان الثمن قد ارتفع. بإشارة إيجابية جديدة من أبي، تغير الثمن. ذاب السمسار وسط صخب و دوامة الناس.

كان السوق في أوجه. كان السمسارة يبحون، يصيحون بأعلى صوتهم بأرقام كنا نجد صعوبة في فهمها، يجررون من اتجاه إلى آخر، يمسكون بيد أحد الزبائن و يجرونه خلفهم بحماسة. كانت نقاشات تسمع هنا و هناك. بالكاد كان شجار يتوقف فيEDA آخر في مكان أبعد.

أحيانا، كانت موجة من الرجال الهادرين و النساء الهستيريات تغمرنا، تسوينا تجاه الحائط ثم تذهب لتكسر على ضفة مجهلة.

لم أعد أتحمل التعب. قام أبي الذي لاحظ ذلك برفعي بين ذراعيه و أبقاني مضموما إلى صدره. كان جبينه يسيل بالعرق. بدأت أمي بلعن الدلال و هي مغناطة. بالتزرع إلى جميع الأولياء الذين كانت تعرفهم لكي يفرضوا عليه العقوبة التي يستحق. كان التصرف بهذه الطريقة مع الناس الشرفاء أمرا مخزيا! ما الذي يحاول صنعه خلال كل هذا الغياب؟ هل يحسبنا قرويين جهله؟ سوف نكتشف الحقيقة. ستدفع الثمن المنصف و لن نخدع من طرف هذا الجاحد. لكن الجاحد كان ما يزال غائبا.

فجأة، وضعني أبي أرضا و احتفى بين الحشد. طال غيابه. ارتفعت أصوات في الطرف الآخر من السوق. طغت على الجلبة، هبت مثل العاصفة. حركت أمواج كبيرة هذا البحر البشري. كانت انفجارات من

الغضب تتهمر هنا و هناك، تمشي بضع خطوات أبعد من ذلك، تتحول إلى صخب.

و بدأ ناس السوق بالجري؛ كانت فاطمة بزيوية وأمي تكرر ان « الله! الله! الله! »، تشتكيان بصوت مرتفع من آلام أقدامهما التي كان الحشد يدوس عليها، تحاولان الإمساك بحاياكهما اللذين يجرفهما التيار.

في الأخير، مر أبي و السمسار و هما يمسكان بخناق بعضهما البعض. كان السوق يشكل جمهوراً لهم. كانت عيون الرجلين حمراء و كانت هناك رغوة عند طرف شفاههما. كان أبي قد فقد علمنته و كان للدلل بقعة دم على خده.

رحلة و المتسكعون يتبعونهم.

بدأت أنا و أمي و الجارة بالبكاء بضجيج. أسر عنا باللحادق بهما عشوائياً. وصلنا إلى سوق الفواكه الجافة. لم يكن هناك أي أثر لا للخصمين ولا لموكبهما. كنت أتوقع أن أرى شوارع خالية، بضائع متخلّى عنها، عمامات و بلغات ضائعة خلال الذعر العام. خاب أملّي. لم يكن أي أثر للشجار قد ترك بصماته في هذا المكان. كان يباع و يشتري، يتسلّى و كان بعض الفتيان الأشقياء يبالغون بلامبالاتهم إلى حد غناء لازمات رانجة. أصبح حزناً خانقاً في خضم هذا الجو. كنا نحس بكمال عزلتنا. قررت أمي العودة إلى البيت.

- أضافت: لا جدوى من الجري في جميع الاتجاهات. لنعد لانتظار و البكاء.

في البيت، بمجرد دخولنا إلى غرفتنا، تخلصت أمي من حايّكتها، جلست على فراش، بكت بصمت و هي تضع رأسها بين يديها لأول مرة، كان بكاؤها يؤثّر فيي. لم يكن ذلك يشبه إطلاقاً صيحاتها المرتفعة و نوبات أنيتها التي كانت تتکبّ عليها أحياناً لتريح قلبها. كانت دموعها تسيل على ذقنهما، تتبسط على صدرها، لكنها كانت تبقى هناك، دون حراك، متأثرة بوحنتها.

بكّيت، أنا كذلك، للحظة، معكراً الصمت بشخير مدو، ثم تمددت على السرير و انتظرت بعينين نحو السقف. لم أكن أعرف ماذا كنت أنتظر بالضبط. لابد من أن كارثة السوق كانت لها نهاية ما. عندما تحدثت أمي عن الانتظار، لا بد من أنها كانت تعني ذلك حقاً. بدأنا نحن الإنسان بتنفيذ

برنامجاً: كانت أمي تبكي و أنا أنتظر. لقد كنت خبيراً في هذا المجال منذ زمن طويلاً.

حل الظلام. كانت الأضواء تلمع في كل نوافذ المنزل. بقيت غرفتنا مظلمة. في الظليل، كانت تتشكل وجوه بشعة أمام عيني، تتبدل، تتحول، تترك المكان لشرارات خضراء عملاقة، تعود لتلامس جفوني بفواليتها البنية.

في الأخير، ثقب صوت أبي الظلمات. جلست. كانت أمي، والألم يمزقها، ما تزال تطلق تنهات مكتومة. كانت الدرجات ترن أكثر فأكثر بشكل أوضح تحت خطوات أبي. فتح باب الغرفة، بدأ خياله الأسود الغامق بلون رمادي على الجدار.

- قال: لماذا لم تشعل القنديل؟ أين أعود التقاب؟

أجابت أمي بصوت بنت صغيرة:

- إنها على الرف، قبلة علبة الشاي التنكية.

سأل أبي:

- هل نام سي محمد؟

- لا يا أبي، أنا لست نائماً.

أشعل عود تقاب، رفع زجاج القنديل.

- استأنف: ما الذي كنت تفعله إذن في الظلام؟

- كنت أنتظر عودتك.

بعد إشعال القنديل، رفعت أمي رأسها. كان وجهها ما يزال مبللاً بالدموع. انتبه أبي إلى الأمر.

- لماذا كل هذه الدموع؟ لا نملك والحمد لله أي سبب للحزن. لقد اضطررت لترككما لوحديما لأؤدب هذا الكافر الذي كان يحاول أن يدبر لنا بعض المقالب على طريقته. لقد عاد كل شيء إلى طبيعته الآن و هنا هما السواران.

وضع السوارين على الفراش بجوار أمي.

- قالت أمي: لا أريد رؤية هذه الحلبي المشؤومة. أظن بأنني لن أبسها أبداً. أظن بأنه بسببها دخل الشوّم إلى هذا المنزل، من الأفضل أن تذهب لبيعها منذ الغد.

- إنهم بالفعل السواران اللذان كنت تريدينهما، خذيهما و لا تقولي كلاما فارغا.

نهضت أمي، أخذت المجوهرات دون النظر إليها، فتحت صندوقها و رمتها بداخله بغضب.

- سوف ترى: إن ما أقوله لك هو الحقيقة. ربما لست ذكية، لست سوى امرأة ضعيفة، لكن قلبي لا يكذب عندما يخبرني عن شخص أو شيء ما. لا يشعرني هذان السواران بأية فرحة. سأحضر العشاء الآن.

لقد أكلنا بالكاد من هذا العشاء المرتجل. ذهبنا إلى النوم. سأذكر دائمًا هذه الليلة المليئة بالكوابيس. لا زلت أرى مشاهد العنف و الدم، أعاود رؤية الوحش، العيون المشتعلة بالحقد التي كانت تلاحظنا، أنا، أمي و أبي. كانت جموع من الرجال قبيحي الوجه تتبعنا عبر المدينة لتجربنا من ثرواتنا. كانوا يهددون بالأخص على علبة العجائب خاصتي. ظهر أبي على حسان أسود. كان يحمل علبتني تحت ذراعه. شق الحشد بالعدو. حاولت أياديه إيقافه. جعل الحصان يسرع. كان عرف الحصان الطويل يرفرف مثل علم. وجدت نفسي أنا و أمي بشكل مفاجئ في ضياعة مقرفة. كانت أمي تبكي بصمت. كان ضوء الصيف يغمر مساحات الرمل و الحجارة. ظهر خيل أبي على إحدى التلال. كان ينتظرنـا. كان بدون حسان. كان ما يزال يحمل علبة العجائب خاصتي تحت ذراعه.

- قال لنا: لقد أنقذتها وأضافت و هو يخاطبني: إنها لك، افتحها إذن. وضعتها على الأرض الجرداء و فتحتها بذر. بهرت عيناي: على أرضية من الأزهار المقطوفة حديثاً (قرنفل و ورود) كانت توجد مجوهرات ذهبية تعلوها أحجار كريمة كما لو كانت داخل علبة مجوهرات. لم يسبق لي أن رأيت شيئاً بهذا الجمال، رفعت رأسي لأقول لوالدي: «أنظرا إلى كنزِي.»

ألقيا نظرة على علبتـي. أعلنت أمـي:

- تكون المجوهرات الجميلة دائمـاً نذير شـوم لأصحابـها.

انتبهـتـي موجـة بـرد؛ أـعـدـتـ إـغـلاقـ العـلـبةـ، بدـأـتـ بالـبكـاءـ.

- سيدـيـ محمدـ، لـمـاـذاـ تـبـكـيـ؟ـ فـلـتـسـتـيقـظـ إذـنـ!ـ اـسـتـيقـظـ!ـ كانـ النـهـارـ قدـ طـلـعـ.ـ كـانـ الدـلـاءـ تـخـشـشـ فـيـ الـفـاءـ.ـ كـانـ أـبـيـ يـنـحـنـىـ عـلـىـ يـجـسـ جـيـبـيـ،ـ فـتـحـتـ عـيـنـيـ.

- أكد أبي: لا! إنه لا يعاني من الحمى. لا بد من أنه رأى كابوسا بكل بساطة.

كانت أمي تكرر و هي جالسة في سريرها:

- أقول لك بأنه مريض. بعد كل تلك الانفعالات بالأمس و اضطراب سوق المجوهرات الذي ظننت بأنه من اللازم أخذه إليه، لا يدهشني أن يمرض.

- أعلن أبي: هذا الطفل لا يشكو من شيء. إنه متعب قليلا بدون شك. فليتغيب عن الكتاب.

- يا إلهي! عاقبني، أنا المخطئة الرئيسية، لكن لا تؤذني بابني. أيها الرجل، أقول لك بأنني لا أريد بأية طريقة الاحتفاظ بهذين السواريين. إن الشوّم يدخل إلى هذا البيت بسبب هذه المجوهرات.

توجه أبي نحو الباب. أعلن و هو يلبس بلغته:

- سارحـلـ، أشعرـبـأـنـنـيـ سـافـقـ صـبـرـيـ لوـبـقـيـتـ هـنـاـ.

- أجابت أمي: إذهبـ، أـنـتـ رـجـلـ، مـنـ الطـبـيـعـيـ أنـ يـكـونـ لكـ قـلـبـ منـ الحـجـرـ.

ما كان يجب على أمي أن تقول أشياء مشابهة. ليس من الطبيعي أبداً أن يكون لرجل قلب من حجر. يوماً ما، سأصير رجلاً، لن يكون قلبي من حجر. أمام هذه الأحداث فقط، يتصرف أبي كما يجب أن يتصرف الرجل. يحافظ على تبصره و رباطة جأشه. كانت أمي ت يريد أن تراه و هو ينفعل مثلها: التحرك، الصراخ، تعظيم أهمية أدنى الأحداث.

على أية حال، كان أبي على حق: لم أكن أحس بأنني مريض ببناتـاـ. و مع ذلك اضطررت لإطاعة أمي و البقاء في السرير طوال اليوم. بعد الغداء، زارتـناـ لـالـةـ عـيشـةـ. لم نسمعـ أـخـبـارـهاـ أوـ أـخـبـارـ زـوـجـهاـ سـيـ العـرـبـيـ صـانـعـ الـبـلـغـاتـ مـنـذـ وـقـتـ طـوـيلـ. أـسـرـعـتـ أمـيـ بـتـحـضـيرـ الشـايـ. شـرـعـتـ بـدـلـ ذلكـ بـسـرـدـ قـصـةـ مـأـسـيـهاـ لـصـدـيقـهاـ الـقـدـيمـةـ. لـقـدـ حـكـتـ رـحـلـتـاـ إـلـىـ سـوقـ المـجـوـهـرـاتـ بـجـمـيعـ تـفـاصـيلـهاـ، الـكـارـثـةـ الرـهـيـةـ الـتـيـ حـصـلتـ بـسـبـبـ السـوـارـيـنـ، تـوـقـفتـ لـتـبـكـيـ قـلـيـلاـ، اـسـتـأـنـفـتـ قـصـتهاـ الـتـيـ كـانـتـ تـتـخلـلـهاـ تـنـهـدـاتـ، أـدـعـيـةـ. تـنـبـأـتـ بـحـمـاسـةـ بـالـكـوـارـثـ الـتـيـ لـنـ تـلـبـثـ أـنـ تـنـزـلـ بـيـتـاـ إـنـ لـمـ يـقـرـرـ أبيـ بـيـعـ السـوـارـيـنـ الـمـشـوـمـيـنـ، السـبـبـ الـخـفـيـ لـخـرابـناـ.

كانت لالة عيشة، بداعي الأدب، توافق، تنتهد، تهز رأسها، تضرب خديها بشكل حفيظ.

نظرت أمي أخيرا إلى صديقتها.

- و أنت؟ لا تخبريني بشيء عن بيتك. كيف حالك؟ كيف حال زوجك؟
لكي تجيب لالة عيشة، غطت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء. صب سيل من الدموع من خلال أصابعها. هزت تشنجات عنيفة جسمها. كان الألم يخنقها عبر لحظات. أحاطت أمي كتفيها بذراعيها و بدأت بالبكاء معها. توقفت لالة عيشة. كان خداها ما يزالان يتلألآن بالبكاء وأنفها مبللا، قالت لأمي:

- زبيدة، لم يعد لدي أحد في العالم، أنت صديقتي، أنت أسرتي الوحيدة. لقد تخلى عنِي ابن الحرام الذي بذلت الغالي والنفيض من أجله ليتزوج بأمرأة أخرى، ابنة عبد الرحمن الحلاق.

- صاحت أمي: الله! الله! يا أختي، أخي المسكينة، يا إلهي، ياله من ألم. بدأت المرأة من جديد بالبكاء و هما مت웅دان.

جعلتني الحرارة، السرير و هذه المشاهد الشنيعة التي كنت أحس بمساتها دون أن أفهمها مريضا. أحسست بصداع عنيف في رأسي، هزتني الحمى بكاملها. بدأت أتفقا على غطاني. أسرعت أمي خائفة و هي تصرخ:

- سيموت إبني، يا صديقائي، يا أخواتي، إبني! إنقذوا إبني!
اجتاحت الجارات الغرفة، انغلق جفناي. داشر جمجمتي، لم أعد أسمع سوى ضربات طبل عملاق.

الفصل 9

لم يأكل شيئاً منذ غدائه البارحة. كانت هذه الجملة المنطقية بتنهد كافية لإيقاظي. كان هناك ظليل كثيف يملاً غرفتنا. كانت أمي تهمس. كانت تخاطب خيالاً غامضاً و هي واقفة في وسط الغرفة. لم يكن الشكل يتحرك. كان همس غير واضح يسمع من حين لآخر. كانت مقاطع لفظية لا معنى لها تصلني إلى سريري. تركني الشكلان. حاولت التحرك، ضاعف الطبل الذي كان يقرع في ججمتي شدته. اختلط بظل ذيول الرماد الأحمر الغير ملموسة. حامت غيمة شرارات صغيرة حول وجهي. صامتة و باردة، حولت الديكور الذي كان مألوفاً بالنسبة لي إلى جو خيالي. انتشر ألم مشوش في عظامي و جعلني أتأوه.

عادت أمي، اقتربت بخطوات صامتة من سريري، انحنى علي قليلاً و بقيت على هذه الحالة مدة طويلة، صامتة جداً كما لو كانت لا تنفس. كانت تشكل أمام عيني كتلة سوداء بمحيط موبر. كنت أتوقع أن أراها تتبدد و تذوب مثل تلك الأشباح التي كانت تزورني في ليالي الأرق.

انتهت بالتنهد و التراجع خطوة إلى الخلف.

- قلت لها: أنا مستيقظ لكننيأشعر بالألم.

- بما أنك تكلمني فقد تحسنـت.

- سـأـلـتـ: لمـالمـكانـمـظـلـمـ؟

- أجابت أمي: إنهـالـمسـاءـ، لمـأـرـدـإـشـعـالـقـنـدـيلـلـكـيـلاـأـقـلـقـنـومـكـ. لقد عانيت من الحمى طوال الليلة الماضية و هذا الصباح بأكمله. لم تتوقف عيناي عن البكاء. للأسف لا تستطيع عيناي تخفيف المـأـكـ.

- أشعر بالجوع.

- هذا خبر جيد، الحمد لله! سأحضر لك زبدية حساء.

تركـتـنـيـلـلـحـظـةـ.ـ بـقـيـتـزـبـدـيـةـالـحـسـاءـالـتـيـأـحـضـرـتـلـيـبـضـعـدـقـائقـعـلـىـرـكـبـتـيـ.ـ كـانـتـرـائـحـةـالـطـعـامـفـقـطـتـرـيـعـقـلـبـيـ.ـ تـرـجـتـنـيـأـمـيـلـأـتـذـوـقـهـبـدـونـجـدـوـيـ.ـ كـانـتـقـدـأـسـنـدـجـسـميـبـالـاسـتـعـانـةـبـعـدـوـسـانـدـ.ـ تـدـحـرـجـتـقـطـعـةـ،ـ تـأـرـجـحـتـ،ـ طـارـتـفـيـالـجـوـ،ـ مـلـفـةـحـوـلـنـفـسـهـاـ،ـ مـعـرـضـةـلـقـانـونـالـكـواـكـبـوـالـنـيـازـكـالـثـابـتـ.ـ كـانـلـأـمـيـوقـتـكـافـقـطـلـتـمـسـكـبـالـزـبـدـيـةـالـتـيـبـدـأـتـ.

بالانتشار على الأغطية و تمديدي بحذر بالغ. كانت ضربات الطبل في جمجمتي تغيبني.

لقد كانت الأشياء تتحرف عن مسارها شيئاً فشيئاً. جاءت أمي لتجلس على مقربة من سريري في فراش منخفض جداً.

نادتها زوجة صانع المحاريث:

- زبيدة، كيف حال سيدي محمد؟ غطيه جيداً و اجعليه يشرب شايا ساخنا، لا شك في أنه قد أصيب بالزكام. تدخلت فاطمة من نافذتها.

- أنا أظن بالأحرى بأنه أصيب بلفحة شمس. يجب إحاطة رأسه بقشور الليمون وأوراق النعناع.

ربما كان كلاماً على حق، يا أخواتي، لكن إذا لم يتكرم الله بتسكن معاناته، ستكون كل مجهداتي بدون جدوى. سأجرب كل العلاجات لتسريع شفاء ابني.

أعلن أبي وصوله عند باب دخول المنزل. كان قد وصل أبكر من المعتاد. بينما كان يصعد الدرج، أسرعت أمي بإشعال قنديل الزيت. عمر ضوء أصفر غرفتنا. دخل أبي. جاء لينحنني على. كان محgra يحدثان ثقبين أسودين في وجهه الذي بدا لي شاحباً و متعباً. لمس جبيني برفق، هز رأسه و أدار لي ظهره دون قول شيء.

وضعت أمي الطاولة الصغيرة المنخفضة من أجل العشاء، أعتقد بأنه كان أتعس عشاء في حياتهما.

من سريري، كنت أرى طبق الخزف البني. لم أكن أستطيع تمييز نوع الطعام الذي كان فيه. كنت أعلم بأنه كان يحتوي على صلصة بالزعفران، خضر و لحم. كانت رائحة الزعفران تشعرني بالغثيان. لم يكن أبي و أمي، كل واحد غارق في تفكيره، يأكلان أو يتكلمان.

ظهر قط زينب من العدم، اقترب بخطوات خافتة من الطاولة، نظر إلى الشكلين الساكنين للمدعوبين و ماء من الدهشة. ماء بخجل، بصوت نائح، ضاماً ذيله بين قائمتيه الخلفيتين و مدخلاً عنقه في كتفيه. كتم مواءه في الجو مثل قطيلة قطنية. تملكه الرعب. حملق بعينيه الصفراوين، طوى أذنيه إلى الخلف، تفوه بشتيمة رهيبة و رحل خارجاً بزغب منفوش.

لم يكن والدائي قد قاما بأية حركة، لم يقولا أية كلمة. كان جزءاً نهاية العالم ينتقل على كل شيء. أجهشت بالبكاء. أفاق أبي من خبوه و سأله:

- أين تشعر بالألم، يا طفلي؟

أجبته و أنا أفوق بشدة:

- أنا لاأشعر بالألم، لكن لماذا لا تتكلمان؟

- ليس لدينا ما نقوله. ارتح و كف عن البكاء.

أفاقت أمي بدورها، أخذت الطاولة و اتجهت نحو مطبخها. عادت و يداها محملتان بصينية و كؤوس للشاي. وجدت أبي واقفاً و قد بدأ يستعد للنوم.

- سأله أمي: ألن تشرب الشاي؟

- لا، و من الآن فصاعداً ستنتبهين لكي لا تضيعي كثيراً سكرك.

- هل أنا امرأة مبذرة؟

- لم أكن أفكّر في هذا. كنت أريد القول ببساطة بأنه ابتداء من الغد سيكون من الصعب علينا شراء السكر و الشاي كل يوم.

أصبحت أمي شاحبة جداً. فتحت عيني جيداً لكي لا تفوتنى أي لقطة من المشهد. وضعت الصينية، اعتدلت في جلستها، واجهت أبي جيداً.

- قالت بصوت منكسر: أنا أحس بمكروره خطير.

بقي أبي صامتاً، بجفني منخفضين.

بشكل مفاجئ، جعلتني طقطقة مدوية أنتقض في سريري، أخرجت مني أنين الم. كانت أمي قد أطبقت كلتا يديها على خديها بقوة اليأس. جلست على الأرض، انصبت على وجهها، خدشت نفسها، نتفت شعرها دون التلفظ بأية كلمة. سارع أبي بالإمساك بيديها. مكافحاً لمدة طويلة. انهارت أمي بوجه مقابل الأرض.

- يا امرأة! ألا تخشين غضب الله؟ قال أبي برفق: ثقي برحمته. لن يتخلّى الله عنا. إن ما يحدث لنا، يحدث كل يوم لألاف المسلمين. غالباً ما يعني المؤمن. لقد فقدت في ازدحام مزاد الحوايا كل رأسمالنا الضئيل. كنت قد وضعت النقود في منديل. لا بد من أنني جعلت المنديل يقع مني أرضاً، معتقداً بأنني أضعه في حقيبي.

كانت أمي قد رفعت رأسها. لم تكن تقول شيئاً. كان أبي يتابع بصوته الهدى:

- لماذا النحيب؟ يجب أن نحمد الله في جميع الظروف.

خرجت أمي عن صمتها أخيراً.

- لماذا سنفعل؟

- سأعمل.

- كم أضعت؟

- كل رأسمالي العامل. ليس لدى حتى ما أدفع به لعاملي الذي لم يقبض شيئاً هذا الأسبوع. أنا مدین أيضاً بشهر من الكراء لصاحب الورشة. كنت أنوي تسديد كل هذه الديون و شراء بعض القطن.

- لا يمكن للتجار أن يقرضوك؟ أنت معروف بالشرف.

لن أنتازل أبداً إلى حد التسول من هؤلاء اللصوص. و لا أريد كذلك راتب عامل. أنا جبلي و ريفي. لقد بدأ موسم الحصاد للتو، يتم توظيف حصادين. سأذهب للعمل في ضواحي فاس.

- ستجرؤ على تركي مع طفل مريض؟

- هل تفضلين الموت من الجوع؟ هل تريدين أن تكوني محظ شفقة صديقاتك و جاراتك؟ سأكون على بعد يومين مشياً من المدينة. سيعحسن سيدي محمد في الغد. حضري له شوربة بالنعناع المدبب؛ غطيه جينا ليتعرق بغزاره. إن حمام اليوم أقل حدة من الليلة الماضية.

- إن هذه عقوبة متيبة من الله. لقد كان ذلك السواران اللعينان هما من زرعاً سوء الحظ في بيتي. لماذا لا تبيعهما؟

- أنا أنوي بيعهما. سترك لكما هذه النقود لكي تتغذيا أثناء غيابي. سيبقى إدريس الفظ وفياً لنا، سيأتي كل يوم للتسوق. أطعميه فليس له أحد. تفكراً أبي للحظة.

- سأترككما لوحدي لمدة شهر. سأحاول ألا أنفق شيئاً من راتبي، سيكون بإمكانني أن أعيد إدارة الورشة بمجرد عودتي.

خيم صمت مطبق، صمت ثقيل، رطب، دهني و أسود كالسنаж. كنت أختنق. كنت أتمنى بكمال قوتي أن يصفع بباب، أن تطلق جارة صرخة فرح أو أنين ألم، أن يحصل حدث خارق للعادة و يحطم هذا الفزع. كنت أريد الكلام، التفوه بآية حماقة لكن حلقتي انقبضت و خرج تاؤه من شفتني. لم يكن والدائي يتحرك، تحولاً شيئاً فشيئاً إلى شخصيات كوابيس. كلما حملقت بعيوني لأراهما، كلما أصبحا مبهمين، لا يمكن إدراكهما، تارة شفاقين، و تارة بلون أسود حلالك، لكن بدون محيط محدد. لأول مرة،

شعرت بإحساس الفراغ المطلق، الوحدة بدون رحمة. امتناع قلبي بالألم. تكونت كرة صلبة في صدرِي معيقة تنفسى. أغلقت عيني. دعوت بورع. كنت أحس بأنه تم التخلّي عنِي عند أبواب الجحيم.

لا، لم أنس هذه اللحظات بعد. يا إلهي! أنا أتذكر. أتذكر هذه الوحدة الكبيرة مثل المساحات الشاسعة للكواكب الميتة، هذه الوحدة التي يموت فيها الصوت بدون صدى، التي تطول فيها الظلال في أعماق الفزع والموت. و القلب الذي ينجزف! منبع ألم لاينضب، سيل ساخنة أكثر مما يجب بنيران أحزاني وألامي؛ صوت بدنى المسحوق تحت وزن لعنك. لم أكن سوى طفل، يا إلهي! لم أكن أعلم بأن النهار يولد من الليل، بأنه بعد نوم الشتاء، تبتسم الأرض بكل أزهارها تحت مداعبة الشمس، تنز بكل حشراتها، تغنى بصوت عنايتها.

تركنا أبي غد اليوم التالي عند الفجر. رحل، بخرج راع من الكاميروبس كمتعاه الوحيد، كان قد اشتراه في اليوم السابق، منجل جديد وحقيقة من الكتان، بسحاب مزلق. كانت أمي قد فصلتها بقطعة حايك قطني و حشتها بالمؤن: زيتون أسود، تين مجفف، دقيق محمص و محلى، خبزتان معطرتان بالقرنفل و عشرة قرشالات. هكذا نسمى خbizات دائيرية صغيرة محللة، معطرة بالقرنفل و أزهار شجرة البرتقال و مزينة بحبوب السمسم. كنت مستيقظاً عندما رحل أبي. أعطته أمي بعض توصيات و بقيت بعد ذهابه، خائرة على سريرها، تخفي وجهها بيديها. شعرت بإحساس كأنه تم التخلّي عنِي، كأننا صرنا أيتاماً.

لا بد من أن جميع من في الحي كانوا على علم بمشاكلنا المادية و برحل أبي. كانوا سيعظرون تجاهنا شفة متابهية أكثر إذلاً من أسوأ احتقار. رحل أبي، بقينا دون دعم، دون دفاع.

كان الأب، في أسرة مثل خاصتنا، يمثل حماية خفية. لا حاجة لأن يكون ثريا، تعطي هيبيه المعنوية القوة، التوازن، الثقة و المحترمية. لم يكن أبي يعود إلى البيت إلا في المساء، لكن كان يبدو الأمر كأن طوال النهار كانت تحصل تحضيرات لاستقباله. كنت أفهم ما يعذب أمي، هذا الصباح، في ضوء النهار الذي كان بالكاد قد بدأ بالطلع. كانت تدرك في خافية قلبها بأن تحضيراتها ستكون دون جدو. لا أحد سيدفع بابنا في

المساء، لن يحضر رانحة العمل الزكية من الخارج، لن يكون رابطاً بيننا و بين حياة الشارع الغزيرة.

بالنسبة لي و بالنسبة لأمي، كان أبي يمثل القوة، المغامرة، الأمان، السلام. لم يسبق له أن ترك بيته؛ كانت الظروف التي تجبره على فعل ذلك هكذا تتخذ في مخيلتنا وجهاً قبيحاً.

كان البيت يستيقظ شيئاً فشيئاً، يحيي الشمس و أصواتها المعتادة. كنت أحس بحال أفضل هذا الصباح. جلست في سريري. لم يكن لرأسى وزن على كتفى. لم تكن ذراعاي مريضتين بأية حمى.

قلت: أمي، هل الشهر طويل؟

أفاقت أمي من خبوها، نظرت يميناً، ثم يساراً، كما لو كانت تحاول أن تعرف أين تجلس ثم حدقت في بعينين مندهشتين.

- هل تكلمت، سيدي محمد؟

- أجل، أمي، أنا أسألك إن كان الشهر طويلاً.

- إن الشهر يدوم شهراً، يابني، لكن بالنسبة لنا، سيكون الشهر القادم قرناً.

- أنا أعرف الانتظار؛ أنت، لا زلت لا تعرفي، أو، بالأحرى، لقد عرفت من قبل لكنك نسيت.

بدت أمي مندهشة من هذه الملاحظة.

- ما الذي تنتظره؟

- أنتظرك أن أصبح رجلاً. أنت، لا تنتظرين شيئاً منذ أن أصبحت شخصاً بالغاً.

سكت قليلاً قبل أن أضيف:

- عندما كنت بنتاً صغيرة، لم تكوني تستطعين فعل كل ما تريدين، انتظرت أن تصبحي امرأة لتحقيق مشاريعك، شراء الملابس التي كنت ترغبين فيها، الخروج مع لالة عيشة صديقتك، تحضير الأطباق التي كنت تحبين تناولها. أنا، أكل ما تعطيني إيه، لا أخرج لوحدي أبداً، دائمًا ألبس قمصاناً ليست على مقاسى.

كانت دهشة أمي تزداد. لم تكن تعرف بماذا تجيبني؛ كانت تحدق بي بفضول.

كنت أهمس بهدوء:

عندما سأصير رجلا، سألبس جلابيب بيضاء جميلة ستغسل كل يوم، سأكل كل يوم على الأقل رطلا من الفطائر الساخنة جدا بالكثير من الزبدة، وأحيانا بالعسل. سيكون لدى أربعون قطا يطیعونني دائمًا. لن يتغوطوا في الزوايا أبدا. على أية حال، سنسكن منزل آخر بنارنج في الساحة. أنارت ابتسامة وجه أمي.

- لن تقبل زوجتك بالاعتناء بقططك قططك أبدا.

- لن أتزوج، أنت، تحبين القطط، ستتكلفين بالأمر.

بصراحة لقد انفجرت بالضحك. فجأة أعاد مرحها كل ثقتي بنفسي. ضحكت أكثر منها؛ كنت أضرب بيدي. وضعت أمري سباتها على شفتيها و قالت لي:

- ماذا سيقول الجيران لو سمعوك تضحك بهذه الطريقة في يوم رحيل أبيك.

- سيعود أبي قريبا و سنعود أغنياء جدا من جديد.

- لكن لم يسبق لنا أن كنا أغنياء.

- بلـى، لم نكن نشعر بالجوع، أليست غرفتنا أجمل واحدة في المنزل؟

- ارتح، يا صغيري، لن تشعر بالجوع أبدا طالما أنا حية، حتى ولو اضطررت للتسول.

حك أحدهم الباب بخجل. نهضت أمري.

- قالت و هي تتجه إلى ممر الدخول: من هناك؟ تبع هذا وشوشة طويلة، كلها همسات و هسهسات. أخيرا سمعت أمري تقول بصوت ملح:

- أدخلـي، فاطمة! أدخلـي و أعطيـه له بنفسـك؛ أنا لن يقبلـه منـي، إنه عندـكـا! هـيا اـدخلـي!

ظهرت فاطمة بزيوية. كانت تحمل في يدها زبدية داخنة. اقتربـتـ منـي، أظهرـتـ لي اـبتسـامةـ عـريـضةـ و سـأـلتـتنـيـ:

- كـيفـ تـشعـرـ هـذـاـ الصـبـاحـ، أـيـهـاـ الفـقـيـهـ؟

لم أجـبـ بشـيءـ، لم أـردـ الانـخـراـطـ فيـ أيـ حـدـيـثـ معـ هـذـهـ المـرـأـةـ التـيـ أـنـتـ لـتـمـلـقـنـيـ لـكـيـ تـجـعـلـنـيـ أـبـتـلـعـ شـرـابـاـ نـتـنـاـ.

- لـقـدـ حـضـرـتـ تـادـفـيـ منـ أـجـلـكـ! أـلـاـ تـرـيدـ أـنـ تـذـوقـهـ؟

كنت أحب تادفي عادة، هذا الحساء المعطر بالنعناع المدبو. انطلاقاً من مبادئي، أدررت وجهي إلى جهة الحانط. كنت أظن بأنني أنهى هكذا أية محاولة إقناع. أنت أمي لتنفذ جارتنا.

- أنا متأكدة من أن هذه الشوربة ستعجبك. بعدها سأرسل زينب لتشتري لك فطيرة.

جعلتهما تترجيانني لمدة أطول. انتهيت بالجلوس. أخذت الزبدية، شممتها بألف حذر، نظرت إلى المرأتين المنحنتين على باهتمام وأعلنت بأنني لا أحب الشوربة الحريفة.

أجبتني الاشتنان باتفاق، بشكل مؤثر، بأنه لم يكن في هذه الشوربة أي ذرة من الفلفل أو الفلفل الأسود. نظرت إلى أمي في العينين و سألتها بشكل مفاجئ كيف لها أن تعرف ذلك إن لم تكن قد تذوقت هذه الشوربة. حاولت أن تجيبني، بحثت عن جملتها، ارتبت، تنهدت، رفعت عينيها إلى السماء لتشهد العوارض الخشبية المليئة بالدخان و ذهبت لتحتمي في المطبخ. كانت فاطمة تلح:

- أنا، أؤكد لك بأنه لا توجد أية توابل في هذا التادفي. بحركة واحدة، وضعت الزبدية في يديها.

- يعلم الجميع بأنه لا يمكن شرب التادفي بدون توابل. ليس لأنني مريض فسوف تجعليني أشرب صمغ الدقيق. فقدت فاطمة صبرها.

- أقول لك بأنه لذذ! تذوق أولاً قبل أن تتفوه بمثل هذه الحماقات. خذ بسرعة.

كنت لا أزال أحمرد. أصبحت فاطمة حنونة. نادتني بصوت لطيف: حلوى سكرية بطعم الحامض، جبنة صغيرة بيضاء، شعرية بالحليب. لم أكن أستطيع مقاومة كلمات مدللة جداً كهذه، استعدت زبدية التادفي. كنت أشعر بالجوع بشكل مقبول، شربت هذه الشوربة اللذذة بيلعات كبيرة.

بعد ذلك طلبت من أمي أن تنظفني. غيرت قميصي، لبست جلبابي. كنت أحس بأنني شفيت و لكن لست قوياً كفاية لأعود إلى الكتاب.

طوال بضعة أيام، كنت سائعاً بعطلة حقيقة.

رأتنى رحمة عند النافذة و حيتني بفرح:

- الحمد لله! سيدى محمد! ها أنت قد استعدت عافيتك. كنا قلفين جداً ب شأنك. عدنى بala تمرض مرة أخرى، لأنني أ فقد شهيتي، أقسم بالله وبأوليائه المقدسين.

- أجابت أمي من طرف مطبخها: فليحفظك الله أنت و أقرباؤك في صحة ممتازة، يا رحمة، فليعطيكم السعادة والازدهار. اتكلات رحمة على سياج نافذتها مقررة استئناف الحوار.

- أمين، يا أخي زبيدة. هل رحل سيدى عبد السلام هذا الصباح؟ لقد سمعته ينزل الدرج.

- أجل، لا بد من أنه بعيد الأن.

- سيعيده الله لكما سالماً معافي.

خاطبت رحمة كل من في المنزل لتعلن:

- إن الزمن يصبح صعباً على الناس المساكين مثلنا، لكن لنحمد الله في السراء والضراء.

للرد على هذا، عطس أحدهم بشدة في الطابق الأرضي. عطس ثلاثة مرات، ثم تمخط بنخوة. ذكرني صوت أنفه بصوت بوق رمضان. انفجرت ضاحكاً بفرح.

أمسكتي أمي من كتفي، أعادتني إلى فراشي. نصحتي بصوت حازم بأن أتمدد. لم أكن قوياً كفالية لأقوم بشذوذ مشابه. كان يجب علي البقاء في السرير. أوصتني بتلاوة بعض الآيات القرآنية لكي لا أنسى كل ما حفظته و لكي أجلب البركة إلى بيتنا و إلى أبي الذي رحل نحو المجهول.

جلست على الفراش، بوجه متجمهم. لم أكن أرغب في تلاوة آيات قرآنية، لم أعد أرغب بشيء. كنت أسمع بأذن شاردة الترثيات المألوفة لنساء البيت. لم أكن أغير أي اهتمام لكلماتهن. رغم الشمس، كان كل شيء يبدو لي مظلماً. كان وسخ الجدران الذي كنت أراه من نافذتنا يثير اشمئزازي. أخيراً، قدمت أمي الغداء. كانت الوجبة تتكون من فطيرتين كانتا لي، زبدة زنخة، زيتون أسود و باقة فجل كانت هدية من فاطمة بزيوية أو بالأحرى من زوجها، محمد البستاني.

بدأت بتناول فطيرة. أصبحت عجينة و بدون مذاق في فمي. مضغتها، أعدت مضغتها، مررها إياها من خد لآخر؛ انتهيت بابتلاعها دون لذة. أخللت الطاولة، وضعت أمي على الطاولة مباشرة براداً من العينا لم نكن

نستعمله أبداً و كأسين. دون صينية، دون مرجل في الغرفة، دون الطقس المعتمد الذي كان يسبق تحضير الشاي، كان انطباع فقر يطفو في الجو. وحدها الأسر البائسة من كانت تتصرف بهذه الطريقة.

أجابت أمي على ملاحظاتي بأنها لم تعد تستطيع تضييع وقتها في تلميع الصينية، غسل الكؤوس، صقل البراد الفصديرى. ماذا كانت ستفعل بوقتها إذن؟ لم أكن أعلم.

بعد الغداء، أوصتني أمي بأن أكون عاقلاً جداً، لبست حانكها و ذهبت لزيارة صديقتها لالة عيشة. كان لديهما الكثير لتقولاه لبعضهما البعض. لا زلت أتذكر الساعات الرهيبة التي أمضيتها في انتظارها. دون أن أجرو على الذهاب إلى النافذة، كابحا رغبتي في الجري في الدرج، في القفز على السطح تحت الشمس. أقيمت نظرة على علبة العجائب خاصتى. لم تعد علبة عجائب بل تابوتاً ترقد فيه جثث أحلامي المثيرة للشفقة. قمت بتكتسيرة فظيعة. لا بد من أن الجارات لم تسمعني و أنا أبكي. مسحت أنفي بخرقة قديمة كانت مرمية على الأرض. ممداً على ظهري، تأملت البقع المتفسرة التي كانت تتراءكم على جدران غرفتنا.

لم تعد تتحرك. كانت تنظم على شرفي حفلات راقصة تفتن العيون فيما مضى. كنت أمضي ساعات و أنا أتابع هذه الأشكال المتغيرة. لم تعد الآن سوى بقع ساكنة تشعرني بالغثيان.

بدأ قلبي بالدق من الحزن، من الفزع، من الغيظ و الغضب. كان يدق بالأخص من الخوف. رغم أحاديث الجارات، الصوت المألف لمكانت الدوم، صرير الشرارات، أزيز المناخ، كنتأشعر بالخوف. متعباً من دموي الصامتة، انتهيت بالنوم. عندما عادت أمي، كنت قد أصبحت بالحمى من جديد. غطتني بشكل دافى، جلست بجانب سريري و بكت مطولاً. كانت تندنن بهدوء، تتوقف من وقت لآخر لتسخ أنفها، تعود لهمسها.

في المساء، لم تحضر العشاء، نامت باكراً. وجدت صعوبة في النوم. كنت أتحرك في سريري، أستدير، أقلب دون أن أتمكن من الغطيط في النوم. بشكل مفاجئ، هبت العاصفة. انقض الريح على بيتنا بهزير الغضب. صفت الأبواب. وسط تأوهات، دموع و نعيق العاصفة، سمع لحن شابة خافت. لم يكن نايا بشرياً، تشبه تلك الأبواس ذات السبع ثقوب التي تجعل

الأشباح ترقص تحت ضوء النجوم، كانت، بلا شك، بعض الآلات الموسيقية من مادة لامعة وباردة، مطرقة في أعماق المياه من طرف جن فقد عقله. كانت تتكلم أحياناً بلغة مؤثرة وعذبة، أحياناً مبهمة، متوجهة، شريرة، أحياناً بحنين شرس. كان هناك نداءات، توسلات، توبيخات، ضحكات الضبع، صراخات ألم طويلة، كلمات حب و جمل غضب. كان الريح يضحك، يلعب مع الأبواب، يضربها من الغضب. لكي يعيده قواه المظلمة، تلوت ثلاثة مرات سورة الإخلاص. مرتجفا بكل أطرافي، وضعفت وسادة على وجهي؛ انتهيت بالنوم.

كانت حياتي تمضي في عالمين متعارضين. في النهار كنت أعايني من كل أنواع الإكراهات، كنت أشارك في بلايا لم أكن أفهمها، كان الليل يقدمني كطعم لوحشة، يرمي في فراغ هاوياته، يهدبني فواكه لم تكن يدائي تستطيعان إمساكها. حياة مزدوجة، مليئة بالعوانق، بالسرابات، المقالب، لكن الأمر انتهى بي بالاعتياض عليها. لم أكن أتصرف، كنت أتحمل. كانت كل قطعة من المستقبل تخبي ذرة غموض. كانت كل واحدة من اللحظات تتلاعيب بشحنة فرحها، للأسف! سريعة الزوال، يوزن أنها الذي كان يطبع على جسمي كدمته. حسب مزاج البعض أو نزوة الآخرين، كانت أيامى تبدو لي مظلمة أو مشرقة، ليالي، ملجاً راحة، مكان تعذيب، لحظة هناء، محنـة الأرواح الملعونة إلى الأبد.

أعطاني هذا مذاق المغامرة فيما بعد، أي: مذاق الموت. كنت أموت كل ليلة لأبعث فوراً في عالم بدون أبعد. كنت أعود للحياة كل صباح لأرى الشمس، غناء الدوريات، خبز القمح وبرودة ماء العين. كان للخبز والماء طعم لذيذ و كنت أفرح لكوني على أرض لا ينقصان فيها. مع ذلك، في ساعات كابتى و وحدتى، كانا يبدوان لي مريئين، تفهين، صلبين على حلقي الضيق جداً.

بالطبع، كنت أفضل النهار على الليل، كانت الأيام تبقى مبدئياً خاضعة لمنطق الزمن، تتلاعيب بشكل مرتب جيداً من حيث المظهر. كانت الليالي تخلق شخصيات، موقع، أزمنة. كان والدائي، الجيران، أطفال العميد، المعلم و عصا السفرجل خاصة يسكنون الأرض المشمسة لكن كان

يحدث لي في الليل أن ألتقي بهم في بلاد بعيدة محرومين من الضوء، في دروب محفوفة بالمخاطر. كانت علاقاتنا غالباً لا تكون كما كانت عليه في النهار. حاولت عدة مرات تجنبهم لكن كان يتبعين بأن مجاهداتي كانت دون جدوى. لم أكن أستطيع الإفلات منهم، لا في هذا العالم، ولا في أي واحد آخر. كان قد عهد لهم بتدليلي أو تعذيبني كما يحلو لهم. بعد ذلك سأدفع عن نفسي. الآن، لم أكن سوى طفل، طفل مصافق كان يشخر بصمت بينما كان جميع الرجال قد ذهبوا للعمل، بينما كانت جميع الجارات قد اغتسلن.

أيقظتني أمي:

- سيدى محمد، أنت تنام بشكل خاطئ، ستصاب بالصرع.

واربت جفني بصعوبة. كان ضوء النهار يغمر غرفتنا.

- انهض و اذهب للتوضأ، سأطبخ لك بيضة خلال هذا الوقت.

- أحب كثيراً البيض بالزيت مع الفلفل الأحمر و البقدونس.

- أعلم، سأضع فلفلا أحمر، بقدونس و حفنة كمون أيضاً.

لم تفلت هذه الجملة من أذن رحمة. وقفت عند نافذتها و صاحت:

- نسمى هذا الطبق بالعجة اليهودية، إنها لذيدة.

أجبت أمي:

- لازال سيدى محمد مريضاً، إن لديه وحما مثل المرأة الحامل.

أنصتت كل الجارات إلى الحديث. كانت بعضهن تضحكن، و آخريات تتمرين لي الشفاء العاجل. حكت خالتى كنزة، الشوافة، واحدة من ذكرياتها: كانت قد عرفت امرأة شابة حاملاً كانت في يوم من الأيام ذاهبة إلى الحمام فرأت في دكان لمشتقات الحليب جينا أبيض جميلاً.

أرادت تذوقه، لكن اللبن، مفتر، تابع للشيطان، رفض إعطاءها أدنى فتات. ولد الطفل بعد بضعة شهور. على بطنه، كانت تبرز بوضوح قطعة جبن أبيض.

كانت خالتى كنزة قد رأتها بأم عينيها.

- قال صوت بدون أدنى سخرية: من حسن الحظ أن قطعة الجبن لم تظهر على جبينه أو واحد من خدوده.

نادى إدريس الفاظ من باب الدخول. طلبت منه أمي أن ينتظر للحظة، كانت ستنزل. قطعت رباع خبزة كبيرة، جرت إلى مطبخها لدهنه بالزبدة الزنخة، لفت قبضة من الزيتون الأسود داخل ورق أدمسم و اندفعت إلى الدرج. قبل

أن تصعد من جديد، استعارت دلو خالي كنزة، ملأته بماء البذر و صعدت الدرجات بصعوبة. كانت دائماً تتصدر باب مطبخنا جرة الماء الصالحة للشرب المصنوعة من طين مسامي. سكبت أمي الدلو فيها. عادت إلى وقالت لي:

- سوف أستعد، سخرج سوية؟ سنمر لاصطحاب لالة عيشة التي تنتظرنا. سأخذك اليوم لترى شخصاً لا تعرفه. أست سعيداً بالخروج قليلاً؟ سذهب بعيداً...

بينما كانت تتكلم، كانت تلف نفسها بحانكتها، تشد حجابها، تنفس الغبار عن بلغتها.

- أنت لا تعرف حي كالكلين، ستري، إنه حي جميل بdroوب ضيق ينزل منحدراً، منازل بسقوف مطلية و شجرة تين أو اثنان تخرج من الجدران و تتدلى على الزقاق. سيعجبك كل هذا. امسح أنفك، ما الذي فعلته بمنديلك؟ فلتمسح أنفك إذن!

كنت أضيع وقتي في البحث عن منديلي، وجذته أخيراً تحت وسادة منكمشة و ملتصقة. شدته لأحصل على مساحة كافية لأضع فيها أنفي. مسحت أنفي بشدة، بشدة لدرجة أن أصابعي كلها تبللت. رميت المنديل و مسحت أصابعي بجلبابي.

كنا نهم بالخروج من البيت عندما نادت فاطمة بزيوية أمي.

- لالة زبيدة، إلى أين أنت ذاهبة؟

- لقد دعتنا لالة عيشة لقضاء اليوم عندها، إنها وحيدة جداً!

- ماذا حل بزوجها، سيدى العربي؟ ألم يطلق ابنة الحلاق بعد؟

- لا، لكنني أعرف بأنه يدفع حالياً ثمن نكرانه لجميل لالة عيشة. إن عائلة زوجته تجعل أيامه مرة، إنها تتهمه بترك زوجته الشابة تعاني من الجوع. نزعت أمي حجابها الذي كان يزعجها لكي تتكلم. كان البيت كله أذاناً صاغية. يالها من مصادفة سعيدة أن تعرف أكثر من الآخرين! يالها من فرصة رائعة لتبيّن لكل هؤلاء الحسودات حجم التقدير الذي تكنه لالة عيشة لها. كانت تبوح لها بكل أسرارها! في النهاية، لمحت إلى أنها كانت تعرف ما هو أطول من ذلك، لكن اللياقة لم تكن تسمح لها بإفشاء كل شيء. رحلنا أخيراً. كنت أمشي في المقدمة، وأنا أحملق إلى عروض البصائر. عند وصولنا إلى سيدى أحمد تيجاني، اتجهت أمي إلى وعاء القرابين. في

جدار مغطى بالفسيفساء، كان يوجد ثقب، بمستوى الإنسان، يعلوه سياج من البرونز المتقن الصنع.

لم تضع أمي أي قربان في الثقب. أدخلت فيه يدها فقط، فركت خدتها بالمنجور الذي كان يحيط به و همست بداعاء ملتبس، كنت قصيرا جداً لأبلغ الثقب، ألصقت شفتني بفسيفساء الجدار الباردة. أسعد إظهار الاحترام لسيدي أحمد تيجاني هذا أمي.

- قالت لي: تعال، يا عيني الصغيرة، وليرحظك الله من كل شر !
تبعثها. مشينا بعض خطوات. كان باائع فلفل و طماطم قد جلس عند زاوية الزقاق. كان يعرض خضره على الأرض على شكل كومات صغيرة مرتبة جيداً، على شكل هرمي.

- سأله أمي: بكم تتبع طماطمك؟ اتحنت، جست هنا، لمست هناك، خلطت الطماطم بالفلفل، أحدثت الفوضى. أجابها البائع، و هو غاضب، بأن هذه السلعة لم تكن للبيع، خصوصاً لزبونة مزعجة مثلها.
بشكل وقور، وقفت أمي و نصحته بأن يجمع نفاياته إن لم يكن ينوي بيعها. لا يجب السماح لكسالي من هذا النوع بأن يملأوا الأزقة و يعيقونا حرفة المرور. لابد من أنها كانت ستكمّل نقدها اللاذع لكنني أمسكت بيدها و أجبرتها على اللحاق بي. تركنا البائع يشتعل غضباً.

إلى يسارنا، كانت توجد بوابة ضخمة مزينة بمسامير و مطارق من البرونز بطريقة جميلة جداً.

- مي، قوللي لي لمن هذا المنزل؟

- إنه ليس منزل ، إنه مكتب مسيحيين.

- أرى مسلمين يدخلون إليه.

- إنهم يعملون مع المسيحيين. المسيحيون أغنياء يا بني و يدفعون جيداً لمن يعرف لغتهم.

- هل سأتكلم لغة المسيحيين عندما أكبر؟

- فليحفظك الله، يا بني، من آية صلة بناس لا نعرفهم.

كان شارع زنقة حجاً يقع إلى اليسار، قبالة سوق العبيد القديم. منذ دخل البيت، نادت أمي لالة عيشة، تمنت لنا قدوماً ميموناً من غرفتها في الطابق الثاني و رجتنا لنصلع. كانت تنتظرنا، جالسة أمام مرجلها الذي كان يطلق تدفقات دخان.

كانت الغرفة تعكس صورة الأسى. كانت تبدي البؤس والضجر. لقد عرفتها في أيام أفضل. لم يعد هناك كريتون على الأفرشة، لم تعد هناك سجادة باللون زاهية! كانت الرفوف الخشبية المطلية بحمولتها من الزبديات الخزفية والأطباق المزينة قد اختفت، تركت الساعة الحانطية بقعة فاتحة في مكانها على الجدار. لم يتغير عدد الأفرشة لكنها صارت محشوّة بلبدة نباتية بدل الصوف. كانت اللبدة قد ضمرت، كانت الأفرشة باردة وقاسية. على أية حال، كانت الغرفة كلها تبدو باردة وقاسية. كان الجو مشبعاً بما يشبه الفزع. بدا لي البيت ميتاً. كان المستأجرون الصامتون يجلسون، بدون أدنى شك، في الزوايا الأكثر ظلماً من غرفهم. كان قط يموج بشكل يائس على السطح. لا بد من أنه ماء طوال أيام. كان صوته ينழف عند كل نداء.

حضرت لالة عيشة الشاي. قدمته في طبق نحاسي بنقوش ممحوّة. كانت تقوم بواجب المضيفة بشرف كبير.

لم يكن أحد يقول شيئاً. كان كل واحد من ثلاثتنا يتابع حلمه الخاص، يغرق في أفكاره. كسرت لالة عيشة الصمت.

- سذهب بالأحرى إلى حي صفاح، لقد سافر فقيه كالكلبين إلى الجبل. يبدو بأنه لا زال لديه عائلة في قرية نانية. إن سيد العرفي الذي سذهب لاستشارته أعمى. لقد حصلت على المعلومات من خدوج العلوية التي استشارته مرتين أو ثلاثة. لقد أكدت لي بأن كل ما تنبأ لها به قد تحقق نقطة بنقطة.

لدي أمل، يا زبيدة؛ بمساعدة هذا العراف، أنا متأكدة من أنني سأصيّب هدفي. نحن مخلوقات ضعيفة جداً، إن السعادة شيء هش. لقد خرب بيتي، لن أرتاح حتى اليوم الذي يعود فيه إلى ما كان عليه.

كانت أمي تهز رأسها، أنا كنت أتنهد لأنني كنت أعرف بأنه في مثل هذه الظروف كان من اللائق التنهد. خيم الصمت من جديد.

قالت أمي في الأخير:

- لالة عيشة، أنا كذلك في حاجة ماسة إلى النصيحة. أنا خانقة على بيبي، على زوجي وعلى ابني. عندما يحل غضب الله على الناس الفقراء مثلنا فإنه يحولهم إلى رماد. إن الناس الذين «يعلمون» يكونون عوناً ثميناً لنا. إن سيد العراف يملك سمعة جيدة، سيساعدنا بالتأكيد.

- من المسموح للعبد أن يبذل قصارى جهده ليعالج بؤسه، بعدها يجب أن يترك الأمر بيد الله لإنجاز نوایاه. لكن على أمل.
نهضت لالة عيشة، التي لم تفقد شيئاً من وزنها الزائد، بصعوبة من الأرض، أخذت حايكها.

الفصل 10

لم نجد أية صعوبة في إيجاد بيت سي العارافي. كان ناس حي صفاح، فخورين بكونهم جيران رجال مشهور جداً، يساريون بارشادنا. تطوع طفل في مثل سنّي بمرافقتنا. دلنا عبر متاهة من الشوارع التي كانت تصبح ضيقّة أكثر فأكثر، مظلمة أكثر فأكثر، مليئة أكثر فأكثر بأكوام النفايات و القطط الضالة. وصلنا أخيراً إلى ساحة صغيرة تغمرها أشعة الشمس. في هذا الفضاء المشرق كان يوجد مدخلاً طاحونتين مائيتين، ثلاثة أبواب لمنازل عتيقة وفتحة مجاري. كانت سحب من الغبار و الذباب تدور في الجو. كانت روانج متعددة تتعرّك فيما بينها: نفايات منزلية، بول حمير، أطباق قليلة الدسم، و كان البنزوين و اللبان يمزجان نفحهما بها.

صوب الطفل الذي كان يرافقنا سبابته اليمنى نحو الباب الرئيسي، دس سبابته اليسرى في أنفه و رحل دون أن يقول شيئاً. فتح الباب. خرجت امرأة عجوز بوجه مكسوف تحمل على رأسها سلة من القصب. حدقت إلينا بهدوء، هزت رأسها. اتجهت نحو الزنقة السوداء التي أتينا منها. مشينا واحداً تلو الآخر في ممر الدخول. كنا نضرب الأرض بطرف بلغاتنا قبل أن نحط قدمنا. كان الممر مظلماً. لم يكن البلاط متاسقاً. من حين لآخر، كانت أمي أو لالة عيشة تطلب من النبي تجذتها. كانتا تتعرّزان بنفس الحاجز بالدور، بلاطة مرصوقة بشكل خاطئ، آجرة كانت مرمية هناك سهواً.

انعطف الممر إلى اليسار. بهرنا ضوء الفناء. تنهداً من الرضى: كانت هناك قدم دالية تتسلق على طول الجدار الذي كان يواجهنا. كانت الأوراق، بلون أخضر داكن، تزهوّا فوق بياض الجير الذي كان يغطي كل جدران المنزل. كانت هذه الساحة تبدي سلاماً رهيباً. كان هناك حمام يهدل و ترغل يجيرون بلغتهم. كنت أبحث بعيوني عن هذه الطيور التي كانت تستقبّلنا بفرح لكن دون جدوى. لا بد من أنها كانت تراقبنا من مخابئها المليئة بالظلّ والبرودة.

لم يكن هناك أحد في الفناء. بقينا هناك بضع دقائق و نحن لا نعرف من نخاطب. تجرأت أمي و نادت:

- يا سكان البيت!

سؤال صوت امرأة:

- من تريدون مقابلته؟

- استأنفت أمي: يا سكان البيت، هل يسكن سيدي العارافي في بيتك؟ إننا نريد استشارته. ظهر رأس بنت صغيرة تشبه الزوج من كوة. دلتا بعينيها إلى الدرج الذي كان على يميننا.

- قالت: أصعدوا، إن سيدي العارافي يسكن في الطابق الأول. بالكاد صعدنا ثلث درجات حتى بدأت لالة عيشة بالتنفس مثل منفخ المسبك:

- نصحتنا: أصعدا أنتما الإثنان، ستنتظرا إني عند البسطة. من البسطة، كانت هناك عدة مرات تذهب في جميع الاتجاهات بالإضافة إلى عدة أدراج مهترنة كذلك. كانت الدرجات المهترنة تعرقل الصعود. في نهاية أحد هذه المرات كانت توجد غرفة سيدي العارافي. كانت ستارة بشرانط صفراء و حمراء تمنع ولو جها.

التحقت بنا لالة عيشة وهي تتعرق و تختنق و تفوق بأدعية و عبارات نداء للرحمة الإلهية. رفعت الستارة لأمهد الطريق لمرافقتي. ألفت أمي نظرة على الغرفة و سالت:

- هل صحيح بأن سيدي العارافي يسكن هنا؟

- أجل، هذا صحيح، لا خشية عليكم من الاقتراب يا حاج الله الذين أرسلهم إلينا. أنا هو العارافي، الأعمى المسكين. لا أرفض أبدا استقبال ضيف الله.

دخلنا، واحدا تلو الآخر، تاركين بلغاتنا في الممر.

- أعلنت لالة عيشة وهي تتطرق كل كلمة بتنهد عميق:

- إننا ضيوف الله، يا سيدنا، لكننا ضيوفك كذلك.

- مرحبا بكم! مرحبا بكم! و إن كنتم تشعرون بالعطش، لدينا ماء يروي الحلوى المتجمدة. اقتربوا و اجلسوا. لا تستطيع عيناي رؤيتكما لكن قلبي يقول لي بأنكم أناس أخيار. إن بينكم طفلا. تسمع أذنائي وقع خطواته على الحصیر. هل هي بنت أو ولد؟

- أجابت أمي: ولد.

أضافت و هي تخطبني:

- قبل يد الشريف، يابني، واطلب منه أن يباركك.
مد الأعمى يده في الفراغ وقال:

- بارك الله، يابني، بارك الله! تعال إلى جانبي!

كان وجهه يشرق طيبة. كان وجهه طويلاً هزيلاً، بلون الخبز المحروق. لم تكن مقلتاه اللتان تملآن مجرريه تثيران خوفى. تقدمت. وضع يدي في يده. وضع شفتي على أصابعه. ابتسم لي و جرني بلطاف إلى ركبتيه. مرر يده بشكل خفيف على وجهي. جست فيه كل جزء وجوف. توقفت على جبيني، انزلقت نحو الأذنين، وصلت إلى العنق.

خلال كل هذا الاستكشاف، لم يتوقف عن ترديد: «فليبارك الله! فليبارك الله!»

تناول مسبحة كانت في متناول يده وأدارها فوق ظهر ي سبع مرات. بينما كان يقوم بهذا الطقس، كان يتلو آيات قرآنية كنت أعرفها، لكنني لم أكن أحفظها بشكل تام. توقف أخيراً و قال لي:

- لا بد من أنك تعرف آية الكرسي؛ أتلوها دائماً، سوف تحميك من كل النوايا السيئة.

كان سيدي العارافي يرتدى قميصاً قطانياً واسعاً جداً. كان يلبس على رأسه قلنسوة صوفية كانت قد ضاقت عند الغسل. بعد أن قبلت يده مرة أخرى ذهبت لأجلس على بعد بعض خطوات منه. أنت زوجته بدورها لترحب بنا. قدمت لنا ماء بارداً جداً كانت تسكته في قلة فخارية. كان لدى انطباع بأنني سبق ورأيت هذه المرأة. ربما في الحمام العمومي. كانت بشرتها كلون القهوة بالحليب. كانت تتكلم بكلمة تافيلات. كانت حركاتها خفيفة و مفعمة بالخير. لازلت أتذكر وجهها ذي العينين المتقاربتين جداً، بأنف صغير لكن بشفتين منتفختين جداً. أذكر كذلك أسنانها المحكورة بقشور الجوز، أسنان عريضة، مغروزة بقوة في لحم اللثة التي كانت بلون التمر.

صحيح أن سيدي العارافي لم يكن يعيش في رخاء.

كانت الأفرشة موضوعة على حصير من الأسل. ما كان الحصير الأصفر البني ليقاوم القدم لمدة أطول. كانت أغطية الكريتون النظيفة جداً تعاني من الشيخوخة. كان هناك رف في الحائط. كانت تتصدره سكرية وحيدة من التنك مطلية بالأحمر المزين برسوم من الحبر الذهبي، نصف ممحية. كان جلباب سيدي العارافي يتذلى من مقدمة السرير.

طلب سيدى العارفى من زوجته أن تحضر له سلطه. بقىت أنا و أمي و لالة عيشة صامتين. كان حدث هام سيحصل. كنت أشعر بذلك. عمرتني موجة من القلق. كنت أرتعش من الفضول.

وضعت زوجة سيدى العارفى أمام زوجها سلة دائريه من الحلفاء يعلوها غطاء مخروطي كبير. مد الأعمى ذراعه، لمس الغطاء و رفعه ببطئ. مددت عنقى. كنت خائفا على نحو غامض. كنت أتوقع خروج وحش بشع، ربما سحابة دخان كانت ستتحول أمام أعيننا إلى شيطان جاهز لتنفيذ كل طلباتنا.

لم تكن السلة تحتوي على أي شيء مشابه. كانت تفوح منها رائحة بنزوين و لبان عطرة. نظرت عن قرب إلى الأشياء التي كانت يد سيدى العارفى تتأهب لتناولها. ابتسمت.

كانت سلة سيدى العارفى تذكرنى بعلبة العجائب خاصتى. كان يعرف «السر». كان الجميع يقولون بالطبع بأنه عراف ماهر. أي عراف حقيقي لا بد له من أن يمتلك علبة عجائب. لقد فهمت الآن. رغم عماه. كان مرحًا و ذا شخصية مسالمه. لم يكن يرى الشمس، الأزهار و الطيور، لكن ليه كان ينتعش أحيانا بالشخصيات التي كان يمثلها كل شيء من سلطه. مددت يدي أنا كذلك للأمس الأشياء الصغيرة. أوقفت نظرة من أمري حركتى.

تلا سيدى العارفى دعاء طويلا بصوت منخفض. كانت اليد، بأصابع متباude، تحوم فوق محتوى السلة مثل طائر يستعد لิحط في عشه.

توقف و قال و هو يخاطبنا:

- لا تتوقعوا أن أكشف لكم الغيب. إن الغيب ملك الله، القدير، إن هذه المحارات و الأحرار تساعدنى لأحس بالمكم، تقربكم من قلبي. عندما سأحدثكم، إن قلبي هو من سوف تسمعونه. سيدى محمد، أليس هذا هو اسم الطفل الذى يرافقكم؟

- أجبت أمري بصوت خجول: أجل.

- إن سيدى محمد يعرف بأن ما أقوله لكم صحيح. إن طفلا طاهرا ما يزال ينتمي إلى الكتاب الملائكي، هذه المخلوقات النورانية. لا تستطيع الحقيقة أن تفلت منه لكونها نورا... اقترب، يا سيدى محمد، أدخل يدك في هذه السلة و تناول شيئا دون أن تراه.

نفذت ما طلبه مني حرفياً. استقرت كرة زجاجية، بحجم بيضة، في باطن يدي. كانت ناعمة الملمس و ذات لون مائي. نظرت إليها قبل أن أعيدها إليها. كانت فقاعة هواء كبيرة تلمع في كتلتها الشفافة. كانت أقمار صغيرة تدور حول هذا الكوكب.

لمست أصابع سيدي العارافي الكرة الزجاجية لمدة طويلة. لم يكن يقول شيئاً. أصبح وجهه صارماً. أخيراً تكلم بهدوء و هو ينطق كل مقطع لفظي على حدة.

- اسمع، أيها الطفل المبارك و تذكر. إن الألماس يسمى، حسب لغة الخبراء، البيتيم، الوحيد لأنه نادر و لعدم وجود أي حجر آخر يمكنه أن ينافسه في الصلابة و الجمال. يمكن لأي رجل أن يسمى مثل الألماس، البيتيم أو الوحيد. من الآن فصاعداً، لا تكون حزيناً بعد الآن. إذا تخلى الرجال عن بعضهم، انظر إلى داخلك. هل تفهمي جيداً، يا بني؟ يا للعجائب، يا للعجبات التي يخبوها قلبك! عندما تنسى أن تتأمل كنوزك، تعاني صحتك من هذا و تصبح ضعيفاً. انظر إلى الكرة التي أعدتها إلى اللتو. بداخل هذه الكتلة الشفافة، توجد صورة الشمس. إنها في مأمن من أي وسخ هناك. إنها منيعة على كل ما ليس نوراً. كن مثل هذه الصورة، ستنتصر على كل العقبات. باركك الله، يا طفلي! باركك الله! قرب جيبك من شفتي.

قبل جيبني. بعدها، تلونا بصوت مرتفع، نحن الاثنين، دعاء قصير. كان الانفعال يخنقني. امتلأت عيناي بالدموع. كنت أسبح في ال�باء الخالص.

كانت هذه الأحداث قد تركت في أمي و لالة عيشة انطباعاً قوياً. بقيتا صامتتين في حالة احترام. أبعد سيدي العارافي السلة و طلب أن يشرب. ملأت له زوجته زبدية من طين مسامي بالماء و انصرفت. مسح العراف فمه بمنشفة إسفنجية صغيرة لفها بعد ذلك بشكل كروي و وضعها تحت إحدى ركتبيه. في الأخير، خاطب المرأتين:

- لقد أرسلتكم الله إلي لأن قلوبكم الجريح. لست سوى عبد متواضع لكن الله اختارني لأساعد إخوتي و أسكن أو جائعهم. فلتكرر إحداكما ما فعله هذا الطفل المبارك ولتدخل يدها في السلة.

تنهدت لالة عيشة، وهي تمد ذراعها إلى السلة. تناولت محارة صغيرة.
أعطتها سيدى العارافي و تنهدت من جديد.

كانت المحارة تبدو ذات بياض خارق بين اليدين البنيتين لسيدى العارافي.
كانت تحول إلى تحفة من خزف صيني ناعم، صناعة مجانية من خزاف
رائع في لحظة فرحة عارمة. مررها سيدى العارافي من يد إلى أخرى ،
لمسها، قربها من شفتيه بتقوى. تكلم:

- ما اسمك أيتها المرأة الكريمة القلب؟
- عيشة، أيها الشيخ.

- كانت المرأة المفضلة عند النبي تدعى هكذا. أستطيع أن أتصحّك بمسح
كل حزن وجهك؛ لكنك عانيت كثيراً و ما تزالين تعانين بشكل كبير، لذلك
فستستمعين إلى كلامي من دون إصغاء. يبدو الجرح عميقاً، إلا أن الشفاء
قريب. هل تعلمين، يا امرأة، بأن كل ألم يعلن عن فرح، بأن كل موت
يسبق قيامة، بأن كل وحدة تفسح المجال لسيول من الحنان؟ لا يجب علينا
السخط، لا يجب علينا أن نطلب من القدر تفسيراً. على هذه الأرض،
نخضع لقوانين لسنا قادرين على فهمها. فلنقبل ما يرسّله الله لنا. ستجرف
العاصفة العش المسكين في دواماتها لكن، بعون الله، سيبني العش من
جديد. سيكون هناك ربيع وأزهار على أغصان أشجار اللوز من جديد.
أطلقت لالة عيشة تلوها و بدأت بالبكاء. أخرجت أمي منديلاً لتمسح
عينيها. أنا كنتأشعر بالفرح و التحرر. كانت كلمات سيدى العارافي قد
وجدت أرضاً خصبة. كانت جذورها مغروسة في دم أوردي. سمعت
سيدى العارافي يهمس لنفسه بهذه الأغنية الغريبة:

بايقاع الأيام اللا مبالي،
بايقاع الليالي البطيء،
تسبيح الأقمار الجديدة
يخصي الفصول.

خاطب المرأتين من جديد:

- تحدث الدموع أثر ندى نافع. إن كان الندى غزيراً جداً، تذبل الأزهار و
تموت، أوقفا بكاءكم ولنتلو الفاتحة سوية.

ردتنا معاً بطنين:
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين
الرحمن الرحيم
ملك يوم الدين
إياك نعبد وإياك نستعين
إهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.
آمين!

بعد لحظة صمت، مدت أمي يدها إلى السلة بحركة خجولة. أعطت لسيدي العرفي حصيلة صيدها. كانت لولوة سوداء برسوم متعددة الألوان. ابتسם العراف و سأل أمي عن اسمها.

- أجابت: زبيدة.

- لقد فقئت بصري منذ وقت طويل يا أختي. كان ألمي قد انتشر على شكل طبقات دافئة على خدي. لم يبقى مني سوى الرماد. لم يعد هناك مكان لراحة جسمي. لم يكن هناك ما يكفي من الماء ليروي عطشى. كانت الشمس قد اختفت و كان فصل شتاء دائم يسود العالم.

ماء و شمس يا إلهي
ماء و شمس يا إلهي

سمع الله شكواي. عادت الأرض حنونة و خصبة من جديد. ذهبت إلى التل لأدفع عظامي. أدخلت أطرافي في الينابيع الصافية. استعاد حلقي المنتعش نبراتي المفقودة. يا أختي، امتنع عن رؤية الجانب المظلم فقط من الإرادة الإلهية. إن أولياء الله الذين يسهرون على هذه المدينة يهبونك حمايتهم. زوري مزاراتهم. تذكرني بأنه عندما يقوم شخص بأمنية من أجل غائب، يجيئه الملك الحارس: فليرد الله عليك بالمثل.

انتهى سبي العارافي بهذه السورة:
قل: « هو الله أحد

الله الصمد

لم يلد ولم يولد

و لم يكن له كفواً أحد. »

غرق الجميع في صمت تأمل من جديد. محركا بإحساس لا أعرفه، أسرعت بشكل مفاجئ إلى يد سيدى العارافي و قبلتها. كانت نهاية الزيارة.

أصلحت المرأة حبابي. نهضتا بصعوبة، رتبتا حاليهما. انحنينا بالدور على سيد العارافي لتقبيل كتفه و دس قطعة نقدية متواضعة في باطن يده خلسة. غادرنا الغرفة و دعوات سيد العارافي ترافقتا إلى غاية الباب. في الشارع، أحسست بأنني تخلصت من عباء كبير. كان العالم يتمثل أمام عيني بنقائه الأصلي. كانت الشمس تلعب على الجدران القديمة، على عروض بضاعة الذاكرين و على العمامات و الجلابيب بمرح.

كنت أقول لنفسي: ستتحقق تنبؤات سيد العارافي. لكن أية تنبؤات؟ لقد تكلم بمعاهيم غامضة جدا! هل فهمت معنى الكلمات بشكل جيد؟ كنت أفهم كل شيء، بحضور هذا الرجل. لم يعد هنا، لكن بقي لدى إحساس بالحرية لم أكن أعرفه حتى الآن. كانت كلماته التي ابتلعتها بشرارة قد تحولت داخل أحشائي إلى موسيقى خالصة. لم يعد التعب يثقل كتفي. بدأت بالرقص. لم تعد أمي و لالة عيشة ترياني. كانتا تمشيان جنبا إلى جنب و هما غارقتان في أفكارهما.

بشكل مفاجئ، توقفت عن النط لأجري و أختبئ في ثابيا حايك أمي. أيقظت هذه الحركة انتباها.

- ما بك؟ أنت أبيض مثل الغسيل. ما الذي يمكن أن يخيفك؟ فلتتكلم!
أصررت على صمتى و التصقت أكثر بأمي.
تدخلت لالة عيشة:

- ما به إذن؟ هل من الممكن أنه يعاني من أوجاع في البطن؟
- إنه لا يريد إخباري. إنه يرتعش خوفا. تكلم، أيها العنيد!
غادرت ثابيا الحايك و تنفست بعمق. قلت في الأخير:
- لقد كنت خائفا.

- من كنت خائفا؟

- لقد رأيت الفقيه، معلمي، مارا. لقد انعطفت إلى اليسار، لقد ذهب من الشارع الصغير. كان من الممكن أن يراني.

- ماذا كان سيحدث لك لو رأك. ألسنت مريضا؟ ألا تراففك أمك؟ لا يمكن اتهام طفل ترافقه أمه بالتسكع.

- أجابت: أجل، لكن الطفل المريض لا يتتجول في الشارع حتى و لو كانت أمه ترافقه.

- لو التقينا بالفقيه كنت سأقول له بأنني أصطحبتك لترى طبيبا.

- كان سيظن بأنه عذر بسيط و عندما أعود للمسيد، كان س يجعلني أدفع ثمن نزهتي.

تنهدت أمي و قالت و هي تخاطب لالة عيشة:

- لم يعد من الممكن إيقاع هذا الطفل، إنه ينافش كالرجل.

- أجبت صديقتنا: باركه الله!

مشينا في صمت. في جسر بين المدون، كان هناك بائع رمان قد جلس على الأرض و فتح قفته. لم يكن الرمان ناضجا بعد. كانت قشرته ما تزال

حضراء. وقف أمامه. فهمت أمي موقفها بسرعة. صاحت بي من بعيد:

- تستطيع البقاء هناك، لن تحصل على رمان. إنه ما يزال أحضرا. أنا لا أريد علاجك إذا أصبت بأوجاع العيون.

- أريد واحدة فقط لأندوتها.

- لن تحصل على حبة واحدة. هيا تعال!

أمسكتني من ذراعي و جذبنتي رغم مقاومتي. بدأت بالتباكى. دام نحيري مدة طويلة. اختفت كأبتي دون سبب. مسحت عيني بأكمام جلبابي. شغلني نظر الشارع. كان ما كنت أراه يثير في ملاحظات كنت أعبر عنها بصوت مرتفع. بقيت أثرثر بدون انقطاع إلى غاية البيت.

لم تقل أمي لجارتنا آية كلمة عن الزيارة التي قمنا بها لصدي العارافي. كنا نسكن مع شوافة. عادة كان على أمي أن تستشيرها في المقام الأول. لكن لم تكن لديها آية ثقة بقدراتها. كنت أتفق معها بشكل ضمني. كانت أفعال كنزة، المستأجرة الرئيسية، تتبع من المجال الشيطاني. كانت معقدة، تتطلب تحضيرات، ترتبط بعدة مصاريف. لم نكن أثرياء بما فيه الكفاية لنسمح لأنفسنا بتضييع النقود في شراء بخور عطرة لأنوف الجن. أضيغوا لكل هذه الاعتبارات حذر أمي، الخوف من فضح جميع أسرارها. لم يكن هناك من يجهل وضعيتنا في البيت، و مع ذلك كان يخيل إلى أمي عكس ذلك.

حكت بأننا ذهبنا برفقة لالة عيشة إلى حي بعيد عن المدينة (لم تكن تستطيع أن لا تحكي شيئاً) لكنها تجنبت كل فضول بادعائها أنها ذهبت لن壯رك في مزارات المدينة. كانت صحتي تستدعي ذلك. إن العلاجات البشرية تبقى بلا فائدة إن لم يتم تقديسها بالنفح الروحية لرجال الله.

في اليوم التالي لخرجتنا مع لالة عيشة، أخبرتني أمي بنيتها في أن تدعني في البيت خلال فترة غياب أبي بأكملها. ذكرت سببين مقعدين: الأول: أنني لم أعد سوى كومة من العظام و صارت بشرتي تشبه لون قشور الرمان؛ الثاني: أصبحت أمي تحس بالوحدة أكثر فأكثر، كان وجودي يجعلها تنسى همومها.

بقدر ما كانت تفعل ذلك من أجل الترفيه كانت تفعله لتجعل أولياء المدينة يشفرون على حالنا، قررت أمي أن تأخذني كل أسبوع لنصللي تحت قبة ولبي. كانت مدینتنا تعج بالقبور التي تحتوي على بقايا الشرفاء، زعماء أخويات، تقاة ملوك و ملائكة الشعب تعرف بقدراتهم. كان كل قديس يملك يوم زيارته الخاص: الإثنين لسيدي أحمد بن يحيى، الثلاثاء لسيدي علي دياب، الأربعاء لسيدي علي بو غالب، إلخ... كل هذا، كنت أعرفه، كان الجميع يعرفه. كان ما قام به أسلافنا يبدو لنا بسيطاً، طبيعياً، متناسقاً و حكيمياً بشكل مثالي. لم يكن أحد ليجرؤ على الضحك على ذلك. كان للأيام معنى. بالنسبة لي، كان لها لون حتى. كان الإثنين يرتبط في خيالي بالرمادي الفاتح، الثلاثاء بالرمادي الداكن، داخن قليلاً، كان الأربعاء يلمع ببريق ذهبي كمساء خريف، الخميس بارد و أزرق يتباين مع الأصفر البراق ليوم الجمعة، كان امتداع السبت يعلن انتصار أخضر الأحد. لم يسبق لي أن أخبرت أحداً بهذه الاكتشافات. لو كنت امرأة، لو كنت غنية، كنت ساليس كل يوم كسوة باللون المناسب. كانت حياتي ستكون أكثر جمالاً، أكثر توازناً، أكثر سعادة. لكنني لم أكن امرأة و قلماً كانا أغنياءً، بالأخص بعد رحيل أبي. كانت أمي تطبخ طبخاً قليلاً الدسم، تخلط دقيق الشعير بخبز الحنطة. قل ضحكتها، لم تعد تحكي القصص. كانت تبقى لنا النزه الطويلة التي كنا نقوم بها للذهاب إلى مزارات متعددة مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. كنا نعبر عن نفس الشكاوى، نطلب تحقق نفس الأمانيات. نذرف دائمًا نفوس الدموع الضعيفة و نعود إلى بيتنا. كانت هذه الزيارات تتعبني. لم أكن أستطيع رفض المشاركة فيها. كان وجود طفل يجعل رجال الله أكثر انتباها و أكثر تأييداً.

ذات صباح، كنا نستعد للخروج، عندما طرق أحدهم بباب البيت. سأل إن كان المعلم عبد السلام، الحانك، يعيش هنا حقاً. أجابته الجارات بالإثبات. نادت كنزة، الشوافة، أمي.

- زبيدة! زبيدة! هناك من يطلبك.

بطبيعة الحال، كانت أمي قد سمعت كل شيء بقيت في وسط الغرفة، بيد على الصدر، دون أن تنطق بكلمة. من الذي كان من الممكن أن يأتي ليسأل عنا؟ هل كان رسولاً يبشر بالخير أو ناقل خبر سيء؟ ربما كان دانتا نسي أبي أن يخبرنا عنه! كان المبلغ المالي الصغير الذي تركه لنا أبي قبل رحيله قد ذاب. كانت الفرنكات القليلة المتبقية تخص شراء الفحم.

أجابت أمي أخيراً بصوت يرتجف بشكل خفيف:

- إن كان هناك من يريد مقابلة زوجي فقولي له بأنه غير موجود من فضلك.

نقلت كنزة الكلام بصوت عالٍ إلى الغريب الذي كان ينتظر خلف باب البيت. تردد خلفها همس غير واضح. ترجمته كنزة، مفعمة بحسن النية، بهذه الكلمات:

- زبيدة! إن هذا الرجل قادم من الباذية، يريد أن ينقل لك أخبار المعلم عبد السلام. يقول بأن لديه شيئاً ليعطيه لك.

تشجعت أمي. أضاءت ابتسامة وجهها.

- قالت و هي تسرع إلى الدرج: هذا ما كنت أظنه بالضبط.

نزلت الدرجات بأقصى سرعة. لأول مرة في حياتي، كنت أراها تجري. لحقت بها. لم أكن آمل أن أسبقها في السرعة. عندما وصلت إلى ممر الدخول كانت أمي قد بدأت بالحديث عبر شق الباب مع شخص مجهول.

كان الظل يقول بصوت خشن:

- إنه بخير، إنه يعمل كثيراً و يضع كل ماله جانباً. يقول لكم بـألا تقلقاوا بشأنه. لقد أرسل معي هذا من أجلكم.

لم أكن أرى ما كان يسلمه لها عبر شق الباب. طوت أمي أسفل كسوتها و ضمت بعنابة الكنز الذي سلمه لها الغريب.

- قال الصوت: هناك أيضاً هذا، هذا كل شيء. سأغادر المدينة غداً صباحاً، سأرى المعلم عبد السلام بمجرد وصولي إلى الدوار. بماذا أخبره من طرفك؟

- قل له بأن سيدتي محمد قد تحسن كثيراً.

- الحمد لله! كانت صحته تشغله كثيرة. سأرحل؛ السلام عليكم.

- رافقتك السلامة، أيها الرسول العيمون.

أغلق الباب، عبرت أمي الفناء و صعدت الدرج بسرعة.

كانت الأسئلة تهمر مسبقاً من كل النوافذ. انحنت رحمة خارج النافذة، أفلتت كنزة ، التي كانت تغسل قرب البئر، دلاءها و صابونها، تركت فاطمة بزيوية مغزلها، كن كلهن يسألن أمي في الوقت نفسه عن صحة أبي، عن عمله الجديد، عن المكان الذي يوجد فيه. لكن أمي كانت تجيب بكلمات ملتبسة متبوعة بكم من عبارات المجاملة. بدا بأن فضول جاراتنا عنيد. كن كلهن يردن أن يعرفن ما أرسله لنا أبي. كنت أشعر بأن أمي ت يريد أن يجعلهن ينتظرن بفارغ الصبر. عندما وصلت إلى غرفتنا، وجدت على الطاولة المستديرة الصغيرة اثنى عشرة بيضة، أصيضا طينيا مشقوقا مليينا بالزبدة و قنينة زيت بلونبني داكن. نظرت إلى أمي، كانت تشع من الفرح. كانت عيناهما مليئتين بالدموع.

- قالت لي: أنظر إلى ما أرسله لنا أبوك! إنه لم ينسنا. إنه بعيد، لكنه يسهر علينا. لقد أرسل لنا حتى النقود. أنظر! أنظر!

فتحت يدها. رأيت ثلاثة قطع نقية تعكس بريقها بلون القمر الواضح. تم همس هذا المونولوج بصوت خافت، لكن الآذان التي كانت تترقب هذه اللحظة سمعت كلمة نقود. انتقلت هذه الكلمة السحرية من فم إلى آخر. عادت جاراتنا النصف راضيات إلى أعمالهن. كن يعلمن بأن أمي لن تخفي ثروتها عنهن لمدة طويلة. أنا، كنت أفك بالخصوص في نزهتنا التي كانت تبدو مشبوهة جدا. لم أكن أتأسف عليها. غمرتني بهجة أمي. كل شيء في و حولي بدأ بالغناء. كنت أردد في نفسي: « نحن أثرياء! نحن أثرياء! ». قبل أسبوع، لم أكن أجرؤ حتى على التفكير في مدى فقرنا. كان المؤس يسكن جدران بيتنا، كان يشبع برانحته حتى الغسيل. ظهر الرسول الخفي هذا الصباح في حياتنا، بدد فزعنا، تخوفنا، فلقنا. كان علينا، أنا وأمي، أن نثق بحسن طالعنا و ننتظر.

- قالت لي أمي: سيدتي محمد، اذهب للعب على السطح إن كان ذلك يسرك، لدى الكثير لأفعله اليوم لكي أصطحبك إلى قبر سيدتي على مزالى، سندذهب، إن شاء الله، الأسبوع المقبل أو في أحد الأسابيع القادمة.

لم تكن لدى أدنى رغبة في الصعود إلى السطح. كانت الشمس، بلون أبيض معدني، تحوله إلى جهنم. أطللت من نافذتنا. كانت كنزة ما تزال تغسل قرب البئر. كان قط زينب الذي أنهكته الحرارة ينام في زاوية من

الفناء ممداً بكمال طوله. سمعت أمي تتحدث إلى فاطمة بزيوية في البسطة، كانت فاطمة تشكرها، تقوم بدعوات لازدهارنا. دام الحوار مع رحمة التي ذهبت أمي لتلزورها في غرفتها مدة أطول. كان دور الشوافه هو الأخير. انزوت مع أمي في غرفة الاستقبال الكبيرة. انتهى حديثهما عند نهاية من الصباح.

على الطاولة المستديرة، لم يبقى إلا ست بيضات. كانت أمي قد تقاسمت مع جاراتنا بشكل عادل. كنت أحب البيض، كانت رؤيتها تجعل لعابي يسيل بغزاره. قبل تحضير الطعام، صعدت أمي إلى السطح. سمعتها تتكلم مع الزنجية التي كانت تسكن في منزل مجاور. في المساء، كان الحي كله يعرف بأن رسولاً قد جاء من بادية بعيدة، محملاً بثروات عديدة كانت مرسلة إلينا.

جاءت لالة عيشة بشكل مفاجئ. لم يفاجئني ذلك. كان حضورها بالنسبة لي مرتبطة بكل الاحتفالات العائلية. لم يكن فرحتنا، على وجه الخصوص، فرح أمي، ليكتمل لو لم تتقاسمها مع صديقتها القديمة. أسرعت أمي بوضع الطاولة. صحت بالست بيضات. أكلناها مقلية. خلال الطعام، حكت حدث اليوم بتفاصيله. وصفت شكل مرسول أبي (كانت بالكاد قد رأته في الظل)، تحدثت عن مفاجئتها و تخوفاتها، شكرت الله على نعمه و رجته بورع أن يسهر على عبيده المتواضعين الذين كنا من أكثرهم تواضعاً.

- سألت أمي لالة عيشة: و أنت! كيف تجري أمورك؟

- الحمد لله! الحمد لله! تعالى غداً لزيارة، أنا أحضر لك مفاجأة.

- هل من الممكن أن يكون زوجك قد عاد إلى البيت؟

- إنه يأخذ وقته و يدفع الثمن غالياً للمعاناة التي سببها لي. لكن تعالى غداً صباحاً، ستعرفين المزيد. يجب أن أتركك الآن. لقد مررت فقط لأطلب منك أن تأتي في الغد.

نهضت لالة عيشة، لفت نفسها بحاليها و توجهت إلى الدرج.

الفصل 11

كانت لالة عيشة تطرد الذباب بالعديد من ضربات الفوطة، كانت توبخهم مثل أطفال فظيعين.

- هيا، أخرجني، أيتها الدوبيات البائسة؛ أنت توسيخين كل ما تلمسينه؛ عندما أحاول أن أستريح، تزعجيوني بحركتك و أزيزك. لاحظت وجودنا عند عتبة الباب. بقيت ذراعها متداة؛ أثارت ابتسامة وجهها.

- مرحبا بكما. أدخلوا، اجلسوا، لستريحا. يصبح هذا الذباب لا يحتمل. الحرارة و الذباب، العديد من البلايا التي يرسلها الله إلى عباده ليختبر صبرهم. تكلمي قليلا، زبيدة، لا تبقي صامتة.

كانت أمي لترغب في الاستجابة لطلب مضيفتنا عن طيب خاطر، لكن كيف تقول كلمة؟ كيف تستهل حديثا مع شخص أصابته حمى الإبادة يجري من ركن غرفة إلى آخر، ملوحا بفوطة كبيرة عوضا عن علم؟ صحيح أن الذباب كان يسخر منها قليلا. كان يحط بمجموعات على وسادة، ينتظرها متظاهرا بالقيام بوضعه دقيق، لكن ما إن كان يراها تقترب حتى كان يصدر لحن حرب، يطير، يحوم للحظة في نواحي السقف و ينزل مباشرة على السرير أو الفراش.

تخلت لالة عيشة عن الكفاح. غابت للحظة لتدبر إلى مطبخها لإحضار مرجلها النحاسي و الموقد. كانت الصينية المعدة مسبقا تتصرد وسط الغرفة. كانت مغطاة بحجاب مطرز بالذهب. كنت أرى أسفله، بفعل الشفافية، البراد القصديرى و الكؤوس. أخيرا، بدأت أمي و لالة حديثا حقيقة، أعني حوارا. بدأ، مثل كل حوارات النساء، بأسئلة عن صحتهما. لقد رأتا بعضهما في اليوم السابق. كانتا قد تبادلتا نفس الأسئلة و نفس الأجوبة. بصراحة، ليس تماما: لقد واجهت لالة عيشة صعوبة في النوم عند بداية الليل، لكنها لاحظت سريعا بأن ذلك كان راجعا لقصاوة الفراش. غيرت السرير، نامت كالحجر.

- سألت متظاهرا بالبراءة: هل الصخور تنام؟

- قالت لي أمي: أصمت أو اطرح أسئلة معقولة.

ذكر هذا الحدث أمي بقصة زينب، ابنة جارتنا. كانت قد تركت حجراً
كبيراً يسقط على الإصبع الكبير لقدمها، القدم اليمنى، وضحت أمي.

- سألت لالة عيشة مديحة علامات قلق: الله، هل حدث هذا بعد مدة طويلة
من انصرافي؟

- أجبت أمي: كلا، لقد حدث هذا منذ سنتين؛ أتذكر ذلك اليوم كما لو كان
البارحة. كنت أفرم الخبازى على السطح عندما سمعتها تصرخ...
في هذه اللحظة تماماً، سمع صوت طفل في البيت كله. حملقت أمي،
محرجة. نظرنا إلى بعضنا و نحن متntagجون كلباً و قهقها كثيراً. أنا كنت
أضحك كثيراً لدرجة أن دموعي غمرت خدي.

- نطق صوت رجل: الحمد لله! الحمد لله! إن الضحك نعمة من الله.
التفت لأرى الزائر الذي كان يتجرأ على الدخول هكذا إلى غرفة تثير
فيها امرأتان لم تكونا لا زوجتيه ولا قريبيته. كانت امرأة تقف في إطار
الباب.

هل سمعت جيداً؟ نظرت إلى أمي و لالة عيشة على التوالي، لكن لم تكن
أي واحدة متtagحة مثلي.

- قالت لالة عيشة: مرحبا بك، يا سلام، كانت أمي قد بدأت بطرح أسئلة
على القادمة الجديدة عن صحتها، صحة أصدقائها و أطفالها. حسب ما
علمته فيما بعد، لم يكن لديها أطفال. كانت سلاماً مزوجة محترفة.
التفت لالة عيشة إلى أمي.

- قالت لها: إنها المفاجأة التي أعدتها لك.

- لكن، يالها من مفاجأة رائعة! لقد مر زمن طويل لم أحظى فيه بفرحة
لقاء سلاماً. كانت آخر مرة التقينا فيها هي حفل زفاف قريبة عيشة، زوجة
باتح الحصائر. كان زفافاً جميلاً جداً!

- اليوم، لدى سلاماً أشياء لتحكيها لنا؛ هل عرفت ما هي؟

- لا فعلاً، لا أعرف.

كنت أعرف أمي. لم تكن عيناها تقولان الحقيقة كلها.

لم تتكرم سلاماً بإلقاء نظرة على شخصيتي المتواضعة. لا بد من أنني
كنت أبدو لها صغيراً بشكل مضحك، هزيلاً بشكل مضحك. كانت سلاماً
تنتمي إلى ذلك العرق المنقرض الذي أنجب أسطورة العمالقة. تقدمت
بخطوة عظيمة نحو الأريكة الكبيرة، جلست في مرتبة الشرف. بصدر

مستقيم، يدين منبسطتين على الركبتين، بقيت صامتة، ساكنة مثل كتلة من الجرانيت.

لم تكن أية عضلة من جسمها تتحرك، كانت عيناها فقط التي تحط ببطء على كل شيء. كنت خائفا منها بشكل ملتبس. كانت تجذبني و تضايقني في الوقت نفسه. كنت أنتظر منها أن تتكلم و أنا مكور على وسادة، تحركت شفتاها الغليظتان اللذان كان يعلوهما شارب خفيف بشكل لا يلاحظ. لم يخرج أي صوت. كانت الرغبة في سماعها تتحدى تجعلني أرتجم. لم أعد أدرك حتى إن كانت أمي و لالة عيشة صامتتين أو تشرثان كالعاده. أغلقت عينيها، أعادت فتحهما و أعلنت بأنه بعد الشاي، سيكون لديها الوقت الكافي لتخبر أخواتها الصغيرات عن الأحداث التي تتحضر.

أضافت:

- أستطيع أن أؤكد لكما بأن هناك أحداثا مهمة تتحضر.

أفلتت ضحكة صغيرة طريفة، ذات بهجة عارمة، من لالة عيشة. كانت هذه الضحكة فتية جدا، باردة جدا، رباعية جدا لدرجة أن لالة عيشة احمرت من التشویش. نهضت سريعا، ذهبـت لإحضار السكر و النعناع. بدأت أمي بسرد قصة الأعراس التي حضرتها. حضر الشاي في وقت قياسي. خدمت لالة عيشة الجميع مدت لي كأسـي بأصبعين من الشاي في الحقيقة. احتجـت. طلـبت بكـأس مليء بالـكامل مثل الذي أحـصل عليه في بيـتنا.

قطـبت أمـي، عـضـت شـفـتها السـفـلى لـتـعـنـي لـي استـكـارـها. لـاحـظـت سـلامـة وجـودـي أـخـيرـا. اـبـتـسـمت. أـنـارت أـسـنـان صـفـراء عـرـيـضـة، لـكـنـ مـغـرـوزـة بمـتـانـة وجـهـها.

- أعـطـ شـايـا لـهـذا الصـبـيـ، أـنـا سـأـعـطـيـه حـلـوىـ.

بحـثـت في جـيـب قـفـطـانـها، أـخـرـجـت منـديـلا مـطـرـزاـ. كان يـحـتـوي على سـابـلـيـين و كـعـبـ غـزـالـةـ. حـصـلت على كـعـبـ الغـزـالـةـ و تقـاسـمـت المـرـأـتـانـ السـابـلـيـينـ. بعد صـمـتـ جـدـيدـ، طـلـبتـ أمـيـ و لـالـةـ عـيشـةـ، و الفـضـولـ يـلـتـهمـهـماـ، بـصـوت واحد:

- إـحـكـيـ، يـا سـلامـةـ، لـا تـجـعـلـيـنا نـنـتـظـرـ طـوـيـلاـ. إـحـكـيـ.

- أـجـلـ، مـنـ الأـفـضـلـ لـيـ أـبـدـأـ. هـلـا اـتـصـفـتـ بـالـصـبـرـ لـسـمـاعـيـ حتـىـ النـهـاـيـةـ؟

- طالبت المرأة بشرارةه: إحكي، يا سلاماً! إحكي!

- أعرف قلبيكما، إنهم نبيان و مفتوحان للتعاطف. لالة عيشة، لقد كنت مخطئة جداً في حرقك، هل يمكن أن تسامحيني في يوم من الأيام؟
قمت لالة عيشة بحركة اعتراض. أطلقت تهداً طويلاً. أطلقت أمي بدورها تهداً عميقاً. تنهدت سلاماً كذلك قبل استئناف قصتها. لم أكن أستطيع ألا أفعل مثل الجميع، خرج تاؤه على شفتي. لم يلاحظه أحد. كانت سلاماً قد بدأت بالكلام.

- لقد قدر الله (و كل شيء مقدر من طرفه) أن أكون الوسيطة في هذا الزواج الذي جعلنا جميعنا تعساء. أنت، يا لالة عيشة، لأنك فقدت مودة زوجك مؤقتاً، عانت لالة زبيدة لأن صداقه طويلة تجمعكم، لاحظ سيدى العربي سريعاً بأنه عقد عيشه هدراً، أما فيما يخص ابنة الحلاق فستتحول عما قريب من فتاة شابة إلى امرأة مطلقة. ستجد كل الصعوبات في إيجاد زوج. هكذا تتفذ إرادة خالقنا. وضعنا على هذه الأرض لنعاني و نمجد.

تنهد الجميع من جديد و تابعت سلاماً:

- بدأ كل شيء في اليوم الذي كلفتني فيه كبيرة، ابنة معلمى المحترم مولاي عبد السلام ، بشراء الحناء لها. كنت قد وصلت إلى سوق التوابل لتؤدي عندما لمس أحدهم كتفي خلسة. الفت، كان مولاي العربي واقفاً أمامي، مبتسمًا و لطيفاً مثل العادة. تبادلنا التحايا المعتادة. تكلمنا مطولاً عن الجو السيئ الذي كان قد عاث فساداً، إن كنتما تتذكران ذلك جيداً، كان ذلك منذ شهر. سألته عن أحوالك، يا لالة عيشة!

- قال لي: إنها بخير. أخفض عينيه بعد ذلك و اتخذ وضعية مستسلمة.
- ما بك، يا مولاي العربي؟ هل يمكن أنك تخفي عنّي شيئاً خطيراً عن
أهلك؟

- أجاب مولاي العربي: كلا، لا أخفي عنك شيئاً، لكنك خمنت الأمر،
هناك ما يضايقني. إن أردت، يمكنك مساعدتي لأريح بالي.
كما تظنون، كانت حيرتي تزيد شيئاً فشيئاً. مر حمار محمل بأكياس السكر بيننا نحن الاثنين، فرقنا التصقت بالجدار و أشرت لمولاي العربي باللحاق بي. تبادل بعض الشتائم مع مار كان قد دفعه و جاء في الأخير إلى جانبي ليخبرني بما كان يقلقه.

- قال لي: أجل، تستطيعين مساعدتي. إن حالي تزدهر من يوم إلى آخر. أربح أكثر بكثير مما يلزم لإعالة أسرة و عدة أسر حتى. أكبر ألم في حياتي هو أنه ليس لدى أطفال. بالطبع، أنا أقدر و أحترم لالة عيشة، زوجتي الحالية؛ أعتقد بأن هذا التقدير و الاحترام متبدلان، لكنني لا أستطيع أن أتخيل مستقبلي بسكينة ما دمت لا أملك وريثا. قاطعته لأنصحه بأن يذهب و يستشير طبيبا.

- قال لي: لا تقاطعني، سلامة، لا أؤمن لا بالأطباء و لا بالعلاجات. في حالي، لا يوجد سوى حل واحد، و إن أردت، يمكنك أن تساعديني في الحصول عليه.

فتحت عيني جيدا و ظهرت بأنني لم أفهم.

- تابع مولاي العربي: العلاج هو إيجاد زوجة ثانية لي.

- لا أستطيع فعل هذا، يا مولاي العربي، أنا أحب كثيرا لالة عيشة لكي أكون سببا في كابتها.

- لن تعاني لالة عيشة، إنها تتمنى أن تراني أبا لطفل. و مع ذلك، سأطلب منك أن تكتمي سر حديثنا. لن يكون من اللائق إطلاعها على حدث يمكن لنتائج أن تؤدي إليها الخاص.

قبل أن أتمكن من الإجابة على حجته، دس بين يدي قطعة نقدية جديدة. ذهب و هو يوصيني بالتفكير جيدا في هذا العرض و بأن أمر لزيارته في ورشته خلال الأسبوع. بعد عدة أيام، مررت قرب الورشة...

كانت قصة سلامة تستهويوني، لكن حاجة ملحة أجبرتني على مقاطعتها لأسأل أمي إن كنت أستطيع النزول للطابق الأرضي لأقضي حاجتي.

تم استقبال مقاطعتي بغضب. صاحت بي أمي لتخبرني بالذهاب إلى حيث أشاء و ألا أعود لإزعاج الناس بكلمات غير لائقة. ذهبت على مضمض. نزلت الدرج بسرعة. كان باب المرحاض يوجد في زاوية من الطابق الأرضي. كان مفلا. انقضضت عليه لأقتحمه. سعل أحدهم في الداخل. كان يجب الانتظار. بدأت بالبكاء بصوت مرتفع. كنت أرقص بقدم على أخرى بينما أصبح بألمي. فتح الباب بشكل مفاجئ. لم أخذ وقتا لرؤيه وجه الساكن و انزويت داخل المقصورة الصغيرة. لم أتأخر في الخروج منه، بوجه فرح، سعيدا بالذهاب للاستماع إلى ترجمة قصة مولاي العربي المشوقة.

كنت أضع قدمي على أول درجات السلالم عندما نادتني امرأة بصوت مليء بالغضب:

- أيها الطفل قليل التهذيب، لا تستطيع أن تقول باب المرحاض بعد استعماله؟ اذهب لإغفاله! أنت لست في بيتك هنا، أنت ضيف، يجب على الضيوف أن يكونوا مودعين و يتصرفوا بشكل لائق في منزل غريب.

أخفضت أنفي. ذهبت بمظهر متচنع لإغفال الباب. كان مظهراً متصنعاً تماماً مثل ذاك الذي سمح لنفسي بإظهاره لأجيب هذه المرأة المشوومة.

- هنا، أنا لست ضيفاً، أنا ابن لالة زبيدة، صديقة لالة عيشة. لن تكون لالة عيشة سعيدة إن أخبرتها بأنك نعنتي بـ «الطفل قليل التهذيب».

- أنت طفل قليل التهذيب، اذهب وأخبرها بذلك، أيها الولد الوجه! هزيل قذر! هل تظن بأن لالة عيشة خاصتك ستقطع رأسى؟ إن بقيت تتظر إلى بهذه الطريقة فسأتناول مقصي و أقطع أذنيك.

أطلقت صرacha.

- أمي! لالة عيشة! إن هذه المرأة ترید أن تقطع أذنى! أوه! أذناي! أذناي!

كانت لالة عيشة قد أطلت من النافذة.

- ما الأمر؟ ما الأمر؟

حاولت امرأة الطابق الأرضي أن تشرح لها الموقف، لكنني كنت أصرخ عالياً لدرجة أن جملتها لم تكن تبلغ الطابق. كانت تقوم بإشارات بيدها لتدعوني للسكوت. بقيت أصيح، أتململ. ظهر رأس أمي إلى جانب الخاص بلالة عيشة. كانت كلاهما تطلبان تفسيراً. كانت بعض الجارات قد خرجن من غرفهن ليعدمني عدوتي.

هذا صوت سلامة الجميع.

- قالت: إنه مجرد طفل، لا يمكن لأحد أن يضرر له ضغينة لنسوان أو حماقة. لن يكون من المعقول أن ينشب شجار بسبب شقاوة. سيدني محمد، توقف عن البكاء و اصعد بسرعة، لقد وجدت كعب غزال آخر في جنبي سيفرحك بالتأكيد.

مسحت وجهي بأسفل جلبابي. صعدت الدرج بفخر.

كانت النساء قد عادت إلى أشغالها. عاد للمنزل هدوءه. عند دخولي إلى غرفة لالة عيشة، لم تستطع أمي أن تتمالك نفسها عن أن تبدي لي نظرة

كانت تقول الكثير. كنت أخشى هذه النظرة أكثر من أي شيء في العالم.
كانت تصعقني، تحطماني.

أمنت سلامة حمائي. مدّ ذراعها نحوه، ابتسمت لي بجميع أسنانها.
كان كعب الغزال ينتظرنـي على الصينية. أخذته، لكنـي لم أستطع حمله
إلى فمي.

كانت لالة عيشـة تـنشـلـ بـتـحضرـ الشـايـ منـ جـديـ. جـالـساـ بـيـنـ وـسـادـتـينـ،
كـانـ أـحـاـوـلـ الـاخـبـاءـ. كـانـ أـخـفـضـ عـيـنـيـ. سـمعـتـ أـمـيـ تـقـولـ، مـخـاطـبـةـ
سلامـةـ:

- كيف كان ذلك اللحم؟ هل كان حقاً قليـلـ الدـسـمـ أوـ لمـ يـكـنـ جـديـاـ؟

- حـسـبـ أـقوـالـ الـحـيـ كـلـهـ، كـانـ ذـاـ جـوـدـةـ مـمـتـازـةـ. إـلاـ أـنـ اـبـنـةـ سـيـ عـبدـ
الـرـحـمـانـ كـانـتـ تـبـحـثـ عـنـ ذـرـيـعـةـ. إـنـ مـوـلـايـ الـعـرـبـيـ فـيـ عـمـرـ أـبـيـهـاـ. مـنـ
جـهـةـ أـخـرىـ، لـمـ تـكـنـ إـمـكـانـيـاتـهـ تـسـمـحـ بـاـرـضـاءـ جـمـيعـ نـزـوـاتـهـ؛ ثـمـ، كـمـاـ قـلـتـ
لـكـمـ، إـنـ هـذـهـ الـفـتـاةـ مـجـنـونـةـ. مـنـذـ مـتـىـ كـانـتـ هـنـاكـ اـبـنـةـ حـلـاقـ تـطـلـبـ مـنـ
زـوـجـهـاـ أـنـ يـشـرـيـ لـهـاـ زـوـجـاـ مـنـ الـأـسـاوـرـ الـذـهـبـيـةـ. تـطـلـبـ الـمـالـ نـقـداـ لـتـشـرـيـ
تـفـاهـاتـ؟ لـتـنـظـمـ حـفـلـاتـ شـايـ لـصـدـيقـاتـهـاـ الـمـزـعـومـاتـ؟ لـتـعـزـفـ الصـنـجـ فيـ
كـلـ وـقـتـ؟

طـرـحـتـ لـالـلـاـةـ عـيـشـةـ سـوـالـاـ.

- لـكـنـ، أـلـمـ تـكـنـ تـعـمـلـ؟ أـلـمـ يـسـبـقـ لـهـاـ أـنـ تـعـلـمـتـ مـهـنـةـ ماـ؟

«ـ إـنـهـاـ تـطـرـزـ أـوـجـهـ الـأـحـذـيـةـ. كـلـفـهـاـ مـوـلـايـ الـعـرـبـيـ بـعـلـمـ أـوـ اـثـنـينـ، لـكـنـ
كـانـ عـلـمـهـاـ يـؤـخـرـ الـمـهـنـةـ كـثـيرـاـ، لـمـ يـكـنـ مـنـجـزاـ بـشـكـلـ جـيدـ وـ كـانـ دـائـماـ
تـطـلـبـ ضـعـفـ الـثـمـنـ الـعـادـيـ الـذـيـ تـقـبـضـهـ الـطـرـازـاتـ الـأـخـرـيـاتـ. تـوقـفـ
مـوـلـايـ الـعـرـبـيـ عـنـ تـوـظـيفـهـاـ. لـذـاكـ اـتـهـمـتـ بـأـنـهـ عـلـىـ عـلـاقـةـ غـيرـ شـرـعـيـةـ مـعـ
نـسـاءـ فـيـ أـحـيـاءـ نـاثـيـةـ. بـدـونـ شـكـ تـحـتـ ذـرـيـعـةـ تـكـلـيفـهـنـ بـتـطـرـيـزـ أـوـجـهـ
الـأـحـذـيـةـ، كـانـ يـسـتـغـلـ ذـلـكـ لـيـتـحدـثـ مـعـهـنـ بـطـرـيـقـةـ لـاـ تـلـيقـ بـمـؤـمـنـ.

«ـ نـحـنـ نـعـلـمـ بـأـنـ مـوـلـايـ الـعـرـبـيـ لـنـ يـقـومـ أـبـدـاـ بـأـفـعـالـ مـشـابـهـةـ. إـنـ هـذـهـ مـجـرـدـ
كـلـمـاتـ كـادـبـةـ لـفـتـاةـ غـيـرـةـ وـ غـيـورـةـ.

«ـ لـمـ يـكـنـ كـلـ هـذـاـ لـيـخـلـفـ عـوـاقـبـاـ لـوـ لـمـ تـكـنـ أـمـهـاـ تـنـدـخـلـ كـلـ لـحـظـةـ فـيـ شـوـؤـنـ
الـأـسـرـةـ. إـنـهـاـ تـأـتـيـ ثـلـاثـ أـوـ أـرـبـعـ مـرـاتـ فـيـ الـأـسـبـوـعـ لـشـمـ كـلـ شـيـءـ، إـعـطـاءـ
نـصـائحـ، إـيـداءـ اـسـتـيـانـهـاـ حـولـ هـذـاـ أـوـ ذـاكـ، تـحـرـيـضـ اـبـنـتـهـاـ عـلـىـ أـنـ تـكـوـنـ
مـتـطـلـبـةـ أـكـثـرـ، تـتـمـلـقـ كـبـرـيـاءـهـاـ وـ هـيـ تـرـدـ لـهـاـ بـأـنـهـ جـمـيـلـةـ جـدـاـ بـالـنـسـبـةـ لـمـسـنـ

عجز تفوح منه رائحة العرق و الجلد و الذي يظهر عاجزا عن تدليل زوجته الشابة كما تستحق.

« بطبيعة الحال، يتحمل مولاي العربي المسكين آثار هذه النصائح السيئة. آه! إنه يستحق الشفقة حقا، مولاي العربي! لم يجد في هذا الزواج سوى الحزن و الألم. نادرا ما يأتي ليراك، يا لالة عيشة، لأنه يعتقد بأنه ارتكب خطأ فادحا في حبك. لم ينسى ما فعلته من أجله. لم تكن لا أمه ولا أخته لتتقذه في الضيق كما فعلت بكرم. لكن الرجال كانتنات ضعيفة!»

« منذ أن تحسنت وضع بيته، لم يعد لديه سوى حلم واحد، إيجاد زوجة شابة ليسلي حياة العمل و الكفاح خاصته. إن زمننا يصبح غريبا أكثر فأكثر. إن شابات اليوم لسن مثل شبابات الأمس. ينقصهن الحياة، يجهلن الاحتشام، يحتقرن كرامتهن للحصول على رضى عابر. يفضلن الزواج بشباب أبله يتحكمن به على هواهن.

« إن مولاي العربي رجل، يلزمها إذن امرأة على مقاسه. إن هذه المرأة هي أنت يا لالة عيشة. كان خطوه هو نسيانه لهذا موقفنا.»

اتجهت كل الأنظار نحو الباب. كنا قد سمعنا صوت تحنج خافت للتو.

- قالت لالة عيشة: من هناك؟

- قريب.

- بهذه أنت يا زهور؟ فلتتدخل!

أظهرت زهور وجهها الصغير الكثير التبرج.

- هل يمكنني الحصول على غصن نعناع؟

- هاهو النعناع، لكن خذي بعض الوقت لنشربي معنا رشفة شاي.

- شكراء، سأفعل، لن يتاخر زوجي في الوصول.

- لم يعد بعد، إذن إبقي معنا حتى عودته.

قررت زهور الدخول.

كانت تشع شبابا و نضارة. كانت ترتدي ملابس باللون ملفتة للنظر. تقدمت بخطوات صغيرة، مدت يدها لأمي، حملت سبابتها إلى شفتها، أعطت يدها لسلامة، أعادت نفس الحركة. كنت أرغب في أن تجلس بجانبي. تحققت أمنياتي. جلست بجانبي. لمست يدها الصغيرة خدي.

بعد الأسئلة و الأجوية المعتادة و المرتبطة بصحة هذه أو تلك، دخلت زهور في صلب الموضوع. أرادت أن تعرف إن كان حكم طلاق مولاي

العربي و ابنة الحلاق قد صدر. نظرا لأن جميع النساء كن يظهرن جهلهن بالياءات متعددة، ابتسمت زهور بشكل عريض. فخورة لأنها أصبحت محط أنظار الجميع، بدأت مونولوجاً لاما.

- لا بد من أن أمي سلامة تعرف ما يحصل في هذه الأسرة، لكن الجميع يعرف كتمانها. و مع ذلك، كل سكان حي العدوة على علم بالصعوبات التي يواجهها يومياً مولاي العربي مع زوجته، على أية حال، إن هذه الفتاة مجنونة أو ممسوسة. تهدد محيطها بكسر كل شيء في المنزل لأتفه الأسباب، تصعد إلى السطح بنية القفز إلى الشارع من فوق الجدار. حصلت على معلومتي من مصادر موثوقة.

وهكذا، في يوم الثلاثاء الماضي، طلبت من زوجها أن يشتري لها في نفس الليلة، منديلاً مطرزاً بأهداب طويلة. عاد مولاي العربي بعد ساعتين بمنديل كستنائي براق برسوم متعددة الألوان. بالكاد نظرت إليه ابنة الحلاق، أمسكته بين الإبهام و السبابية، رمته في ساحة البيت بتكميرة اشمئاز.

- قالت لزوجها: من تحبني؟ فتاة من الباردة؟ كيف تجرأت على أن تهدينني منديلاً بألوان سوقية كهذا؟ صحيح أنه لم تدفع ثمناً باهظاً مقابل له! إعلم أنه عندما يتخذ ملتح عجوز مثلك كزوجة له فتاة كان يمكن أن تكون ابنته، يجب أن ينفذ كل طلباتها و لا يشتري لها إلا أغلى الأشياء. أنا أهبك شبابي و جمالي، في المقابل، تحضر لي منديلاً بالكاد يبدو جميلاً على رأس زنجية.

غضب مولاي العربي و بدأ بشتمها بعنف. تناولت ابنة الحلاق كأساً، كسرته على حافة النافذة و، بالقطعة الحادة التي كانت ما تزال في يدها، حاولت أن تقطع عنقها. أسرع مولاي العربي ليوقف حركتها. بدأت بالصراخ، بإشهاد الجيران، مدعية بأن زوجها كان يضربها، بأن وضعيتها لم تعد تحتمل، بأنها لم تكن تحصل أبداً على طعام كافٍ و بأنه كان عليها الاكتفاء بملابس مرقعة، لشدة بخل زوجها.

اعترفت سلامة بأنها لم تكن على علم بهذا الشجار.

- من حكى لك هذا، يا أختي الصغيرة؟

- ناس! في فاس، لا أحد يجهل شيئاً عن الآخر. أعرف كذلك بأن ابنة الحلاق كسلولة للغاية. لا تترك غطانها إلا بعد صلاة الولي. عندما ينام

مولاي العربي إلى جانبها، في الصباح، يذهب من دون غداء، دون أن يشرب كأس شاي حتى. غالباً ما ينتظر اللحم والخضر حتى المساء عندما لالة، ابنة الحلاق تقرر أن تطبخها. لن يتحمل مولاي العربي حياة كهذه مدة طويلة. لقد بدأ ينام في الورشة بدل الالتحاق بزوجته الشابة. إنه يستحبى كثيراً من أن يحكى كل هذا للاللة عيشة التي تستقبله، كما ينبغي، بفتور شديد منذ زواجه.

انتشر همس بين المستمعات. حاولت أمي قول شيء لكنها غيرت رأيها، تنهدت، غرفت من جديد في صمتها. تهدى الجميع بقناعة لم يعد لدى زهور شيء لتقوله.

فجأة، بدأ الجميع بالكلام في الوقت نفسه. كن يتكلمن عن ابنة الحلاق، عن الحلاق نفسه، عن زوجته، عن أمه المتوفاة (التي ذهبت عظامها لتشعل نيران الجحيم). تذكرون عدة قصص حصلت في هذه العائلة، لم تكن تنتهي دائماً في صالح أفرادها. من يسمعهن يصدق بأن الحلاق، أمه، زوجته وابنته كانوا يمثلون حثالة المجتمع؛ عند موتهم، حتى الكلاب ما كانت لترغب في جيفهم. كانوا بالكاد كائنات بشريّة وليسوا مسلمين تقريباً.

على وجه الأرض كلّه، لم تكن هناك أمة أكثر كرماً، أكثر صراحة أو أكثر عفة من أمة محمد (عليه أفضل الصلاة وأزكي السلام). لم يكن لا شخصاً مثلهم مكان بين طائفه نبيلة كهذه. من جهة أخرى، لم يكن لا النصارى ولا اليهود ليرغبوا فيهم.

كانت نبرة هذا النقد اللاذع عالية جداً. كان صوت سلامة يهزّم مثل الرعد، كان صوت النساء الآخريات يقلد تارة صوت الشلال و تارة صوت تحريك أوراق الشجر الجافة بفعل ريح نهاية الخريف.

كان ما يقلنه ينزلق دون أن يترك أثراً في عقلي. لم أكن أفهم معنى جميع الكلمات. لم يكن يهمني أن أفهم. كنت منتبها فقط إلى موسيقى المقاطع الفظوية. كنت أنصت بإمعان شديد لدرجة أنتي نسيت كأس الشاي الذي كنت أمسكه في يدي. ارتخت أصابعى. انسكب الشاي على ركبتي. كانت السكر الشفوي بشكل مفاجئ. نظر الجميع إلى بصمت مرعب. كانت المفاجأة و الرعب تلمعان في كل العيون الموجهة نحوه. بحثت عن أي عذر في عقلي المرتكب لكن دون جدوى. لم يكن أي تفسير يستطيع إنقاذه.

لم يكن البكاء ليجدي نفعا. نظرت إلى كل امرأة، رفعت عيني إلى السقف
و أطلقت تنها عميقا.

الفصل 12

في ذلك اليوم، منذ الصباح، كان هناك عنصر جديد يطفو في الجو و يحرك القلوب. حتى لالة كنزة، الشوافة، شخص صارم أكثر من الجميع، كانت تغنى مقطعاً موسيقياً رائجاً. كنت أسمعها من نافذتنا. كان صوتها ينهدج قليلاً لكن كانت الكلمات: قلب، عين الغزال، شفنا الوردة تصل إلى مسامعي. كانت هذه الكلمات تذكرني بأشياء جديدة و قيمة كانت قد نامت طويلاً تحت فراش من الغبار. كانت ترتفع، حرة، في سماء الصيف البيضاء، مرفرفة بسعادة بأجنبة كانت ما تزال تلتتصق بها نسج عناكب صغيرة و ثابتة. كررت طويلاً في ما يشبه لحظة فرحة عارمة: عين الغزال، شفة الوردة! كانت هذه الكلمات التي، بالنسبة لي، لم يكن لها معنى جميلة جداً. لم أكن أعرف كيف كان شكل عين الغزال و لا الغزال بأكملها. كانت شفة الوردة توحى لي بصورة أكثر سهولة في التصور لخيالي.

على أيّة حال، تمكنت بسرعة من الاعتراف بأن الأغنية ليست بحاجة إلى أن يكون لها معنى. وعدت نفسي بأن أؤلف أغاني فيما بعد. لم يكن ذلك يبدو لي صعباً. كان المعجم معتاداً بالنسبة لي مسبقاً. سأتكلم عن الليل، عن جباء بلون القمر، عن أسنان تشبه لآلئ منظومة في خيط حريري، عن شفاه ورد أو مرجان. كان دائماً الأمر يتعلق باسم امرأة. أي واحد كنت ساختار؟ بحثت طويلاً. كان اسم عيشة دائماً يتجسد في امرأة بدينة و ثرثارة: لالة عيشة صديقة أمي. كانت رحمة تسكن معنا؟ لم يكن اسمها يليهمني. زبيدة، إنها أمي. ربما لم يكن من اللائق كثيراً وضع اسم الأم الخاصة في أغنية، كانت زينب تسبب لي الكثير من المشاكل، فاطمة! كنت أراها من مكانٍ تعجن خبزها وسط غرفتها. لا أحد يستطيع أن يعني اسم امرأة كانت تجثو على الأرض و تعجن العجين في قصعة! ربما كنت ساختار زهور أو خديجة. بالأحرى زهور. ذكرى لطيفة!

وجه مخضب، فم مبتسم!
يشتعل خدائي بذكرى لمسة ينك!

زهور، التي كانت تعرف الكثير عن زواج ابنة الحلاق سي عبد الرحمن، كانت ما تزال تشغله. كنت قد هيأت لها عشا ناعماً في كياني. بدأت رحمة بدورها أغنية شعبية، نادت بمظهر كنيب جميع الأولياء لنجاتها. كانت تشتكي من نحافتها وأرقها. لم تكن نحيفة إطلاقاً، حسب قول ابنتها، كانت تخسر حتى يجعل زبديات الخرف الصيني ترتفع فوق رفوفها.

لم أفهم بقية القصيدة التي تتحدث عن عيون شاب لا أعرفه، عيون تشبه النجوم تعلوها حواجب مثل السيف المقوسة.

كانت كنزة، الشوافة، ورحمة زوجة صانع المحاريث قد أعطيتا المثال. ملأت أمي، بخجل، ثم بصوت أكثر حزماً، البيت بشدوها. قررت الاشتراك بشكل متواضع في هذه الحلقة الموسيقية. للمشاركة، لم يكن من اللازم اتباع آية قاعدة، لم يكن من الواجب استوفاء آية شروط خاصة. كان كل واحد يستسلم لإلهامه.

كان فهريسي يتالف فقط من كلمتين:
يا ليل! يا قمر!
انطلقت:

يا ليل! يا قمر!

إذا كانت القصيدة تبدو فقيرة، أقسم بالله بأن التوزيعات الموسيقية التي ألهمنتي إياها كانت تستحق البقاء منقوشة في الذكريات. إلا أن العقل البشري كان سيد صعوبة لا محدودة في تسجيل مجموعة التغيرات، النزوات الجريبة، الإيقاعات الغير متوقعة، التي، في لحظة الحرية التامة هذه، ولدت هذيني الغناني.

وسط هذا الم skirt ، عصف مثل الرعد في شمس أبريل الجميلة، سمع صوت مقرعة الباب عند مدخل البيت. أظلم البيت بصمت مطبق. عند الفرع الثاني، صاحت رحمة:

- من هناك؟

صاح صوت ضعيف لطفل بجملة مبهمة. امتنع وجهي. أطللت من النافذة. دعت خالي كنزة الطفل للولوج إلى الفناء. بعد دققيتين لا تحتملان من الانتظار، ظهر الخيال الممراض لولد صغير ذي عشر سنوات. عرفته. لقد كان علال البعقربي، تلميذ من كتابنا القرآني. أسرعت مذعوراً خلف

السرير لاختبئ. كانت أطرافي ترتجف، أسنانى تصطرك داخل فمي، يتسلل البرد إلى صدرى، يستقر فيه إلى الأبد.

كانت أمي تتكلم. كانت تقول:

- لقد تحسنت حالته. أشكر الفقيه لأنه أرسلك لتطلع على أحواله، قل له بأنه لم يستعد كامل عافيته بعد للعودة إلى السيد. إذهب، يا بني، فليفتح الله أبواب المعرفة في وجهك.

غرق البيت من جديد في صمت مدقع.

نادت أمي:

- سيدى محمد! يا، سيدى محمد! أين أنت؟
لم أجب.
اغتاظت.

- أين أنت، يا ابن الكلب؟ ألم تعد تستطيع الرد؟

عجزا عن فتح فمي، واجهت هذه الشتائم بصمت مهين.
ناحت، أشهدت الله، البيت والأمة الإسلامية على مصيبيها.

- يا ولتناه! يا ولتناه! إن ترك المرء من طرف زوجه و العيش مع طفل عنيد جدا لقدر تعيس لدرجة أنه لا يمكن تمنيه حتى للعدو، سواء كان يهوديا أو نصراانيا! يا رب! إسمع بكتائى! حق رجائي.

لابد من أن باب السماء كان مفتوحا على مصراعيه.

عادت زينب، التي كانت قد ذهبت للتسوق، و هي تلهث. سمعها الجميع و هي تصرخ من الزقاق.

- أمي زبيدة! أمي زبيدة! أحمل لك خبرا سارا، خبرا سارا!
خبراء سارا؟

توقفت أمي عن تأنيبي. وقفزت زينب، التي كانت تختنق من الانفعال، وسط الفناء، حاولت أن تفسر الموضوع لكنها لم تتمكن من ذلك. لم يكن أحد يفهم سبب إثارتها. كانت النساء قد تركن أعمالهن. كن ينظرن، واحدة من كوة و أخرى من نافذة، إلى زينب و هي تلوح وسط البهلو. خرجت من مخبئي. توقفت زينب عن الحركة منهكة. بدأت كل النساء بسؤالها. رفعت رأسها في اتجاه غرفتنا و تمكنت أخيرا من قول:

- لقد رأيت في الشارع... المعلم... عبد السلام!
استقبل صمت مشكك هذا الاعتراف.

كسرته رحمة:

- ما الذي تتغوهين به أيتها الكاذبة الشقية؟

- لقد رأيت يا عبد السلام على مقربة من بائع الدقيق، قرب مسجد النارنج. يحمل دجاجتين في يده. لقد تركته و هو يتحدث مع ريفي وجهه طويل مثل النعارة.

قالت كنزة من غرفتها:

- إذا كان ما تقوله زينب صحيحا، فنحن جميعنا سعيدات جداً لذلك و ننتمنى للمعلم عبد السلام عوداً حميداً.

لم تكن أمي تقول شيئاً التحقت بي في غرفتنا و بقيت في وسط الحجرة بذراعين متسلتين. كانت قد غادرت الأرض، كانت تسing في الفرح لدرجة أنها لم تعد تعرف كيف تستخدمن لسانها.

أسرعت إلى الدرج. لم أكن أعرف إلى أين كنت ذاهباً بالتحديد. كنت قد نزلت عشرة درجات عندما سمع صوت أبي في الطابق الأرضي.

- لا يوجد أحد؟ هل أستطيع الدخول؟

لم يكن صوته قد تغير.

- أجابت كنزة العرافه: أدخل، أيها المعلم عبد السلام. إنه يوم مبارك. لقد أعادك الله إلى أهلك، الحمد له.

- قال أبي: فليغمرك الله ببركاته.

عدت أدراجي. كنت أود رؤيته يدخل إلى الغرفة. كان الدرج يبدو لي مكاناً مظلماً، لم يكن مناسباً إطلاقاً للقاء أبي بعد سفر طويل كهذا. لم تكن أمي قد تحركت. بدت لي متوعكة قليلاً. حتى أنا، لم أعد أحس بحال جيد. تغطى جبيني بقطيرات باردة و كانت يداي ترتجفان بشكل خفيف. كان وقع أقدام أبي الثقيل ما يزال يسمع في الدرج. أظلم ظل باب غرفتنا. دخل أبي.

- السلام عليكم.

- همست أمي: و عليكم السلام، هل كانت سفرتك مريحة؟

- الحمد لله، لم أواجه أية متابعة، لكنني متعب قليلاً... سيدي محمد، تعال لأراك عن قرب.

اقربت من أبي. تخلص من الدجاجتين. وضعهما على الأرض مباشرة. كانت قوائمهما مربوطة بخوص نخل. بدأت ترفرفان بأجنحتهما، تطلقان نفقات رعب. كان أبي يخفى. كان يبدو لي متغيراً. كان وجهه قد اكتسب

لونا يشبه الفخار كان يربكني. كانت تفوح من جلبابه رائحة التراب، العرق و الروث. عندما مرر يده من تحت إبطي و رفعني إلى علو عمامته، استعدت ثقتي بأكملها و قهقهت. أفاقت أمي من خبوها. ضحكت مثل بنت صغيرة، أخذت الدجاجتين لتحملهما إلى المطبخ، عادت لتساعد أبي على إفراغ قلنسوته التي كانت تحتوي على بيض، أخرجت من كيس من الدوم أصيص زبدة، فنينة زيت، علبة زيتون، قطعة حلوى ريفية من السميد الخشن. مصابة بحمى النشاط، كانت ترتب ثرواتنا، تنفس على النار، تذهب، تأتي بخطو مستعجل دون التوقف عن الكلام، عن طرح الأسئلة و عن توبيخي بلطف.

جالسا على ركبتي أبي، كنت أحكي له الأحداث التي شغلت حياتنا خلال غيابه. كنت أحكيها على طريقتي، بدون ترتيب، دون هذا الخضوع الأعمى للحقيقة المجردة للواقع التي تجعل قصص الأشخاص البالغين خالية من المذاق و الإبداع. كنت أقفز من موقف إلى آخر، كنت أحرف التفاصيل، أختار لها عند الحاجة. في كل لحظة، كانت أمي تحاول أن تصحح ما كنت أؤكد: كان أبي يرجوها أن تدعنا بسلام. كانت الجارات يتمنين بصوت مرتفع أن تكون سعادتنا دائمة و صحتنا ممتازة.

كانت زغاريد تطلق على السطح. كانت نساء قدمات من المنازل المجاورة تعبّرن بصخب عن مشاركتهن لنا في فرحتنا. لم تتوقف أمي عن شكر البعض أو الآخريات.

عاد إدريس العاود من ورشته. أخبرته زوجته عن عودة أبي. نادى:
- يا معلم عبد السلام! نحن سعداء جداً بعودتك من جديد إلى أسرتك.
- إصعد للحظة، يا إدريس.

كان إدريس، صانع المحاريث، في مثل سن أبي. كان عمر كليهما يناهز الأربعين. كانا يعرفان بعضهما منذ أمد بعيد. صعد إدريس العاود إلى بيتنا.

تحدى الرجالان، بعد التحايا المألوفة، بشكل عفوٍ. تكلما عن جودة المحاصيل، أثمنة السلع و الأصدقاء المشتركين.
قال إدريس لأبي:

- لقد وصلت للتو و ربما حتى أناس بيتك لا يعرفون بالأمر بعد. لقد صدر حكم طلاق مولاي العربي و ابنة الحلاق بالأمس أمام كاتب عدل.

- الحمد لله! سيستطيع مولاي العربي أخيراً أن ينعم براحة البال، سلام الرجال المباركين. كنت أعلم بأن جنون مولاي العربي سيكون عابراً. أليس من الجنون محاولة جر عدة أنشوطتك في الوقت نفسه؟ إنه لمن الصعب مسبقاً التفاهم مع امرأة واحدة، العيش في ونام مع أطفال من صلبك. لقد تذوق مولاي العربي الثمرة المرة للتجربة، ها هو من جديد بين الناس الطبيعيين، يجب أن يحمد الله.

نادتني أمي بصوت منخفض:

- سيدى محمد! تعال لأخذ الصينية.

ذهبت لإحضارها من المطبخ. كانت الصينية ثقيلة على ذراعي الطفل خاصتي. قمت بهذه المهمة بشيء من الفخر. صب أبي الشاي. استأنف حديث الرجلين. تحول شيئاً فشيئاً إلى فرقرة. انتاب التعب أطرافي. أحسست بأنني حزين و وحيد. كلا! لم أكن أريد النوم، لم أكن أريد البكاء. أنا كذلك، كان لدى أصدقاء. كانوا سيعرفون كيف يشاركوني فرحي. سحبت علبة العجائب خاصتي من تحت السرير. فتحتها بتنقُّوي. كانت كل وجوه أحلامي تنتظرني.